أدب النساء

في الجاهلية والإسلام

تأليف

دكتور / محمد بدر معبدي

القسم الأول

النثر

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٩٣٧٧
٤٢ ميدان الأوبرا - ت ، ٩٢٠٨٦٨
المطبعة النموذجية
٦ سكة التابوري بالحلمية الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مكانة المرأة فى القديم والحديث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله .

وبعـــد :

كان للمرأة فى الجاهلية مكانة مرموقة ، ومنزلة عالية لا تدانى ، والدليل على هذا ما توارثناه من شعر الشعراء ونثر الأدباء الذى ، يتغنى بالمرأة ولا يفتأ عن ذكرها والإشادة بها فى غدوه ورواحه ، وممساه ومصبحه ، وذكرها يصاحبه حيثما حلّ وأينما ذهب ، ونراه حتى فى أشد ويلات الحرب ، ومنازلة الأعداء يذكرها ولا ينساها :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيــــل الرماح لأنها   لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ومما يدل على عظم منزلتها أنها رقت حتى تسنمت عرش المملكة ، فقد روى التاريخ أن كثيرات منهن وصلن إلى الملك والرئاسة ومنهن (زنوبيا) ملكة (تدمر) التى كانت تنادى بـ (جان دارك) الصحراء ، والتى يقول فيها المستشرق « وادنكتون » أنها من أصل عربى من بنى السميدع ، وقد خضعت لها القبائل ، وضرب بها المثل فى العزة والكبرياء ؛ فقيل أعز من « الزباء » .

ونقرأ فى القرآن الكريم سيرة « بلقيس » العظيمة وما كان لها من التجربة وحنكة الرأى والمنزلة الديموقراطية فى قومها إذ كانت تستشيرهم فى كل معضلة وتأخذ رأيهم فى كل أمر (أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون)[1]

---

(١) سورة النمل الآية ٣٢ .

إننا نقرأ هذه الآيات فنزداد إكباراً وإجلالا وتقديراً للمرأة وما وصلت إليه من مركز مرموق لدرجة أنها كانت تستشار فى الرأى ، ويرجع إليها إذا حزب القوم أمر ؛ فقد روى أن عمرة ابنة عامر الظرب كانت تقوم بالنيابة عن أبيها فى أمور الفتاوى ، وكانت تقرع العصا إذا رأته سها ، وفى هذا يقول قائلهم:

لذى الحكم قبل اليوم ما تقرع العصا

وما علـم الإنسان إلا ليعلما [1]

وإن المرأة منذ فجر التاريخ حتى اليوم قد برهنت على ذكاء عظيم ، ودقة إحساس تستثير الإعجاب ، ولقد ظهرت – كما أسلفنا – فى ميادين النشاط الفكرى شاعرة فياضة بالوحى الإلهى ، وناثرة قديرة على إيقاظ أنبل عواطفنا الإنسانية ، واستطاعت أن تكون رئيسة وحاكمة وقائدة جيوش وسياسية محنكة ... كل شىء قد برزت فيه وساوت فيه الرجل ، وفاقته أحياناً وتركت للناس فيه أحدوثة باقية وذكراً خالداً [2] . ويروى التاريخ أن النساء قد اشتركن فعلا فى حومة الوغى بعزيمة نادرة وشجاعة فائقة فى بعض الغزوات ، كغزوة أحد ، بل كن يلقين بفلذات أكبادهن فى المعركة ، وخير شاهد على هذا الخنساء ؛ فقد ضحت بأولادها الأربعة فى سبيل نصرة الإسلام .

وإذا لم تشترك النساء بالأعمال الفعلية فى الحرب فقد كن يقمن بالأعمال الهامة للمحاربين ، فيقدمن للمحاربين الماء والزاد والسلاح ، ويجندن من أنفسهن عيوناً للجيش فيرقبن المؤخرة والجوانب لئلا يباغتهم العدو ، ومن أهم أعمالهن تضميد الجراح ، فهن الطبيبات بالوراثة ، والأواسى اللائى يعالجن المرضى ، ويرفعن الروح المعنوية فى القتال بما يؤدين من خدمات جليلة وتضحيات نبيلة - ويرجع سر مهارة المرأة العربية فى الطب إلى تنقلهن مع

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٢٩

(٢) تحت المصباح الأخضر : ص ٦٥ توفيق الحكيم (مكتبة الآداب)

الرجال فى الحروب ، وبين المتخاصمين ، وعنايتهم بشئون الأطفال ؛ الأمر الذى جعلهن يعرفن الحالات المرضية ، وفقهن فى طبيعة الظواهر والتغييرات التى تصيب الإنسان ، وعلى العموم فإن جميع الأفعال والأعمال الخاصة بحياة السلم ورخاء الإنسانية كانت حيناً من الدهر وفى جذور التاريخ الإنسانى من أعمال الحقل النسائى [١] .

مما سبق يتضح دور المرأة فى الحياة الجاهلية ومدى ما كان لها من الحقوق فلقد صورها الشعراء فى صورة كريمة تليق بمكانتها ، وكانت أول شىء يبدأون به قصائدهم ، وبراعة استهلال يزينون بها أدبهم وشعرهم . ومن الذين تغنوا بالمرأة (طرفة بن العبد) فلقد قدمها على أنها مناظرة للرجل [٢] ، وتحدث إليها الشعراء فى إكبار وإجلال وتقدير ، يسبغون عليها حلل النبل والفضل ، ويضفون عليها سمات الذكاء والنجابة . وكان لها حقوق ، وعليها واجبات ؛ ومن أهم حقوقها على الرجل أن يحميها ويمنع عنها الضيم ويشعرها بأنها تعيش فى حمى حقيق فتجد فيه كفايتها وترى فيه ملجأها وحماها الحصين ، ولم يكن الرجل ليحمى أهله فقط ؛ فالبيت عند العربى يتسع حتى يشمل القبيلة ، ومن هنا ، افتخر الشعراء بأنهم يشركون جاراتهم فى طعامهم وما يذبحون أو يأكلون ، يقول حاتم :

وإنى لأخزى أن ترى لى بطنة   وجارات بيتى طاويات ونحف

فهو يشرك جاراته فى زاده ، ويعطيهن من الحقوق ما يعطيها أهله ، وهو يحميهن ضد المغيرين ، كما يدفع عنهن الجوع والمسغبة ، وكانت هذه الحماية تتضاعف إذا انقطع عنها المعين أو لم يكن لها بعل :

---

(١) د/ على الهاشمى ، المرأة فى الشعر الجاهلى ، ص ٧٥ .

(٢) يراجع ديوان طرفة : ص ١٤ .

وما تشتكينى جارة غير أننى إذا غاب عنى بعلها لا أزورها

سيبلغها خيرى ويرجع بعلها إليها ولم يقصد علىَّ ستورها[1]

كما يغض طرفه ويمنعه من النظر إلى النساء الأجنبيات عنه وبخاصة الجارات :

وأغض طرفى إن بدت لى جارة حتى يوارى جارتى مثواها

وأما واجبات المرأة ؛ فلم يكن العرب يرهقون نساءهم وفتياتهم بالأعمال والواجبات كما يفعل غيرهم من الشعوب الأخرى كاليونان والفرس ، وكانت تختلف حالة المرأة باختلاف الأسرة التى تعيش فيها ، فنساء الأسرة الراقية قلّ أن يقمن بالأعمال المنزلية وغيرها ، وكن يعتمدن على الإماء والخدم والحشم ، أما فى الطبقات الوسطى والدنيا فكن يقمن بأنفسهن بالأعمال المنزلية . وفى جميع الأسر (عالية ومتوسطة ودنيا) كانت أعمال البيت كلها مسئولة مسئولية كاملة من المرأة .

ولما جاء الإسلام الحنيف ارتقى بالمرأة وبلغ بها أوج الكمال ، ورفع من شأنها حتى تسنمت ذروة العلا ، ونظم حقوق المرأة وواجباتها وجعل لها دستوراً تلتزم به ولا تحيد عنه « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم » [2] والدرجة هذه هى ما عناها القرآن الكريم بقوله : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » [3] .

ووصى الرسول ﷺ بالمرأة خيراً وكرر التوصية بها فى غير حديث ،

---

(١) شعراء النصرانية ص ١٣٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢٢٤ . (٣) سورة النساء : ٢٤ .

وقرر الإسلام لها نصيباً مفروضاً : « وللنساء نصيب مما ترك الوالدن والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً »[١]

وإذا قارنا بين المرأة العربية وأختها فى الأمم الأخرى رأينا البون شاسعاً بينهما ؛ ففى ظلال النظم اليهودية التى قامت على ما يقتضيه نظام الأمة الحربية من خضوع المرأة للرجل والرغبة فى النسل ، نرى المرأة تسبى وتباع ، وتورّث ، وللآباء أن يؤجروا أبناءهم لموعد ، وأن يبيعوا بناتهم القاصرات بيع الرقيق وأن يقتلوهن[٢] .

وبعض الأديان ترى أن المرأة هابطة المكانة ، وأنها خلقت للرجل ، ففى رسالة (بولس) إلى أهل (كورنثوس) : « أريد أن تعلموا أن رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل »[٣] .

وقد أثار المجتمعون فى مجمع (ماكون ٥٨١ م) « قضية ما إذا كان للمرأة نفس » وهل تعدّ من البشر ، وبعد جدال طويل كان الجواب : أن لها نفساً وأنها بشر ، ولكنه كان بأكثرية قليلة وإن كانت الفكرة الغالبة عليهم أن المرأة خالية من الروح الناجية ما عدا السيدة مريم[٤] .

وفى الفرس لم تنل المرأة حظاً عالياً من الاحترام والتقدير ، فللفارسى أن يتصرف فى المرأة كما يتصرف فى السلعة ، بل لقد كان له أن يحكم عليها بالموت[٥] ، وكان قدماء الفرس يبيحون للرجل أن يتزوج بنته ، وأخته

---

(١) سورة النساء الآية :

(٢) حضارة العرب ٤٩٢ جستاف لوبون

(٣) الإصحاح ١١ : ٢ (٤) المرأة فى الشعر الجاهلى

(٥) تحرير المرأة : ٢٣ صبح الأعشى ١٣ - ٢٩٥ وقصة الحضارة الفارسية ٦١

الشقيقة أو غير الشقيقة — كما كانوا يبيحون الأمهات ويعتبرون ولادة الذكور ثروة ثمينة، ويرون ولادة البنات عاراً يجلب اللوعة والحسرة [1].

أما المرأة فى نظر اليونان والرومان، فقد انحطت مكانتها حتى بلغت الحضيض الأوهد، والدرك الأسفل، فكانوا يعدونها للمتعة، وعليها أن تطأطىء رأسها فى ذلة وخشوع للرجل، وكان زوجها يملك مالها ويقيم عليها وصياً قبل موته، وأبوها هو الذى يختار لها زوجها، فإذا تزوجت ملكها زوجها [2].

ومن هنا كان الفرق شاسعاً بين المرأتين، وكبيراً ما بين المنزلتين، فبينما رأينا المرأة العربية تبلغ السماكين[3] وتهز الخافقين[4]، إذا بأختها فى الأمم الأخرى ترسف فى أغلال القيود، وتهوى إلى قاع الحضيض :

هذى مشرّقة وذاك مغرّب   شتان بين مشرق ومغرب

ولو أطلقنا لقلمنا العنان فى هذه المقارنة بينهما لضاقت علينا صفحات هذا الكتاب، ولما اتسع المقام لإلقاء الأضواء على هذا الموضوع، ولطغت مقدمة الكتاب على جوهر البحث ... فلندع هذا إلى مقامه، ولكل مقام مقال.

والله ولى التوفيق.

د. محمد بدر معبدى

---

(١) انظر المرأة فى الشعر الجاهلى ٥٧.

(٢) انظر حضارة العرب لجوستاف : ٤٩٤.

(٣) السماكان : نجمان معروفان.

(٤) الخافقان : الشرق والغرب.

تمهيد

لا أدرى لماذا غفل علماء الأدب والشعر عن تسجيل تراث المرأة الأدبى والشعرى ، وقصّر المفكرون والمؤرخون فى إبرازه إلى حيز الوجود ، لنسد فراغاً كبيراً فى المكتبة الأدبية ، ونضيف إلى التراث الإنسانى تراثاً تليداً وطريفاً ما أحوجنا إليهما فى حياتنا الأدبية والشعرية .

إن فى المرأة قدرات خلاقة وحيوية ربما لا نجدها فى الرجل ؛ فقد منحتها قدرة الله الرقة والعذوبة ، وقد اقتضت وظيفة الأمومة أن تكون المرأة أكثر حساسية من الرجل وأسرع استجابة للمؤثرات العاطفية والوجدانية .

وكثيراً ماتهتدى عن طريق شعورها وبصيرتها إلى حقائق قد لا يستطيع الرجل أن يهتدى إليها بعقله وتفكيره المجرد ، فالمرأة هى الواحة الخضراء فى صحراء الحياة ، والمرأة قصيدة الدهر ، وأغرودة الأبد .

والناظر فيما ترامى إلينا من الأدب على بعد الزمن سواء فى الجاهلية أو الإسلام وما بعدهما ، يرى عقداً نظيماً يتلألأ فى جبين الأدب والشعر دلالاً وروعة وبهاء ، فالمرأة هى الوحى الذى يلقى فى خلد الأدباء والشعراء صوراً منتزعة من رؤى الأحلام ، يبعثها فى أفئدتهم نسيما عليلا وفكراً رائماً يتهادى على أسلات اللسان برداً وسلاماً ، يطمئن إليه القلب ويرتاح الخاطر . فالمرأة خمرة الأدب ، ورحيقه يرشفه الأديب والشاعر نشوة غامرة ، وما يقتبسه منها إلا وفى فمه لحن سماوى يتذوقه القارىء . وقلّ أن تجد أدباً رفيعاً مجرداً عن ذكرها . ففيه من روحها حلاوة ، ومن دلالها نغمة ، ومن سحرها رقة ،

ومن فتور عينيها هينمة . ولقد سجل التاريخ لبعض النساء العربيات مآثر ونبوغاً فى فترات زمنية متقطعة فى العقل والعلم والأدب ، فحفلت كتب التاريخ والأدب بالأديبات والشاعرات العربيات فى شتى العصور والأزمنة .

ولم تقتصر العناية بالأدب على الرجال وحدهم فقد نبغ من النساء عدد كبير ضربن بسهم وافر فى الأدب ، وكنّ أمثلة تحتذى فى قوة البيان وفصاحة اللسان ، وقوة العارضة . ومنهن — على سبيل المثال لا الحصر — الناقدة الأديبة أم جندب امرأة إمام الشعراء « امرىء القيس بن حجر » فلقد كانت أديبة نابهة يفد إليها الشعراء والأدباء ، فتدلى برأيها السديد ونظرها الثاقب فى شعرهم . ومنهن الخنساء فقد كانت خطيبة مؤثرة ، وشاعرة بارعة ولعل سبب قوتها الأدبية وتأثيرها يرجع إلى أنها مرّت بتجارب وبأحداث كثيرة مختلفة ، انعكس أثرها على نفسها فصقل أسلوبها وأضاف إليه الحنكة والتجربة والصلابة وشدة الأسر .

وقد كانت السيدة عائشة زوج الرسول ﷺ من أفصح أهل زمانها وأحفظهم للحديث ، فقد روت عن الرسول الكريم ألفين ومائتين وعشرة من الأحاديث ، وروى عنها الرواة من الرجال والنساء ، ولها خطب حماسية رائعة ، كما كانت من أفقه الناس وأكثرهم حفظاً للشعر والأدب حتى قيل إنه لم يوجد أحد أعلم منها فى فقه أو شعر .

أما السيدة عائشة بنت عثمان بن عفان ، فقد رثت والدها بعد استشهاده رثاء بليغاً مؤثراً ، يدل على تضلعها فى الأدب وتملكها ناصية الفصاحة والبلاغة .

ولا ينسى الأدب عائشة بنت طلحة ، فقد كانت مضرب الأمثال فى النبوغ فى الأدب والحكمة وعلم النجوم ، وقد دخلت على هشام ذات يوم ، فقال لها : ما أوفدك ؟ فقالت : حبست السماء المطر ومنع السلطان الحق ، فقال لها :

سأعرّفك حقك ، ثم بعث إلى مشايخ بنى أمية فقال: إن عائشة عندى فاسمروا معى الليلة ، فحضروا فما تذكروا شيئاً فى أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا أنار إلا سمته ، فقال لها هشام : أما الأول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت « أخذتها عن خالتى عائشة » فأمر لها بمائة ألف درهم وردّها إلى المدينة .

ومن شهيرات النساء فى العصر الأموى : أم البنين زوجة الخليفة الوليد ابن عبد الملك ، وقد عرفت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر ، وكانت لها مكانة ملحوظة فى قصر الخليفة الوليد يستشيرها فى مهام الدولة .

ومن شهيرات النساء فى العصر العباسى والأندلسى : أم جعفر زُبيدة بنت جعفر المنصور العباسى ، وعلية بنت المهدى ، والعباسة ، وولّادة بنت المستكفى ، وحمدة بنت زياد ، ولبنى كاتبة المستنصر ، والأديبة الأشبيلية الفذة مريم بنت أبى يعقوب التى اتخذت من بيتها محفلا لمدارسة الأدب ، وندوة للأدباء حتى غدت موضع الأنظار وموضع التجلة والاحترام ، وتسابق الأمراء والوزراء إلى تكريمها ونيل مودتها .

أما الشعر فحدّث عنه ولا حرج ... فقد كان للنساء ميدان واسع فى الشعر البليغ الرصين الذى يختلف عن شعر الرجال فى ابتعاده عن الغزل المكشوف والمجون والخمر والهجاء ، والمدح الرخيص . وكان وحيه عندهن ما عرفت به المرأة من عاطفة صادقة . وأروع ذلك الشعر فى الرثاء ، فإنهن وإن كن قد شاركن فى جميع أبواب الشعر إلا أن باب الرثاء قد حلقن فيه لأنه هو المجال الفسيح الذى تنطلق فيه عواطف المرأة لأنه نوع من النواح والبكاء ، وسلاح المرأة دائماً دموعها ، وهى أول شىء تلجأ إليه إذا حزبها أمر أو ألم بها مكروه ...

هذا ما أردت أن أقدمه لكتابى «أدب النساء فى الجاهلية والإسلام» وقد قسمت هذا القسم إلى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : ويشمل الأدب فى العصر الجاهلى .

والثانى : يشمل الأدب فى عصر صدر الإسلام وبنى أمية .

والثالث : ويشمل الأدب المولّد أو المحدث . ويدخل تحته الأدب فى العصر العباسى والأندلسى . ونأمل أن نكون وفقنا فيما هدفنا إليه من إظهار «أدب المرأة» إلى حيز الوجود حتى ينتفع الناس بهذا الكنز الثمين ، والدر الدفين الذى اختفى عن الأنظار حقباً من الزمان .

وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

د . محمد بدر معبدى

أولا — فى العصر الجاهلى

لقد عرفت المرأة فى شتى عصور الأدب العربى أديبة ونافدة وشاعرة ، وأن هناك درراً غوالى للمرأة العربية ما زالت ولا تزال وستظل تزهى بها مدى الأيام والشهور والحقب والدهور ، يضاف إلى ذلك ما اختبأ فى بطون الكتب المجهولة ، وما خفى فى خزائن الكتب التى عفا عليها الزمن وامتدت إليها يد التدمير والإفناء فى عهد محاكم التفتيش — وأيام التتر والمغول وغيرها من الحقب المختلفة .

لقد كانت المرأة العربية وما تكاد تسامى فى ارتياد شعاب القول ، وعجم أعواده وكشف فنونه وشؤونه ، ودرك مواطن القوة والضعف فيه فاقتحمت حومة البيان قائلة ناقدة : فإن نقدت فنقد القائل الحكيم ، أو قالت فقول البليغ العليم ، واشد ما أخذت على فحول الرجال مواطن الزلل فيما ابتدعوه وتأنقوا فيه ، ولها من دقة النقد ولطف المأخذ ، ونفاذ الإدرك ، وحسن البديهة ما جعل لها فى شتات مواقعها الرأى القاطع والكلمة الفاصلة [1] .

وقد رووا أن امرأ القيس نازع علقمة بن عبدة الفحل الشعر فقال علقمة : « الملك الضليل » [2] : قد حاكمت بينى وبينك امرأتك « أم جندب » قال امرؤ القيس : قد رضيت — فقالت لهما : قولا شعراً على روى واحد وقافية واحدة صفا فيه الخيل ، فقال امرؤ القيس :

خليلى مرّا بى على أم جندب   لنقض لبانات الفؤاد المعذّب

---

(١) المرأة العربية   ج ١ : دار الكتب المصرية ١٧٢ الطبعة الأولى ١٩٢١ .

(٢) المراد بالملك الضليل : امرؤ القيس .

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران فى غير مذهب ... ولم يك حقاً كل هذا التجنب

وأنشداها فغلّبت علقمة ، فقال لها زوجها : بأى شىء غلبتيه ؟ قالت لأنك قلت :

فللسوط ألهوب وللساق درة ... وللزجر منه وقع أهوج متعب[1]

فجهدت فرسك بسوطك ومريته بساقك وزجرك وأتعبته بجهدك وقال علقمة :

فولّى على آثارهن بحاصب ... وغيبة شؤبوب من الشد ملهب

فأدركهن ثانياً من عنانه ... يمر كمر الرائح المتحلب

فلم يضرب فرسه بسوط ولم يمره ولم يتعبه بزجر ، وفى رواية أن امرأ القيس قال لأم جندب : بم فضلته علىّ قالت : فرس ابن عبدة أجود من فرسك زجرت وضربت وحركت ساقيك ، وابن عبدة لم يصنع ما فعلت ، فغضب من قولها وطلقها وخلف عليها علقمة[2] .

وكذلك فعلت الخنساء فى نقدها لشعر حسان كما سنشير إليه فى ترجمتها. وقد نبغ من النساء فى العصر الجاهلى نساء كثيرات ، وكن أمثلة تحتذى فى قوة البيان وفصاحة اللسان ، وشاركت المرأة الجاهلية فى جميع ضروب القول فإذا تحدثت فإنما تنثر الدر من فيها ، حكيمة — وناقدة وخطيبة وموجهة فلكت شغاف الأفئدة واستولت على الوجدان والقلوب .

ولقد وصف النبي ﷺ رجالاً هم أمس الناس به ، وأطولهم لزاماً له

---

(١) ذكر صاحب كتاب المرأة العربية (مهذب) بدلا من (متعب) وكلاهما بمعنى واحد .

(٢) كتاب الأغانى ج ٧ : ١٢١ : ١٢٢ (ساسى) .

وأماؤهم قلباً منه ، وهم ملوك القول وفرسان البيان فلم يبلغ واحد من وصفه ما بلغته امرأة أعرابية مثل (أم معبد) .

ولئن اعتز رجال العرب بقوم منهم ، ضربوا الأمثال ونشروا مطارف الحكمة وكشفوا قناع الحقيقة فإن لنسائهم أن يعتززن بفريق منهن لا يقل عن أولئك شأناً ، ومن هؤلاء أمامة بنت الحارث ، وهند بنت الخس الأيادية ، والشعثاء الكاهنة ، والزبراء ، والعجفاء بنت علقمة ، والجمانة بنت قيس ، وعصام الكندية ، وحذام بنت الريان وغيرهن من الأديبات والناثرات ، ولو تتبعنا ذكرهن وأخبارهن لضاق بهن هذا الكتيب الضئيل ، والأمل إن شاء الله أن نفرد لأديبات وخطيبات العرب وناقداتهن سفراً خاصاً مطولاً لو امتدت بنا الأيام ، وصدقت الأحلام .

الفصل الأول

الوصـــايا

أسـلوب الوصية

أسلوب الوصية فى هذه الحقبة كان يجنح إلى السجع تارة وإلى الازدواج تارة أخرى، وكان السجع محبباً إليهن ، وذلك للاستعانة به على التأثير فى الوصية ، ولمـا يقتضيه المقام من تأنق فى القول ، وربما كان شيوع السجع راجعاً إلى مافيه من نغم متعادل ، ورنة موسيقية ، فهو أعمق أثراً فى النفس ، وأحلى إيقاعاً فى الأذن ، والأذن أحد طريقين تنفذ فيهما الوصية إلى نفوس سامعيها ، وربما لأن السجع أشد مقاومة لعوامل الضياع من غيره لقربه من الشعر : فهو أسهل حفظاً ، وأكثر بالذهن لصوقاً . ومع السجع نرى تقصير الجمل والفصل بينها ، حتى تبدو كأنها فقرات أو جمل منفصلة ، وربما كان للارتجال أثره فى هذا ، على أن تقصير الجمل فى المواعظ والوصية شىء تستدعيه طبيعة الموضوع حتى يتاح الموصى أن يتنفس وأن يستريح وأن يتدبر مايقول ، وحتى يتيسر للسامع أن يتابعه ويفهم عنه ؛ إذ لو جاءت الجمل مفرطة الطول لضاق بهـا السامع وتخلف عنها وجهد فى تتبعها ولو جاءت بالغة القصر لوقفت به فجأة دون ما يتوقع كأنما تعثر فكره وزل[1] .

كما نلاحظ الترادف أحياناً والتنوع فى العبارات المعنى الواحد . وفى الترادف والتنويع تغيير يبعث على نشاط السامع ولذته ونلاحظ قلة تعمقهن فى استخراج

---

(١) الخطابة لأرسطو . وراجع الخطابة فى صدر الإسلام ج ١ ٧٧

المعانى البعيدة ، وفى استقصاء الأفكار العويصة التى تحتاج كد خاطر ودرس علم ، وأنهن كثيراً ما يستخدمن الكنايات القريبة المنال ، ويملن فى الوصايا إلى سوق الحكم والأمثلة الحكيمة ليكون ذلك أدعى إلى قبول الوصية والإسراع إلى تطبيقها .

* * *

وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس [١] :

أى بنية ، إنك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلّفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكا ، فكونى له أمة يكن لك عبداً وشيكا [٢] ، يا بنية احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً وذكراً : الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه . فلا تقع عينه فيك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدو عنه عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تفشى له سراً ، ولا تعصى له أمراً ، فإنك إن أفشيت سره ،

---

(١) من ربات الفصاحة والبلاغة والرأى والعقل خطب الحارث بن عمرو ملك كندة ابنتها أم اياس بنت عوف بن محلم الشيبانى فزوجها أبوها منه فقالت أمامة لابنتها «إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك،ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال » (مجمع الأمثال ٢ : ١٤٢ والعقد الفريد ٣ : ٢٢٣ .

(٢) وشيكا : أى سريع الإجابة) .

لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أوغرت صدره ، ثم اتقى من ذلك الفرح إن كان ترِحاً ، والاكتئاب عنده إن كان فرِحاً ، فإن الخصلة الأولى من التقصير والثانية من التكدير ، وكونى أشد ما تكونين له إعظاماً ، يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطول ما تكونين له مرافقة ، واعلمى أنك لن تصلى إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببتِ وكرهتِ ، والله يخير لك ، ١ هـ .

والوصية المذكورة دستور للمرأة العاقلة التى تحرص على سعادة عشها وبيتها ، وقد صدرت من أم مجرّبة محنكة حلبت الدهر أشطره ، وحرصت كل الحرص ، على أن تحقق السعادة — والرفاه لابنتها ، وتبين لها ما يجب عليها نحو زوجها لتدوم السعادة الزوجية ، وتتحقق السكينة والطمأنينة .

وقد جاءت الوصية مسجوعة إذ هو الطابع الذى كان يسود ذلك العصر . والوصية قلائد من الذهب جاءت عفو الخاطر ودون تكلف أو صناعة متعمدة ، كما زخرت الوصية بالتشبيهات والاستعارات مما أكسب النص روعة وجمالا ، كما عمدت أم إياس إلى التنويع فى الأسلوب والخطاب فمرة تجد النداء فى قولها : أى بنية ، يتبعه الخبر المؤكد فى قولها « إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت » ، وأحياناً تجد الأمر فى قولها : « فكونى له أمة يكن لك عبداً ، واحفظى له خصالاً عشراً يكن لك ذخراً » كما تجد الخبر يتبعه النهى المؤكد فى نحو قولها : « فلا تفشى له سراً ، ولا تعصى له أمراً » كما تجد أسلوب الشرط فى قولها : فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وما أحسن أسلوب التحذير فى قولها : ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما ، والاكتئاب إن كان فرحاً ، وهذا التنويع فى الأسلوب والخطاب له أثره فى التشويق واستثارة العواطف ولفت الأذهان ، وتنبيه المخاطب إلى ما يقال ، وما يجب أن يأخذ أو يعمل به .

وحبذا لو حفظت فتياتنا هذه الوصية وطبقنها فى بيوتهن دون حساسية ، إذاً لرأينا السعد يرفرف على بيوتهن ، فهو نص حيكم من أم أفنتها تجارب السنين أرادت أن تضمن لابنتها الهناء فى بيتها الجديد ، فوضح لها الحياة التى لم تألفها من قبل ، ثم تنتقل إلى سرد ما يتوجب على المرأة نحو زوجها فتوصيها بعشر خصال جامعة ، خلاصتها : القناعة ، والطاعة ، والاعتناء بالمظهر اعتناء لا يخرج عن الحد المطلوب المعتدل ، والنظافة ، وحسن التدبير ، والمحافظة على السر ، ومراعاة حالة الزوج النفسية توفيراً لكرامتها واجتلاباً لهنائها[1] .

ووصفت أعرابية كرم الأخلاق عند أمها فقالت :

« يا أمه ، من نشر ثوب الثناء فقد أدى واجب الجزاء ، وفى كتمان الشكر جحود لما وجب من الحق ، ودخول فى كفر النعم » فقالت لها أمها :

أى بنية : أطبت الثناء وقمت بالجزاء ولم تدعى للذم موضعاً ، إنى وجدت من عقل لم يعجل بذم ولا ثناء إلا بعد اختبار ، فقالت: يا أمه : ما مدحت حتى اختبرت ، ولا وصفت حتى عرفت . قال الزوج : « ما وفيتك حقك ، ولا شكرتك إلا بفضلك ، ولا أتيت إلا بطيب حسبك وكريم نسبك ، والله أسأل أن يمتعنى بما وهب منك » .

وهذا حديث امرأة عاقلة تعترف بفضل بعلها ، وتشيد بخلاله الكريمة ، بعد أن عجمت عوده ، وسبرت غوره ، كما يدل حديثها على الاحترام المتبادل بينها وبين زوجها ، وما أحرى فتياتنا أن يسلكن هذا السبيل ، وييممن وجوههن شطر هذا الدرب ، حتى يسعد الزوجان ، ويعيشا عيشة راضية .

---

(١) انظر الأدب الجاهلى من تأليفى بالاشتراك مع الدكتور عبد الله العشرى ، مطبعة المنار — الرياض ١٩٧٨ .

وما أروع نصيحة الجمانة(١) بنت قيس بن زهير لجدها الربيع :
كان قيس بن زهير العبسى قد اشترى من مكة درعاً حسنة ، تسمى ذات الفضول وورد بها إلى قومه فرآها عمه الربيع بن زياد ، وكان سيد بنى زياد فأخذها منه غصباً ، فقالت الجمانة بنت قيس لأبيها دعنى أناظر جدى فإن صلح الأمر بينكما ، وإلا كنت من وراء رأيك ، فأذن لها فأتت الربيع فقالت :

« إذا كان قيس أبى ، فإنك يا ربيع جدى ، وما يجب له من حق الأبوة علىّ إلا كالذى يجب عليك من حق البنوة لى ، والرأى الصحيح تبعثه العناية ، ويتجلى عن محضه النصيحة ، إنك قد ظلمت قيساً بأخذ درعه ، وأجد مكافأته إياك سوء عزمه ، والمعارض منتصر ، والبادىء أظلم ، وليس قيس ممن يخوّف بالوعيد ، ولا يردعه التهديد ، فلا تركنن إلى منابذته ، فالحزم فى متاركته ، والحرب متلفة للعباد ، ذهابة بالطارف والتلاد(٢) والسلم أرخى للبال وأبقى لأنفس الرجال ، وبحق أقول لقد صدعت بحكم ، وما يدفع قولى إلاّ غير ذى فهم » ثم أنشدت تقول :

أبى لا يرى أن يترك الدهر درعه وجدى يرى أن يأخذ الدرع من أبى
فرأىُ أبى رأى البخيـل بمـاله وشيمة جدى شيمة الخائف الأبى

وقد لاحظنا فى أسلوب الجمانة الأدبية أنها حسّاسة فى استخدام الألفاظ فاستهلت حديثها باستعطاف جدها ، واستدرار حنانه ، فأثارت فى جدها حنان الأب الكبير الحانى على بنيه وبناته ، وقد كانت مقدمة وصيتها براعة استهلال وصلت بهـا إلى أعلى سويداء قلبه ، وكانت منطقية بارعة فى مناظرتهـا لجدها

(١) الجمانة بنت قيس بن زهير العبسى ، شاعرة من شواعر العرب فضلا عن أنها خطيبة لماحة وأديبة من أديبات العرب راجع بلاغات النساء لطيفور ص١٢٩ .
(٢) الطارف والتلاد : الحديث والقديم .

لحذرته من الظلم وعاقبته ، وأن المعارض منتصر والبادىء أظلم ، وأستطيع أن أقول إن مناظرتها كانت عبارة عن مقدمات ونتائج ، أفحمت بها جدها ودفعته إلى الرضوخ إلى منطق الحق والإصاخة إلى صوت العدل .

ونلاحظ أن مناصحتها ومناظرتها خلت من السجع خروجاً على القاعدة المألوفة والعادة المتبعة فى ذلك العصر ، وذلك أن الموقف موقف مناظرة ومجادلة ، والوقت ليس وقت صنعة أو زخرفة ، وإنما يحتاج إلى إبراز حقائق ناصعة تقنع الخصم بالبرهان والدليل .

الفصل الثاني

الوصف

الوصف عند العرب أكبر الفنون والأغراض التي تكلموا فيها ، وتفننوا في الإبداع في وصف كل ما يقع تحت حسهم ، ويراه ناظرهم ، وتزخر به بيئتهم ، فوصفوا من الحيوان الإبل وافتنوا في ذلك بما لم تفقهم فيه أمة في وصف نفيس لديها ، ومن أبلغ وصاف الإبل : طرفة بن العبد .

كما وصفوا الخيل في ضروب خلقها وأحوال سيرها . ومن أشهرهم في ذلك امرؤ القيس وأبو دؤاد الإيادي ، ووصفوا منه أيضاً كواسر السباع ، وأوابد الوحوش ، وجوارح الطيور وصوادحها ، وخشاش الأرض وهوامها ، ووصفوا من النبات ضروبه وشياته ، ومن السماء نجومها وكواكبها ، وسحائبها ، وبروقها وأنواءها وأمطارها ، ومن الأرض سهلها وجبلها ، ومرابعها ومصايفها ، وخاصة الأطلال والديار والدمن ، وتعفية الرياح والأمطار لآثارها ، وشبهوها أحيانا برقم الكتب وصحائف الرهبان ، وبالوشم على ظاهر اليد ، وبالثوب الخلق أو المرقم ونحو ذلك .

ووصفوا أحوال الإنسان من ظعن وإقامة ، وقتال ونزال ومبارزة . كما وصفوا جمال المرأة وأخلاقها وطباعها ، والبارعات في هذا الفن : عصام الكندية وهند وجمعة بنتا الخس ، ونلاحظ أن وصفهن مستمد من البيئة وتشبيهاتهن مستوحاة مما يقع تحت ناظرهن ، وتدركه حواسهن فجاء وصفاً طبعياً غير متكلف ، وكما يمليه الخاطر بلا مبالغة ولا إغراق ، ويتجلى ذلك كما سيأتي في قول (عصام) تصف جمال أم إياس « رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شعر حالك

كأذناب الخيل المضفورة ، فالتشبيهات مأخوذة من بيئتهن وما يشاهدنه فى الصحراء من خيل ، وإبل ، وديار وأطلال ، وغناء الحمائم ، ولمع البروق ، وهبوب النسيم إلى غير ذلك ، وقد جاء وصفهن فطرياً — كما قدمنا — خالياً من المبالغة المتعمدة التى تخرجه عن حد المألوف والمعقول ، فلم يتعمدن فى وصفهن جناساً ، ولم يتكلفن طباقاً ، ولم يقصدن إلى تورية ، وما وقع ذلك من المحسنات ، على قلته ، فإنما كان عفواً لا تعمد فيه، خلا بعضاً من سجع الكهان[1].

كما نلاحظ أن أسلوب الوصف عند المرأة يجنح إلى التفصيل ، والتحليل الذى قد يخفى على العين العابرة ، والإسهاب فى ذكر أوصاف الموصوف كلما سنحت لها الفرصة ، وفى هذا الميدان استطاعت المرأة أن تظهر من الإبداع فى الوصف والقدرة على تفصيل أوصاف الموصوف مما قصر عنه باع الأديب الوصاف فى بعض الأحيان ؛ وحينما نقرأ وصف المرأة ندرك مدى دقة وصفها ؛ وبلوغها أوج البلاغة التى يعجز عن بلوغها الواصفون ؛ ويقف دون إدراكها المترسلون .

* * *

وصف عصام الكندية لأم إياس بنت عوف بن محلم الشيبانى :

لما بلغ الحارث بن عمرو ملك كندة جمال أم إياس بنت عوف بن محلّم الشيبانى وكمالها وقوة عقلها ، أراد أن يتزوجها فدعا امرأة من كندة يقال لها عصام ذات عقل ولسان وأدب وبيان وقال لها : اذهبى حتى تعلمى لى علم ابنة عوف ، فمضت حتى انتهت إلى أمها أمامة بنت الحارث فأعلمتها ماقدمت له فأرسلت أمامة إلى ابنتها وقالت : أى بنية ، هذه خالتك أتت إليك لتنظر بعض شأنك ، فلا تستري عنها شيئاً أرادت أن تنظر إليه ، من وجه وخلق ، وناطقيها فيما استنطقتك فيه . فدخلت عصام عليها فنظرت إلى ما لم تر عينها مثله قط ، بهجة وحسناً وجمالا ، فإذا هى أكمل الناس عقلا وأفصحهم لساناً . فخرجت من عندها

---

(١) الوسيط : ٢٠

وهى تقول : « ترك الخداع من كشف القناع » فذهبت مثلاً ، ثم أقبلت إلى الحارث فقال لها : « ما وراءك يا عصام ؟ » فذهبت مثلا ، قالت : « صرح المخض عن الزبد » فذهبت مثلا ، قال : أخبريني ، قالت : أخبرك حقاً وصدقاً : رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك ، كأذناب الخيل المضفورة ، إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد كرم جلاها الوابل[(1)] وحاجبين كأنهما خطا بقلم ، أو سودا بحمم[(2)] قد تقوسا على عين الظبية العبهرة[(3)] التى لم يرعها قانص ، ولم يذعرها قسورة[(4)] ، بينهما أنف كحد السيف المصقول ، لم يخنس به قصر[(5)] ولم يمض به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان[(6)] . فى بياض محض كالجمان[(7)] شق فيه فم كالخاتم : لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غر ذوات أشر[(8)] ، وأسنان تبدو كالدرر ، وريق كالخمر له نشر الروض بالسحر يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان ، يحركه عقل وافر وجواب حاضر ، تلتقى دونه شفتان حمراوان كالورد ، يحلبان ريقا كالشهد ، تحت ذلك عنق كإبريق الفضة ، ركب فى صدر كصدر تمثال دمية[(9)] ، يتصل بها عضدان ممتلئان لحماً ، مكتنزان شحماً ، وذراعان ليس فيهما عظم يحس ، ولا عرق يجس ، ركبت فيهما كفان ، دقيق قصبهما ، تعقد إن شئت منهما الأنامل وتركب الفصوص فى حفر المفاصل ، وقد تربع فى صدرها حقان ، كأنهما رمانتان ، يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك بطن طوى كطى القباطى[(10)] المدمجة ،

---

(١) المطر الشديد الضخم القطر .
(٢) الحمم : الفحم .
(٣) العبهرة : الرقيقة البشرة الناصعة البياض .
(٤) تقصد الرماة من الصيادين .
(٥) لم يخنس : لم يتأخر .
(٦) الأرجوان : صبغ أحمر .
(٧) الجمان : اللؤلؤ .
(٨) التحزيز الذى فيها .
(٩) الدمية : الصورة المزخرفة .
(١٠) القباطى : ثياب كتان بيض كانت تعمل فى مصر .

كُسِيَ عُكَناً (١) كالقراطيس المدرجة (٢) تحيط تلك العُكَن بِسُرَّة كَمُدْهُنِ (٣) العاج المجلو ، خلف ذلك ظهر كالجدول ينتهي إلى خصر لولا رحمة الله لانبتر ، تحتها كفل (٤) يقعدها إذا نهضت وينهضها إذا قعدت كأنه دعص (٥) رمل لبَّده سقوط الطل ، يحمله فخذان لفَّاوان (٦) كأنهما نضيد الجمان ، تحتهما ساقان خدلتان كالبرديّ (٧) وشياً بشعر أسود كأنه حلق الزرد ، يحمل ذلك قدمان كحذو اللسان ، فتبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما ، فأما سوى ذلك فتركت أن أصفه غير أنه أحسن ما وصف واصف بنظم أو نثر . فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجه إياها (٨) .

فما أبدع وصف عصام الكندية ، وما أرق حديثها ، وما أجمل التشبيهات الجمالية التي تتخلل القطعة ، إن القطعة كما وصفتها عصام أبلغ ما وصفه واصف بنظم أو نثر ، وقد حشدت عصام في هذه الخطبة حشداً من العبارات القوية الرنانة ، والألفاظ الضخمة والتشبيهات والاستعارات ، والتمثيل والصور ، فجاءت قطعة أدبية رائعة محكمة الصلابة والأسر .

وقد جرت كعادة عصرها في استخدام صنعة السجع في غير ما تكلف ولا تطبع أو تصنع ، وأضفت على العروس أبهى آيات الصفات الخلْقية والخلُقية التي ينشدها الرجل في المرأة ، من جبهة كالمرآة الصقيلة وشعر حالك كالليل ، وحاجب كأنما خط بقلم ، وعين كعين الظبية الرقيقة ، وأنف كحد

---

(١) العكن جمع عكنة (كغرفة) وهي ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا .

(٢) المدرجة : المطوية .

(٣) المدهن : قارورة الدهن .

(٤) كفل : عجز .

(٥) الدعص : الكثيب من الرمل المجتمع .

(٦) اللفاء : الضخمة الفخذين .

(٧) خدلة : ضخمة ، البردي : ورق البردي .

(٨) العقد الفريد ٣ — ٢٣٥ ، ومجمع الأمثال ٣ — ١٤٣ ، وجمهرة الأمثال ٢ — ٢٧ ، نقلا عن كتاب جمهرة خطب العرب ج ١ : ١٤٤ .

السيف الصقيل ، ووجنات حمراء كالأرجوان ، وفم كالخاتم ، لذيذ الابتسام ، وأسنان كاللؤلؤ وريق كالخمر ، نشره يملأ الدنيا مسكاً وعطراً إلى غير ذلك من الصفات الخلقية ، وقد بلغت الغاية ، وأربت على النهاية ، فى وصفها خصر المرأة بالضمور والنحول لدرجة أنه من شدة نحوله وضموره يكاد ينبتر ، وما أجمل الاستعارة فى قولها : يخرقان عليها ثيابها ، وقولها : تحته كفل يقعدها إذا نهضت ، وينهضها إذا قعدت ، ثم تتعجب فى آخر القطعة كيف تطيق قدماها اللتان كحذو اللسان حمل هذا الشىء الثقيل وتسير به ، وأظن أن هذه الصفات التى ساقتها عصام ، ربما تنطبق على ما كان مألوفاً ومرغوباً من المرأة فى عصرها (من غلظ الفخذين وامتلاء الذراعين والساقين ، وبطن ملء كسى مُعكَّناً وتثنى من لحم البطن سمناً) .

أما فى عصرنا الحالى فالمرغوب فى الفتاة ، القد الرشيق الذى يشبه القباطى المدمجة والقراطيس المدرجة (كما حكت ذلك عصام) والبطن الذى تبرأ من الشحم ، وليس الذى يتثنى من لحم البطن سمناً وقد وفقت عصام إلى حد ما فى وصف أوصاف المرأة الجسدية والخلقية ، أما الصفات الخلقية والنفسية فأوجزتها فى كلمات معدودات : لسان ذو فصاحة ، وبيان يحركه عقل وافر وجواب حاضر ، وكأنما تشير إلى قول الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
فلم يبق إلا صـــورة اللحم والدم

وبهذا اكتملت الصورة الخلقية والخلقية التى رسمتها عصام لأم إياس (العروس) فجاء لوحة فنية رائعة تخلب العقول وتأسر القلوب ، فلا غرو إذا سارع الحارث بن عمرو إلى أبيها فخطبها فزوجه إياها [١] .

---

(١) فى مجمع الأمثال وجمهرة الأمثال أن الذى تزوج أم إياس هو الحارث ابن عمرو والحارث هذا هو جد امرىء القيس وذكر صاحب العقد الفريد أن الذى =

ومن حديث وصف المرأة أيضاً :

أن جمعة [١] وهند [٢] ابنتا الخس وافتا سوق عكاظ فاجتمعتا بين يدى القلمس الكنانى . فقال لهما : إنى سائلكما لأعلم أيكما أبسط لساناً وأظهر بياناً وأحسن للصفة إتقاناً ، قالتا سلنا عما بدا لك ، فستجد عندنا عقولا زكية وألسنة قوية وصفة جلية ، قال القلمس : أى ذكور الخيل أحب إليك يا جمعة ؟

= تزوجها هو عمرو بن حجر . وأنها ولدت له الحارث بن عمرو جد امرىء القيس غير أننا نلاحظ أنه قال فى مقدمة هذا الوصف : « ثم أقبلت عصام إلى الحارث فقال لها : ما وراءك يا عصام ؟ » فيفهم منه أن الذى تزوجها هو الحارث بن عمرو . يرجع إلى كتاب العقد الفريد ٦ / ٨٣ ، كتاب المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن .

(١) جمعة شاعرة من شواعر العرب وأديبة من أديبات العصر الجاهلى وكانت تتردد دائماً على سوق عكاظ فتعرض شعرها ونثرها على القلمس الكنانى .

(٢) كما كانت أختها هند شاعرة وخطيبة ذات فصاحة وبلاغة وحكمة ، (راجع أعلام النساء ج ١ : ٢٠٦ و ج ٢ : ٢٣١ ، طبعة بيروت مؤسسة الرسالة) . وقد اختلف العلماء والمؤرخون فى نسب هند وجمعة ، فمن قائل إنهما أختان وإنهما ابنتا الخس الإيادى ، ومن قائل إن هنداً هى إبنة الخس ، وأما جمعة فإبنة حابس ، وهما جميعاً حكيمتان يضرب بهما المثل فى جلال الحكمة وحسن البيان وفيهما يقول الجاحظ : من أهل الدهاء ومن أهل اللسن واللقن ، والجواب العجيب والكلام الصحيح والأمثال السائرة والمخارج العجيبة هند بنت الخس وهى الزرقاء وجمعة بنت حابس والقلمس سيد من سادات كنانة ، وحكيم من حكمائها وكاهن من كهان العرب ، ومما عرف عنه أنه كان ينسأ الشهور فيحل حرامها ويحرم حلالها وفيه تقول هند بنت الخس :

إذا الله جازى منعما بوفائه فجازاك عنى ياقلمس بالكرم

المرأة العربية ج ١ : ١٧٨ .

انظر البيان والتبين — نسخة خطية من ٨٨ — ٩٠

قالت أحب المنسوب جدّه [١] ، الأسيل خده [٢] ، السريع شده [٣] ، الطويل مدّه [٤] ، الشديد هدّه [٥] ، الجميل قده .

ثم قالت هند : هذا فرس خليق إن طلب لم يلحق ، وإن جورى لم يسبق ، وإن بوهى لم يُفق ، وغيره أحب إلىّ منه . قال القلمس . فقولى :

قالت : أحب الوثيق الخلق [٦] الكريم العرق ، الكثير السبق ، الشديد الذلق [٧] ، يمر من البرق .

قال القلمس :

فأى إناث الخيل أحب إليك يا جمعة ؟ قالت : أحب كل حيية الفؤاد ، سبوح جواد ، سلسة القياد ، شديدة الاعتماد ، فى الدفع والاشتداد ، ذات هباب وثماد [٨] .

قال القلمس كيف تسمعين ياهند ؟

قالت : هذه فرس صاحبها خليق ألا يفوته أمر ، ولا يهوله ذعر ، إذا شاء كرّ ، وإذا هاب فر ، وغيرها أحب إلىّ منها .

قال : فقولى : قالت : أحب الشديد أسرها [٩] ، البعيد صبرها ، القليل

---

(١) أى الذى ينتهى نسبه إلى جواد كريم وكانت العرب تعتز بأنساب خيلها وتحفظها كما تحفظ أنساب الرجل ، راجع أنساب الخيل .

(٢) الأسيل خده أى أنه طويل مسترسل .

(٣) شده : أى سريع عدوه . (٤) مده ، المد : بسط الجسم وارتفاعه .

(٥) هده : هد الفرس ضرب الأرض بحوافره .

(٦) الكريم العرق ، المحكم التكوين .

(٧) الذلق : ذلق كل شىء حدته ومضاؤه .

(٨) الهباب : النشاط فى الأرض ، والثماد الحفر فى الأرض .

(٩) الأسر : قوة الجسم وإحكام الخلق .

فترها ، الجميل قدرها ، السريع مرها ، المخوّف كرها .

قال القلمس : كلتا كما محسنة . فأى ذكور الخيل أبغض إليك يا جمعة ؟

قالت : أبغض كل بليد ، وارم الوريد[1] ذا ركال شديد[2] لا ينجيك هارباً ، ولا تظفر به طالباً ، ولا يسترك شاهداً ولا غائباً .

قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟

قالت : هذا فرس إمساكه بلاء ، وعلاجه عناء ، وركوبه شقاء ، وغيره أبغض إلىّ منه .

قال فقولى : قالت هند : أبغض السريع البُهر[3] ، البطىء الحصر[4] السُّكيت الطفر[5]. قال القلمس : كلتا كما محسنة .

فأى النساء أحب إليك يا جمعة : قالت أحب الغريرة[6] العذراء الرعبوبة العيطاء[7] المكورة ، اللفاء[8]، ذات الجمال والبهاء ، والستر والحياء، البضة[9] الرخصة كأنه فضة بيضاء .

قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟

قالت : وصفت جارية ، هى حاجة الفتى ، ونهية الرضا ، وغيرها أحب إلى منها ، قال فقولى : قالت أحب كل مشبعة الخلخال ، ذات شكل ودلال ، وظرف وبهاء وجمال .

---

(١) الوريد : عرق فى العنق . (٢) الركال : ضربك الفرس برجلك ليعدو .
(٣) البهر : انقطاع النفس . (٤) الحصر : الانحباس عن السير .
(٥) السكيت الطفر : الفرس العاشر من خيل السباق وهو آخر خيل الحلبة .
(٦) الغريرة : الطيبة القلب .
(٧) الرعبوبة : الفتاة البيضاء الحلوة العيطاء : طويلة العنق .
(٨) المكورة : الممتلئة الساقين فى بياض ولين ، واللفاء السمينة الطويلة .
(٩) البضة الرخصة ، المرأة اللينة الممتلئة .

قال القلمس : كلتا كما محسنة فأى النساء أبغض إليك يا جمعة ؟

قالت أبغض كل سلفع بذية [١] جاهلة غبية حريصة دنية ، غير كريمة ولاسرية [٢] ، ولا ستيرة ولا حبية ، قال : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : وصفت امرأة صاحبها خليق ألا تصلح له حال ، ولا ينعم له بال ولا يثمر له مال وغيرها أبغض إلىّ منها ، قال فقولى : قالت أبغض المتجرفة الشوهاء [٣] ، المنفوخة الكبداء [٤] المِنفص الوقصاء [٥] الحِمشة الزلاء [٦] التى إن ولدت لم تنجب ، وإن زجرت لم تعتب ، وإن تركت طفقت تصخب .

قال القلمس : كلتا كما محسنة ، فأى الرجال أحب إليك يا جمعة ؟

قالت : الحر النجيب ، السرى القريب ، السمح الحسيب ، الفطن الأريب ، المصقع الخطيب ، الشجاع المهيب .

قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟

قالت : وصفت رجلا شجاعاً ، سيداً جواداً ينهض إلى الخير صاعداً ، ويسرك غائباً وشاهداً ، وغيره أحب إلىّ منه ، قال فقولى : قالت أحب الرحب الذراع ، الطويل الباع ، السخىّ النفّاع ، المنيع الدفاع ، الدَهمَشى [٧] المطاع ، البطل الشجاع الذى يحل باليفاع [٨] ويهين فى الحمد المتاع .

---

(١) السَّلْفَع من النساء : الشديدة الصخب السيئة الخلق .

(٢) السرية : الشريفة . (٣) المتجرفة : الشديدة الهزال .

(٤) المنفوخة : المتسعة البطن ، والكبداء المرأة الضخمة الوسط البطيئة المشى .

(٥) المنفص : المرأة البذيئة القليلة الحياء ، القليلة الجسم الكثيرة الحركة ، والكثيرة الاختيال والمنفص والوقصاء : القصيرة العنق .

(٦) الحمشة : القليلة اللحم ، الدقيقة الساق والزلاء : الخفيفة الوركين .

(٧) الدهمشى : الكريم .

(٨) اليفاع : المرتفع من الأرض وإنما يحل بها حتى يرى السائرون ناره فيسرعون إليه لكرمه ونجدته .

قال : كلتاكما محسنة ، فأىُّ الرجال أبغض إليك يا جمعة ؟ قالت : أبغض السآلة اللئيم ، البغيض الزنيم[١] الأشوه الدميم ، الظاهر العصوم[٢] الضعيف الحيزوم[٣] قال : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : ذكرت رجلا خطره صغير ، وخطبه يسير ، وعيبه كثير وأنت ببغضه جدير ؛ وغيره أبغض إلىّ منه .

قال فقولى : قالت : أبغض الضعيف النخاع[٤] ، القصير الباع ، الأحمق المضياع الذى لا يكرم ولا يطاع ، فقال أحسنتما ، وأجملتما فبارك الله فيكما ، ووصلهما وحباهما[٥] .

وقد وفقت الأديبتان أيما توفيق فى وصف الخيل ذكورها وإناثها ، وأحبها وأبغضها وصفاً يقصر عنه الخيال معددتين مآثر ومكارم الخيل فى غدواته وروحاته وكيف أنه فى سبقه كأنه يمر من البرق فى خفة ونشاط وحدة ومضاء ، كما حذرا من الفرس المتبلد ، المنتفخ الوريد الذى لا يسير إلا بعد ركل شديد ، كما أنه لا يسر صاحباً ، ولا ينجى هارباً ، ولا يترك شاهداً ولا غائباً .

كما وفقت الأديبتان فى وصف النساء أحبهن وأبغضهن إلى القلوب فى لوحة فنية بادعة ترسم صورة ناطقة لما يجب أن تكون عليه المرأة خلقاً وخلقاً ،

---

(١) والزنيم : الشرير .
(٢) العصوم : بقايا الخضاب .
(٣) الحيزوم : الصدر أو وسطه وضعفه كناية عن الحق وضيق الأفق .
(٤) تريد بالضعيف النخاع : العاجز الذى لا يستطيع حولا ولا طولا .
(٥) راجع كتاب بلاغات النساء ص ٥٨ : ٦٢ ، بغداد ١٣٦١ هـ ، وانظر المرأة العربية ج ١ ص ١٧٨ : ١٨١ الطبعة الأولى ١٩٢١ م .

وقد قدمت لنا فى باب وصف النساء طاقة مونقة فينانة فى رياض الأدب ، وشجرة مورقة فى حدائق البيان ، وجدولا فياضاً فى بحار الحكمة الهادفة فى طراز جزل متين وأسلوب خلاب رصين يعجز عن وصفه المنشئون ويقصر عن بلوغه الكتاب والمترسلون .

* * *

وفى رواية أخرى ذكر صاحب كتاب الأمالى أن رجلا أتى هند بنت الخس[١] الإيادية يستشيرها فى امرأة يتزوجها ، فقالت :

انظر رمكاء جسيمة[٢] أو بيضاء وسيمة فى بيت جد، أو بيت حد ، أو بيت عز ، قال : ما تركت من النساء شيئاً ؟ قالت بلى : « شر النساء تركت : السويداء الممراض[٣] والحميراء المحياض[٤] الكثيرة المظاظ[٥] وقيل لها أى النساء أسوأ ؟ قالت : « التى تقعد بالفناء وتملأ الإناء وتمذق[٦] ما فى السقاء ، قيل : فأى النساء أفضل ؟ قالت : التى إذا مشت أغبرت[٧] وإذا نطقت صرصرت[٨] متوركة جارية فى بطنها جارية تتبعها جارية ، قيل : فأى الغلمان أفضل ؟ قالت : الأسوق الأعنق[٩] الذى إن شب كأنه أحمق ، قيل فأى الغلمان أفسل ؟[١٠] قالت : الأويقص القصير العضد[١١] العظيم الحاوية[١٢] ، الأغيبر الغشاء الذى يطيع أمه ، ويعصى عمه »[١٣] .

---

(١) انظر ترجمتها السابقة ص ٢٠ .

(٢) الرمكاء : السمراء والرُّمكة كحمرة لون الرماد .

(٣) الممراض التى تمرض كثيراً . (٤) الكثيرة الحيض .

(٥) المظاظ ، منازعتها ومشادتها زوجها . (٦) تمذق : تمزج .

(٧) أغبرت : أثارت الغبار فى مشيتها . (٨) صرصرت : أحدثت صوتها .

(٩) الأسوق : الطويل الساق ، والأعنق الطويل العنق . (١٠) الأفسل: الأرذل .

(١١) الأويقص : تصغير أوقص وهو من يدنو رأسه من صدره .

(١٢) الحاوية : المعدة . (١٣) أنظر الأمالى ج ٢ : ٢٦٠ .

وقيل لها أى الرجال أحب إليك ؟ قالت : السهل النجيب ، السمح الحسيب الندب الأريب[١] السيد المهيب ، قيل لها : فهل بقى من الرجال أفضل من هذا ؟ قالت بلى الأهيف الحفهاف[٢] الأنف العياف ، المفيد المتلاف ، الذى يخيف ولا يخاف ، قيل لها فأى الرجال أبغض إليك ؟ قالت الأوره النئوم[٣] الوكل السئوم ، الضعيف الحيزوم اللئيم الملوم ، قيل لها فهل بقى أحد شر من هذا ؟ قالت نعم : الأحمق النزاع الضائع المضاع الذى لا يهاب ولا يطاع . قالوا : فأى النساء أحب إليك ؟ قالت : البيضاء العطرة ، كأنها ليلة قمرة . قيل : فأى النساء أبغض إليك ؟ قالت : المنفص القصيرة التى إن استنطقتها سكتت وإن سكتّ عنها نطقت[٤] .

وقال لها أبوها يوماً : أى المال خير ؟ قالت : النخل الراسخات فى الوحل ، المطعمات فى المحل . قال وأى شىء ؟ قالت « الضأن قرية لا وباء بها ، تنتجها رخالا[٥] وتحلبها عِلالا[٦] وتجُزّ لها جُفالا[٧] ولا أرى مثلها مالا » . قال : فالإبل مالك تؤخرينها ؟ قالت : هى أذكار الرجال ، وإرقاء الدماء ، ومهور النساء ، قال : فأى الرجال خير ؟ قالت :

خـــير الرجال المرهقون كما   خير تلاع البلاد أوطؤها[٨]

---

(١) الندب : الخفيف فى الحاجة والظريف والنجيب .

(٢) المراد به رقة الخاصرة ونحوها .   (٣) الأوره : الأحمق .

(٤) ذيل الأمالى : ١٢٠ .

(٥) الرخال : جمع رخل كحمل وكتف وهو الأنثى من أولاد الضأن .

(٦) علالا يقال عالت الناقة وهى أن تحلب أول النهار ووسطه وآخره ، والاسم عِلال ككتاب .

(٧) الجفال : الكثير من الصوف .

(٨) المرهق : الرجل الذى يغشاه الناس .

قال أيهم ؟ قالت : الذى يُسأل ولا يسأل ، ويضيف ولا يضاف ، ويصلح ولا يصْلَح ، قال : فأى الرجال شر ؟ قالت : « الثطيط النطيط[1] الذى معه سُوَيط[2] الذى يقول أدركونى من عبد بنى فلان فإنى قاتله أو قاتلى ، قال فأى النساء خير ؟ قالت التى فى بطنها غلام ، ويجلس على وركها غلام ، ويمشى وراءها غلام ، قال فأى الجمال خير ؟ قالت السِّبَحْل الرِّبَحل[3] الراحلة الفحل قال : أرأيتك الجذع[4] ، قالت : لا يضرب ، ولا يدع ، قال : أرأيتك الثنى[5] قالت : يضرب وضرابه أنىّ[6] قال أرأيتك السَّدَس[7] قالت : ذاك العِرس[8]. (راجع ذيل الأمالى)

وقيل لها أى الخيل أحب إليك ؟ قالت : ذو الميعة الصنيع[9] ، السليط التّليع[10] الأيّد الضليع[11] الملهب السريع . فقيـــل لها أى الغيوث أحب إليك ؟ قالت ذو الهيدب المنبعق[12] ، الأضخم المؤتلق[13] ، الصخب المنبثق[14] ، وقيل لها ما مائة من المعز ؟ قالت : مويل يشف الفقر من ورائه ،

---

(١) الثطيط الذى لا لحية له ، والنطيط كثير الكلام يأتى بالخطأ والصواب من غير معرفة .

(٢) سويط : تصغير سوط . (٣) السِّبَحْلْ الربحل : البعير الضخم .

(٤) أرأيتك : أخبرنى ، الجذع : البعير يكون فى السنة الخامسة .

(٥) الثنىّ : البعير يكون فى السادسة وألقى ثنيته . (٦) والصواب أنىّ : أى بطىء

(٧) السدس : البعير إذا كان فى الثامنة . (٨) العرس : الأسد .

(٩) تقول ماع الفرس يميع إذا جرى ، وصنعة الفرس : حسن القيام عليه والصنيع ذلك الفرس . (١٠) السليط : الشديد ، والتليع : الطويل العنق .

(١١) الأيد : القوى ، والضليع وصف من ضلعُ كفضم ضلاعة ، وهى القوة وشدة الأضلاع . (١٢) الهيدب : السحاب المتدلى والمنبعق : الملىء بالمطر .

(١٣) المؤتلق من ائتلق البرق إذا لمع .

(١٤) والصخب : شدة الصوت . المنبثق : المتفجر

مال الضعيف ، وحرفة العاجز ، قيل فما مائة من الضأن ؟ قالت : « قرية لا حمى بها » قيل : فما مائة من الإبل ؟ قالت : بخ [1] جمال ومال ، ومنى الرجال ، قيل : فما مائة من الخيل ؟ قالت : طغى من كانت له ولا يوجد ، قيل فما مائة من الحمير ؟ قالت عازبة الليل [2] لا لبن فيحلب ولا صوف فيجز ، إن ربط (عيرها) أدلى [3] وإن ترك ولى ، وقيل لها : من أعظم الناس فى عينك ؟ قالت : من كانت لى إليه حاجة . (سرح العيون ١٨٤)

وقالت هند : « أخبث الذئاب ذئب الغضا [4] وأخبث الأفاعى أفعى الجدب ، وأسرع الظباء ظباء الحلب [5] وأشد الرجال الأعجف [6] ، وأجمل النساء الفخمة الأسيلة [7] ، وأقبح النساء الجهمة القفرة [8] وآكل الدواب

---

(١) بخ كقد أى عظم الأمر ، وبخ تقال وحدها وتكرر بخٍ بخْ الأول منون مكسور ، والثانى مسكن ، ويقال فى الافراد بخ ساكنة الخاء وبخ مكسورة وبخٌ منونة مضمومة ، ويقال بخ بخ مسكنين وبخ بخ منونين مكسورين وبخ بخ مكسورين مشددين منونين وهى تقال عند الرضا والإعجاب بالشىء .

(٢) يقال جمل عازب أى لا يروح على الحى من الغروب وهو الغيبة والذهاب وقولها (خزى المجلس أى بما تحدثه من النهيق المزعج) .

(٣) الإدلاء : أى أخرج قضيبه ليبول ، العير : الحمار .

(٤) الغضا : شجر له جمر يبقى طويلا .

(٥) الحلب : نبت ، قال حمزة : العرب تسمى ضروبا من البهائم بضروب من المراعى تنسبها إليها فيقولون : ظبى الحلب وتيس الرَّبلة (نبات شديد الخضرة) وشيطان الحماطة (والحماطة كسحابة . شجر شبيه بالتين وهو أحب شجر إلى الحيات) .

(٦) العجف بالتحريك ذهاب السمن . (٧) الطويلة المسترسلة .

(٨) الجهمة مؤنث الجهم : الوجه الغليظ المجتمع السمج والقفرة : القليلة القَفَر وهو الشعر .

الرَّغوب[١] وأطيب اللحم عوَّذه[٢]، وأغلظ المواطىء الحصى على الصفا، وشر المال مالا يذكى ولا يزكّى[٣] وخير المال سكة مأبورة[٤] أو مهرة مأمورة[٥]. (راجع مجمع الأمثال : ١٧٤)

وقد جاءت لغة «هند» مسجوعة محكمة الصنعة فى السجع وهى تشبه أسلوب الكاهنات إلى حد بعيد، ولعل هند تعمدت السجع فى هذا المقام إذ رأته ضرورياً يساعدها على تحقيق غرضها المنشود وهو إعجاب السامعين بها، لأن للسجع رنيناً موسيقياً، ووقعاً جميلا مؤثراً فى النفس، تجتذب موسيقاه قلوب السامعين، وتمتلك عواطفهم وتخدر وعيهم، وتحدثهم بما تزعم أنها عالمة به ومحيطة بمعرفته إحاطة السوار بالمعصم، فيسمع الناس قولها ويذعنون إليه مصدقين بما يقول غير متبصرين فى نقد ما يسمعون وتقصى معانيه.

كما نلاحظ أنها تميل إلى الغموض والغرابة، ولعلها تعمدت فى ذلك أيضاً ليذهب الناس فى كلامها مذاهب متشعبة، وطرائق مختلفة، وفى هذا ما يضفى على مكانتها الاجتماعية الاحترام والتقدير والإكبار والإجلال، وهذا ما يسر المرأة ويرضى غرورها :

خدعوها بقولهم حسناء ... والغوانى يغرهن الثناء

والنقد الذى يوجه إلى هند أنها ركزت على الماديات أكثر من المعنويات

(١) الرغوب : كل مرضعة. (٢) العوذ ما عاذ باللحم من العظم.
(٣) ذكى كرضى نما وزاد كزكا يزكو. وذكى تذكية : سمن
(٤) المأبورة : المستصلحة من أبرت النخل إذا لقحته وأصلحته.
(٥) مأمورة : أى كثيرة الولد.
والرواية هنا (فى معرض حديث هند وجمعة ابنتى الخس غير الرواية التى أوردنا فيما مضى عن كتاب بلاغات النساء، وأثبتناها إتماماً للفائدة).

واهتمت بالمظهر دون الجوهر لأن المرأة بطبيعتها مولعة بالزينة وبالمظهر الخلاب وتغرها الظواهر وإن ساء المخبر فالجواهر الزائفة الحسنة الشكل المنسجمة ؛ ففي وصفها للمرأة مثلا ركزت على ما تتمتع به المرأة من محاسن جسدية ، وصفات أنثوية كأن تكون بيضاء أو سمراء ومن بيت مشهود له بالمجد ، وأسوأ امرأة عندها هي السويداء الممراض ، والحميراء المحياض الخ .

وكنا نتوقع أن تهتم بالمعنويات أكثر من هذا كأن تكون المرأة المختارة محنكة واعية ، وعلى قدر كبير من الدراية والمعرفة كفاطمة بنت مر الخثعمية ، والشفاء بنت عبد الله ابن عبد شمس القرشية العدوية وغيرهما ، ولكن يبدو أن طبيعة البيئة وطبيعة العصر كانت تقتضي ذلك ، فلم تكن هناك مدارس يتردد عليها الناس ليتعلموا ولم تكن ثمة حاجة تستدعي أن يتعلم النساء وأن تتثقف الفتيات لأن الحكم الغالب على الناس شيوع الأمية .

ومثل هذا يقال في وصفها للمال والجمال والخيل والذئاب والظباء ، فكلها أوصاف مستوحاة من البيئة العربية ، وهي وإن كانت بارعة إلا أنها لم تكن تبلغ دقة الوصافين الحضريين فضلا عن الأدباء الذين عاشوا معهن في البيئة نفسها فإنهم حلقوا في هذا الفن « وجالوا في الوصف جولات فوصفوا الطبيعة الناطقة والطبيعة الصامتة ، والطبيعة الحية والمتحركة »[1] .

* * *

ومما يجرى مجرى هذا الوصف قول ماوية امرأة حاتم :

أصابتنا سنةٌ اقشعرّت[2] لها الأرض ، واغبرّ أفق السماء ، وراحت الإبل حُدْباً حدابيرَ[3] ، وضنت المراضع على أولادها فما تبضّ[4]

---

(١) المرأة في الشعر : ١٦٤ . (٢) اقشعرت الأرض : أقحلت .

(٣) الحدب : جمع أحدب ، وهو ما دخل صدره وخرج ظهره ، وإنما تظهر الإبل كذلك إذا اشتد بها الجوع لا محال المراعي . والحدابير : جمع حدبار — بكسر الحاء — وهي الناقة الضامرة أو التي ذهب سنامها . (٤) تبض : تسيل .

بقُطرة ، وحلقت ألسنة[1] المال ، وأيقنا بالهلاك . فوالله إنا لفى ليلة صِنبر[2] بعيدة ما بين الطرفين ، إذ تضاغى[3] صبيتنا جوعاً ، عبد الله وعدى وسفانة . فقام حاتم إلى الصبيين ، وقمت أنا إلى الصبية . وأقبل يعللنى بالحديث ؛ فعرفت ما يريد ، فتناومت ، فلما تهوَّرت[4] النجوم ، إذا شىءٌ قد رفع كِسر البيت[5] ثم عاد . فقال حاتم : من هذا ؟ قالت : جارتك فلانة ، أتيتك من عند صبية يتعاوَوْن عُواء الذئاب ، فما وجدتَ معوّلاً إلا عليك يا أبا عدىّ . فقال : أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم ! فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى جنائبها أربعة ، كأنها نعامة حولها رئالها[6] . فقام حاتم إلى فرسه فوجأ[7] لبّته بمدية فخرّ . ثم كشطه عن جلده ، ودفع المدية إلى المرأة ، فقال لها : شأنك ! فاجتمعنا على اللحم المشوى نأكل . ثم جعل يمشى فى الحىّ يأتيهم بيتاً بيتاً فيقول هبّوا أيها القوم ، عليكم بالنار ، فاجتمعوا . والتفع فى ناحية ينظر إلينا . فوالله ان ذاق منه مُزْعة[8] وانه لأحوج إليه منا . فأصبحنا وما على ظهر الأرض من الفرس إلا عظم وحافر . فأنشأ حاتم يقول :

مهلاً نوارِ أقلّى اللوم والعذَلا ... ولا تقولى لشىء فات ما فعلا

ولا تقولى لمال كنت مهلكه ... مهلا وإن كنت أعطى السهل والجبلا

يرى البخيل سبيل المال واحدة ... إن الجواد يرى فى ماله سبلا[9]

---

(١) التحليق : وجع يصيب الحلق وتلك كناية بديعة عن الفقر والمسغبة ، تقول : أن المال من إبل وخيل ومال انقطع صوته .

(٢) ليلة صنبر باردة شديدة الريح . (٣) تضاغوا : تصايحوا .

(٤) تهورت : انحدرت إلى المغرب .

(٥) الكسر : الشقة السفلى من الخباء .

(٦) الرئال — جمع رأل — أولاد النعام . (٧) وجأ : قطع .

(٨) ان نافية بمعنى ما والمزعة القطعة من اللحم .

(٩) العقد الفريد ج ١ ص ١٠٨ والميدانى .

وامرأة حاتم تصور لنا فى هذه الباقة النثرية كرم هذه العائلة الحاتمية فقد ضربت المثل الأعلى فى الجود والكرم (لأن الكرم وإن اشتهر به العربى إلا أنه فى رأيى كان كرماً محدوداً بدليل أنه لم يشتهر به فى الجزيرة العربية كلها إلا حاتم وعائلته) .

فلقد كانت غنية بنت عفيف أم حاتم الطائى من أسخى النساء وأقراهن للضيف وكانت لا تمسك شيئاً تملكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ومنعوها مالها ، ومكثت دهراً لا تنال شيئاً مما تملكه ، حتى إذا ظن إخوتها أنها قد وجدت ألم الحاجة وارعوت أعطوها صرمة من إبلها فجاءتها امرأة من هوازن تسألها ، فقالت لها دونك هذه الصرمة فخذيها فقد والله مسنى من ألم الجوع ما آليت معه ألا أمنع الدهر سائلا شيئاً ثم أنشدت :

لعمرى إنى عضنى الجوع عضة	فآليت ألا أمنع الدهر جائعاً
فقولا لهذا اللائمى اليوم اعفنى	فإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا
فماذا عسيتم أن تقولوا لأختكم	سوى عذلكم أوعذل من كان مانعا
وماذا ترون اليوم إلا طبيعة	فكيف بتركى يا ابن أم الطبائعا

وكانت سفانة بنت ابنها حاتم كجدتها وأبيها فى الجود ، وكان أبوها يعطيها الصرمة من الإبل فتهبها كلها ؛ فقال لها أبوها ، يا بنية : « إن الغويين إذا اجتمعا فى المال أتلفاه فإما أن أعطى وتمسكى ، وإما أن أمسك وتعطى ، فقالت : والله لا أمسك أبداً ، فقال : وأنا والله ما أمسك أبداً ، قالت : فلا نتجاور فقاسمها ماله وتباينا[٢] .

---

(١) ذيل الأمالى ٢٣ وانظر المرأة العربية والمرأة فى الشعر الجاهلى ٣٦٢ .

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة .

ونأخذ من الأبيات التى تمثل بها حاتم :

مهلا نوار أقلى اللوم والعذلا ... ... (الأبيات)

أن المرأة العربية كانت ضنينة بمال زوجها حريصة عليه وليس من الصواب أن يدعى الرجل أنها لامته على الكرم وأنه خالفها . ليتخذ من ذلك ذريعة إلى تعظيم نفسه ، لأن هذا التخيل منقصة له ، إذا كان الشعراء صادقين فى تصويرهم للوم النساء على الجود ، وربما كان هذا منهن حرصاً على مال الزوج وربما كان بخلا ، وهذا لا ينفى أن بعضهن كريمات وإن كن قليلا .

ولعل السر فى تفوق الرجال على النساء فى الكرم أن الرجل أكثر اختلاطاً بالمجتمع من المرأة ، وأكثر تعارفاً بالناس منها ، وتضطره الظروف فى بعض الأحيان إلى السفر والترحال — بحكم عمله — وقد تبهره بعض أياد يقوم بها نحوه بعض الناس لتكريمه ، وهنا لا بد أن يشكر هذه الأيادى بضرب أمثلة أكثر كرماً وأريحية ، أما المرأة فهى قليلة الاحتكاك إذ هى متفرغة لبيتها الذى تود أن تدعمه بكل ما أوتيت من ثروة وترى إنفاق شىء منها فى الكرم يهدد بيتها ويفلس ميزانيتها ، كما عرفت المرأة بحسن التدبير ورعاية المال من قديم الزمان ، والرجل قد يغفل عن كل هذه الأمور أحياناً فلا يهمه إلا إرضاء إخوانه والظهور أمامهم بمظهر حاتم الطائى .

* * *

ولما فارق رسول الله ﷺ مكة مهاجراً إلى المدينة ، وخرج معه صاحبه أبو بكر ودليله عبيدالله بن أريقط . فمروا على خيمة أم معبد — وكانت امرأة برزة جلدة تحتبى بفناء الكعبة ، ثم تسقى وتطعم — فسألوها لحماً وتمراً ليشتروه منها ، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك . وكان القوم مرملين مسنتين [1]

---

(١) مسنتين : أى أصابهم القحط .

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة فى كِسرِ الخيمة ، فقال : ما هذا يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم . قال : هل بها من لبن ؟ قالت : هى أجهدُ من ذلك . قال : أتأذنين لى أن أحلبها . قالت : بأبى وأمى أنت نعم، إن رأيت بها من حَلب فاحلبها . فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسح ضرعها وسمّى الله ودعا لها فى شاتها . فتفاجت[1] عليه ودرّت واجترّت ، ودعا بإناء يُربِضُ[2] الرّهط ، فحلب فيه ثجّاً حتى علته الثّمال[3] ثم سقاها حتى رَويت وسقى أصحابه حتى رَوُوا . ثم شرب آخرهم . وقال : ساقى القوم آخرهم ، فشربوا جميعاً عَلَلاً[4] بعد نهل . ثم أراضوا[5] . ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدء حتى ملأ الإناء . ثم غادره عندها وبايعها وارتحلوا عنها فقلّ ما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً حُيَّلاً عِجافاً[6] هِزالاً مخّهن قليل[7] ولا نُقاً[8] بهن . فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال : من أين هذا يا أم معبد ، والشاة عازبة حِيال ، ولا حلوبة فى البيت ؟ فقالت : لا والله ، إنه (مرّ بنا) رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت قال : صفيه لى يا أم معبد . فقالت :

رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، أبلج[9] الوجه ، حَسن الخلق ، لم تعبه

---

(١) تفاجت : سالت . (٢) يربض الرهط : يكفيهم أمدا

(٣) الثمال — بكسر الثاء — جمع ثمالة — بضمها — ما يعلو اللبن من الرغوة

(٤) إذا استقى الإنسان مرتين فالأولى النهل والثانية العلل .

(٥) أراضوا أى شربوا مرة أخرى .

(٦) حيلا : جمع حائل وهى التى انقطعت عن الحمل ، وعجاف : جمع عجفة — بكسر الجيم — وهى المهزولة .

(٧) قلة المخ كناية عن الضعف والهزال .

(٨) النقا : جمع نقاوة — بضم النون — وهى المختار من كل شىء .

(٩) وجه أبلج وضاء أغر .

ثجلة[1] ولم تزر به صعلة[2] ، وسيما قسيما ، فى عينيه دعج[3] ، وفى أشفاره وطف[4] ، وفى صوته صحل[5] ، وفى عنقه سطع[6] ، وفى لحيته كثاثة . أحور[7] ، أكحل ، أزج ، أقرن[8] . إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء ، فهو أجمل الناس وأبهاهم من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر[9] ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ، ربعة ، لا تشنأه من طول ، ولا تقتحمه العين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً ، وأحسنهم قدراً . له رفقاء يحفون به ، إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا إلى أمره ، محفود محشود[10] ، لا عابس ولا مفند ﷺ .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قريش الذى ذكر لنا من أمره بمكة ما ذكر ، ولو كنت وافقته لالتمست صحبته ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

والمقطوعة النثرية السابقة تعد وثيقة أدبية وتاريخية ، صورت لنا صفة

---

(١) الثجلة : ضخامة فى البطن .

(٢) الصعلة : دقة الجسم وشدة نحوله .

(٣) الدعج : شدة سواد العين فى شدة بياضها .

(٤) الوطف : غزارة أشفار العين وطولها .

(٥) الصحل : شبيه بالبحة فى الصوت وألا يكون حاداً .

(٦) سطع العنق طولها فى جمال .

(٧) أصل الحور أن تسود العين كلها ولا يكون ذلك إلا فى البقر والظباء ثم استعير لعين الإنسان إذا غلب سوادها على بياضها .

(٨) الأقرن : المقرون الحاجبين .

(٩) النزر : القليل الذى لا يعبأ به من القول .

(١٠) المحفود الذى يخدمه أصحابه ويعظمونه ويبادرون إلى طاعته والمحشود الذى يحف به من معه .

الرسول ﷺ الخلقية والخلقية كأننا نراه ونشاهده، كما تروى لنا حدثاً بارزاً مهماً من أحداث الهجرة النبوية المباركة، وتنقل إلينا عبر الأيام والقرون — معجزة خارقة من المعجزات العظيمة التى اختص الله بها نبيه محمداً ﷺ وأيده بها، كما تقدم لنا جانباً مضيئاً من أخلاق الرسول الكريم ومعاملته لأصحابه والناس، بدت لنا واضحة جلية. فيما ضرب به - فى المقطوعة - من أمثلة رائعة وإيثار جم وكرم فى العطاء، وكيف أنه ﷺ آثر أم معبد وقدمها على نفسه وصحابته، رغم جهدهم واحتياجهم للسقاء والغذاء. وما يروى عطشهم، ويبل أوامهم، ويسد رمقهم — وكيف أنه لم يفكر فى نفسه أولا — كما يفعل القادة الأنانيون، بل فكر فى المرأة المضيفة أولا. إذ أنها صاحبة البيت، وصاحبة الشاة، ثم فكر فى صحابته، وأخيراً سقى نفسه، وساق لنا أدباً رفيعاً نموذجاً فى الإيثار وهو قوله: «ساقى القوم آخرهم شرباً»

كما نلاحظ جانباً اجتماعياً هاماً فى آخر القطعة، فلم يرد الإناء فارغاً — كما يفعل بعض البخلاء حينما يأكلون ويشربون ثم يتركون أو يردون الإناء خاوى الوفاض — بل ضرب مثلا أعلى فى الكرم والسماحة، فدعا بالإناء ثم حلب فيه ثانياً عوداً على بدء ليغادر المنزل وقد امتلأت رحباته بالخير العميم، والفيض الكثير، ثم اكتملت جوانب الخير بمبايعته التاريخية لأم معبد وإسلامها، وهذا الجانب يبين مدى أهمية المرأة فى المجتمع ومشاركتها فى أمر حيوى سجله القرآن.

* * *

ووجه رسول الله ﷺ إلى طيء فريقاً من جنده يقدمهم على عليه السلام. ففزع عدى بن حاتم الطائى - وكان من أشد الناس عداء لرسول الله ﷺ — إلى الشام، فصبّح علىّ القوم، واستاق خيلهم ونعمهم ورجالهم ونساءهم إلى رسول الله. فلما عرض عليه الأسرى نهضت من بين القوم سفانة بنت حاتم فقالت:

يا محمد ، هلك الوالد ، وغاب الوافد . فإن رأيت أن تخلّى عنى ولا تشمت بى أحياء العرب ! فإن أبى سيد قومه ، يفك العانى ، ويقتل الجانى ، ويحفظ الجار ويحمى الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويحمل الكَلّ [1] ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد فى حاجة فرده خائباً . أنا بنت حاتم الطائى . فقال النبى ﷺ : ياجارية ، هذه صفات المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه . خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق . وقال فيها : ارحموا عزيزاً ذل ، وغنياً افتقر ، وعالماً ضاع بين جهال . وامتنّ عليها رسول الله بقومها فأطلقهم تكريماً لها ولأبيها . فاستأذنته فى الدعاء له . فأذن لها . وقال لأصحابه : اسمعوا وعوا . فقالت : أصاب الله ببرّك مواقعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم ، إلا وجعلك سبباً فى ردها عليه ، فلما أطلقها رجعت إلى أخيها عدىّ وهو بدومة الجندل . فقالت له : يا أخى ائت هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله ، فإنى قد رأيت هَدياً ورأياً سيغلب أهل الغلبة ، ورأيت خصالا تعجبنى : رأيته يحب الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود ولا أكرم منه . فإن يكن نبياً فللسابق فضله ، وإن يكن ملكا فلن تزال فى عز اليمن . فقدم عدى إلى رسول الله ﷺ ، وأسلمت سفّانة [2] .

وكانت جرأة سفانة وشجاعتها سبباً لنجاتها ونجاة قومها ، كما أن جرأتها كانت سبباً فى استدرار عطف الرسول الأمر الذى ساقها وأخاها إلى نور الإسلام الوضاء ، ولو أنها جبنت ولم تنطق ببنت شفة لتعرضت للهلاك هى وقومها ولما حظيت بشرف الإسلام .

كما تبين لنا هذه اللوحة الأدبية صفات العربى الكريم متجلية فى شخصية حاتم الطائى ، وكيف أنه يتصف بسمات كريمة يدعو إليها الإسلام كما أخبر

(١) الكل العائل واليتيم (٢) الأغانى ج ١٦ ص ٩٣ وإنسان العيون ج ٢ ص ٢٨٥

ذلك الرسول الكريم ﷺ فهو : « يفك الأسير ، ويقتل الجانى ، ويحفظ الجار ويحمى الذمار ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويحمل الضعيف ويعين على مصائب الدهر » .

كما تعبر المقطوعة عن شخصية سفانة الاجتماعية وما تتميز به من نظرات ثاقبة ، ولمحات نفاذة ، وقدرة أدبية على صوغ أسلوب الاستعطاف الذى ملك قلب الرسول ، واستولى على وجدانه .

ولا تقل هذه المقطوعة عن سابقتها فى الأهمية الأدبية التاريخية فهى تصور شجاعة المرأة العربية فى العصر الجاهلى وتقدم مثلا رائعا لجسارتها وجرأتها فهى تقتحم معضلات الأمور فى إقدام فريد ، وعزم وطيد ولا غرو فى ذلك ولا عجب فهى ابنة حاتم الطائى .

ويروى لنا الأغانى موقفاً تاريخياً يدل على شجاعة المرأة العربية ومدى قوتها وصبرها .

« كان عمرو بن هند قد أقسم ليحرقن من بنى حنظلة مائة فأحرق ثمانية وتسعين ثم أقبل وافد من البراجم فأكل به تسعة وتسعين ، ثم قدمت عليه امرأة من بنى حنظلة ، فقال لها من أنت ؟ فقالت : ما أنا بأعجمية ، ولا ولدتنى العجم ، قال فمن زوجك ؟ قالت هوذة بن جرول قال أين هو ؟ قالت : هذه كلمة أحمق ، لو كنت أعرف مكانه حال بينى وبينك ، فقال أما والله لولا مخافة أن تلدى مثلك لصرفتك عن النار ، فقالت : أما والله الذى أسأله أن يضع وسادك ، ويخفض مهادك ، ويسلبك ملكك ، ما قتلت إلا نساء أعاليها ثدى ، وأسافلها حلى ، قال : اقذفوها فى النار ، فالتفتت فقالت : ألا فتى يكون مكان عجوز ، فلما أبطئوا عليها قالت : « صارت الفتيان حمماً فأحرقت[1] » .

---

(١) الأغانى ١٩ / ١٢٩ وراجع مجمع الأمثال ١ — ٢٦٠ .

ولما قتلَ جساس بن مرة كليب بن ربيعة ، وقفت جليلة بنت مرة في المناحة وقفة تذيب الصخر — وكانت أخت القاتل وزوج القتيل — فقال نساء الحي لأخت كليب : أخرجي جليلة عن مأتمك ، فإن في قيامها شماتة وعاراً علينا عند العرب . فقالت لها : يا هذه ، اخرجي من مأتمنا ، فأنت أخت واترنا ، وشقيقة قاتلنا . فخرجت وهي تجر أعطافها . فلقيها أبوها مُرّة ، فقال لها : ما وراءك يا جليلة ؟ فقالت : ثُكل العدد ، وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل . وبين ذلك غرس الأحقاد وتفتت الأكباد . فيقال لها : أوَ يكف ذلك كرم الصفح ، وإغلاء الديات ؟ فقالت : أمنية مخدوع ورب الكعبة : أ بالبُدن[1] تدع لك تغلب دم ربها ؟

قالوا : ولما رحلت جليلة البكرية الشيبانية قالت أخت كليب : رحلة المعتدي ، وفراق الشامت ! ويل غداً لآل مرة ، من الكرّة بعد الكرّة ! فبلغ جليلة قولها فقالت : وكيف تشمت الحرة بهتك سترها ، وترقّب وِترِها . أسعد الله جدّ أختي ، أفلا قالت نفْرة الحياء ، وخوف الأعداء ؟ ثم أنشأت تقول :

يا ابنة الأقوام إن لمتِ فلا	تعجلي باللوم حتى تسألي
فإذا أنت تبينت الذي	يوجب اللوم فلومي واعذلي
إن تكن أخت امرئ ليمت على	شفق منها عليه فافعلي
جلّ عندي فعل جساس فيا	حسرتي عما انجلى أو ينجلي
لو بعين فُديت عيني سوى	أختها فانفقأت لم أحفل

---

(١) البدن : جمع بدنة — بفتح الباء والدال — الناقة أو البقرة تهدى إلى مكة ثم أطلقت على كل عظيم جسيم من الإبل والبقر .

تحمل العين أذى العين كما ... تحمل الأم أذى ما تعتلى(١)

يا قتيلا قوض الدهر به ... سقف بيتىّ جميعاً من عَل ِ(٢)

هدم البيت الذى استحدثته ... وانثنى فى هدم بيتى الأول

ورمانى قتله من كثب ... رِمية َالمصمى به المستأصل(٣)

يا نسائى دونكن اليوم قد ... خصنى الدهر برُزء ٍمُعضِل

خصنى قتل كليب بلظى ... من ورائى ولظى مستقبَل

ليس من يبكى ليوميه كمن ... إنما يبكى ليوم ٍ ينجلى

يشتفى المُدْرِك بالثأر وفى ... دَركى ثأرى َثكلُ المثكل

ليته كان دمى فاحتلبوا ... درراً منه دمى من أكحلى(٤)

فأنا قاتلة مقتولة ... ولعل الله أن يرتاح لى

وحديث جليلة يصور لنا نظام المجتمع الجاهلى وما كان يسوده من عداء وضغائن وثارات، وأنه كان مجتمعاً يثور لأتفه الأسباب ، و ويغضب لأدنى الأسباب ، ويغضب لأدنى الأشياء ، كما تصور لنا قوة شخصية المرأة العربية ومدى تأثيرها فى قومها ، فهى تستطيع أن تعلن الحرب بكلمة واحدة، وأن تنهيها بإيماءة موحية .

فإن إشارة واحدة قذفت بها امرأة فأصابت موطن الحس من الرجال ،

(١،٢) يقال اعتلت الأم أى نهضت بحملها تقول إن العين تحمل أذى أختها كما تحمل الأم راضية أذى حملها ، أما هى فما عساها تعمل وقد أصيب عيناها معاً . وروى فى هذا البيت : أذى ما تعتلى وما بين يديك أوجه وأمثل

٣) الكثب : القرب، وأصمى الرمية إذا أنفذها .

(٤) الأكحل : عرق فى الذراع إذا نزف لا يرقأ .

فهاجت لها الحرب أربعين عاماً لم يدر فيها ضرع ، ولم يكتهل بين أثنائها فتى ، وقد حدث : أن البسوس ابنة منقذ — خالة جساس بن مرة سيد بنى بكر — نزل بها ضيف من ذويها يدعى سعداً ، فأفسحت دارها له ، وأناخت بحظيرتها ناقته ، فما كاد يطمئن بالرجل مقامه حتى انطلقت ناقته ترعى ، وقادها حينها إلى حمى لكليب بن ربيعة صهر جساس وفتى العرب وسيد تغلب ، ولم يكن لأحد غير جساس أن يرعى إبله حمى كليب ، فلما بصر بها كليب غريبة بين إبله ، أنفذ سهمه فى ضرعها ، فانطلقت تعدو وهى تشخب دماً ولبناً حتى نزلت بفناء البسوس ، فلما استبانت ما بها صاحت وأعولت واندفعت تقول :

لعمرك لو أصبحت فى دار منقذ	لما ضيم سعد وهو جار لأبياتى
ولكننى أصبحت فى دار غربة	متى يعد فيها الذئب يعد على شاتى
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل	فإنك فى قوم عن الجار أموات
ودونك أذوادى فإنى عنهـــمُ	لراحـلة لا يفقدونـــ بنياتى

وقد سمع جساس تلك الكلمة الأخيرة فأصابت الوتر الحساس من قلبه ، وقال : « اسكتى أيتها المرأة فليقتلن غداً جمل هو أعظم عقراً من ناقة جارك » وما زال يتوقع غرة من كليب حتى أنبىء بانفراده فاعتقل رمحه وخرج للقائه ، فلما أبصره طعنه ودق صلبه وأبى عليه الماء أن يبلغه ، ومن أجل ذلك قامت حرب البسوس وفيها استمر القتل أربعين عاماً حتى كاد يلحقهما الدثور فى أثرها وما عصفت بها إلا حكمة واحدة كانت خليقاً بها أن تذهب لحينها لولا أن نسجتها امرأة وحاكتها على امرأة ، كما يتبين منها الظلم الصارخ الذى يوقعه المجتمع الجاهلى على امرأة مثل جليلة البكرية ، فما ذنبها ، وماذا جنته حتى ينبذها المجتمع الجاهلى ويناصبها العداء ؟ إن مثل هذه المرأة كانت جديرة بالإشفاق والرعاية بدلا من الزراية والاحتقار ، ولكنه المجتمع الجاهلى .

* * *

ولما صدع سعد بن أبي وقاص جيش الفرس بالقادسية ، أتته حرقة بنت النعمان بن المنذر فى حفدة من قومها وجواريها — وهن فى زيها ، عليهن المسوح والمقطعات السود مترهبات — تطلب صِلة . فلما وقفن بين يديه أنكرهن سعد . فقال : أيكن حرقة ؟ قالت : هأنذا . قال : أنت حرقة ؟ قالت : نعم ، فما تكرارك فى استفهامى ؟ ثم قالت : إن الدنيا دار زوال لا تدوم على أهلها انتقالا ، وتعقبهم بعد حال حالا ؛ كنا ملوك هذا المصر ، يجبى لنا خراجه ، ويطيعنا أهله مدى الإمرة ، وزمان الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى ، صاح بنا صائح الدهر فشق عصانا ، وشتت شملنا . وكذلك الدهر يا سعد ، إنه ليس يأتى قوماً بمسرة ، إلا ويعقبهم بحسرة . ثم أنشأت تقول :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتنصّفُ

فأفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها ... تقلّبُ تارات بنا وتصرف

فقال سعد : قاتل الله عدى بن زيد كأنه ينظر إليها حيث يقول :

إن للدهر صولة فاحذرنها ... لا تبيتن قد أمنت الدهورا

قد يبيت الفتى معافى فيرْدى ... ولقد كان آمناً مسروراً

وحدثوا أن عمرو بن معديكرب — وكان من قصاد النعمان وزواره — دخل عليها وهى بين يدى سعد . فلما نظر إليها قال : أنت حُرَقة ؟ قالت : نعم . قال : فما دهمك ، فذهب بمحمودات شيمك ؟ أين تتابع نعمك ، وسطوات نقمك ؟ فقالت : يا عمرو ، إن للدهر عثَرات وعبرات تعثر بالملوك وأبنائهم فتخفضهم بعد رفعة ، وتفردهم بعد مَنعة ، وتذلهم بعد عز . إن هذا الأمر كنا ننتظره ، فلما حل بنا لم ننكره قالوا : فلما انصرفت من لدن سعد لقيها نساء

القادسية ، فقلن لها : ما فعل بك الأمير ؟ قالت : أكرم وجهى ، وإنما يكرم الكريم الكريم [1] .

وحرقة فى درتها الأدبية الحكيمة بدت حكيمة لامعة من حكيمات العرب اللائى حلبن الدهر أشطره ، فألقت علينا أمثلة رائعة من الحكمة لا يقدر على حسن صوغها إلا البليغ ، يتجلى ذلك فى عبارات رائقة ، وأسلوب سهل كقولها : الزمان لايأتى بمسرة إلا ويعقبها بحسرة ، إن للدهر لعثرات ، تعثر بالملوك .

وقد جاءت هذه الحكم صدى لصفاء فطرتها ، وكثرة تجاربها ، وقدرتها على استخلاص العبرة ، كما تدلنا على وافر عقلها ، وتوقد ذكائها ، وثاقب فكرها .

ونلاحظ أن حرقة تبدو وكأنها فيلسوفة أخلاقية فى حكمها ، فقد مزجت الحكمة بالفلسفة ، وربطت بينها وبين الروح والأخلاق مما يعطى لحكمها قيمة فلسفية ، وقيمة روحية وخلقية ، كما تعطى محاورتها مع عمرو قيمة تاريخية ، وقيمة اجتماعية فضلا عن القيم الأدبية والبيانية التى انتثرت بين غضون كلماتها .

* * *

ولما قتل الحارث بن ظالم المرّى خالد بن جعفر العامرىّ ، لحق بحاجب بن زرارة التيمى يعتصم به من بنى عامر ، فاتبعه رجال منهم ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، عثروا بامرأة تميمية تجنى الكمأة ؛ فتعرفوا منها أمر الحارث ، ومكانه من حاجب ؛ ثم احتجزوها عندهم . فترقبت حتى أنست غِرّة من القوم فأفلتت . وانطلقت تعدو إلى حاجب . فأخذت تحدثه حديث القوم . فقال لها : أخبرينى أى قوم أخذوك ؟ قالت : أخذنى قوم يقبلون بوجوه الظباء ، ويدبرون بأعجاز النساء . قال : أولئك بنو عامر . قال : فحدثينى مَن فى القوم ؟ قالت : رأيتهم

---

(١) خزانة الأدب ج٣ ص ١٨١ — ١٨٢

يغدون على شيخ كبير لا ينظر بمآقيه حتى يرفعوا له من حاجبيه . قال : ذلك الأحوص بن جعفر . قالت : ورأيت شاباً شديد الخلق ، كأن شعر ساعديه حلق الدّرع يعذِمُ[1] القوم بلسانه عذم الفرس العضوض . قال : ذلك عتبة بن بشير بن خالد . قالت : ورأيت كهلا إذا أقبل ومعه فتيان يشرف القوم إليه ، فإذا نطق أنصتوا . قال : ذلك عمر بن خويلد ، والفتيان ابناه زُرْعة ويزيد . قالت : ورأيت شاباً طويلا حسناً إذا تكلم بكلمة أنصتوا لها . ثم يؤلون[2] إليه كما تؤل الشَّول[3] إلى فحلها . قال : ذلك عامر بن مالك . قالوا : وجاء القوم فكانوا كما قالت وقال[4] .

ومن حديث المرأة التيمية التي وصفت قومها يتبين لنا مدى حذق العرب فى الوصف ، ومهارتهم فى معرفة الرجل من وصفه ، فكانوا يستدلون بهيئة الإنسان وشكله ولونه وقوله على أخلاقه وفضائله ورذائله ، كما كانوا يعرفون رجال القبيلة ونساءها من وصفهم ، وقد نبغ فى ذلك من العرب من لا يحصى عددهم . ولهم فى ذلك نوادر شتى منها ما يقال من أن أولاد نزار ذهبوا إلى الأفعى الجرهمى ليحكم بينهم فى ميراث أبيهم ، وبينما هم فى الطريق إذ رأى مضر كلأً قد رعى ، فقال : إن البعير الذى رعى هذا أعور ، فقال ربيعة : هو أزور ، وقال إياد هو أبتر ، وقال أنمار هو شرود ، وبعد قليل لقيهم رجل ينشد بعيره فوصفوه كما تفرسوا ، فتعلق بهم وذهبوا إلى الأفعى الجرهمى ، فقال : كيف وصفتموه ولم تروه ؟ فقال مضر : رأيته يرعى جانباً دون آخر فعرفت أنه أعور ، وقال ربيعة رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدته

---

(١) العذم : عض الفرس وهى استعارة لحدة اللسان .

(٢) ألّ فى مشيه : أسرع .

(٣) الشول : جمع شائلة ، وهى ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر .

(٤) الأغانى ١٠ / ١٨

فعرفت أنه أزور ، وقال إياد رأيت بعره مجتمعاً فعرفت أنه أبتر ، وقال أنمار رأيته يرعى المكان الملتف ثم يجوزه إلى غيره فعرفت أنه شرود ، فقال الجرهمى لصاحب البعير أطلبه من غيرهم ، ثم قال لهم أتحتاجون إلىّ وأنتم كما أرى ؟ ! وهكذا فالقطعة أثر أدبى عظيم يدل على قوة الخيال والحافظة والذكاء عند العرب فقد كانوا يميزون بين أثر الرجل والمرأة والشيخ والشاب ، والأعمى والبصير والأحمق والكيس[1] .

* * *

وحدّث أبو بكر بن دريد قال[2] : كان قَيل من أقيال حِمير مُنع الولدَ دهراً ، ثم ولدت له بنت ، فبنى لها قصراً منيعاً بعيداً عن الناس . ووكل بها نساء من بنات الأقيال يخدُمنها ويؤدبنها ، حتى بلغت مبلغ النساء ، فنشأت أحسن منشأ وأتمه فى عقلها وكمالها . فلما مات أبوها ملّكها أهل مِخلافها [3] . فاصطنعت النسوة اللاتى ربّينها وأحسنت إليهن . وكانت تشاورهن ، ولا تقطع أمراً دونهن . فقلن لها يوماً : يا بنت الكرام ، لو تزوّجت اتمّ لك الملك ! فقالت : وما الزوج ؟ فأخذت كل واحدة تصف العذب الهنىّ من صفات زوجها . فقالت : أمهلننى أنظر فيما قلتنّ . فاحتجبت عنهن سبعاً ، ثم دعتهن ، فقالت : قد نظرت فيما قلتن فوجدتنى أملّكه رِقى ، وأُبِثّه باطلى وحق . فإن كان محمود الخلائق ، مأمون البوائق ، فقد أدركت بغْيتى ، وإن كان غير ذلك فقد طالت شقوتى . على أنه لا ينبغى إلا أن يكون كفؤاً كريماً ، يسود عشيرته ، ويَرُب[4] فصيلته ، لا أتقنع به عاراً فى حياتى ، ولا أرفع به شناراً

---

(١) الوسيط ص ٤١ (٢) القيل : الملك من ملوك حمير .

(٣) المخلاف : الكورة أو الإقليم وهو لليمن خاصة .

(٤) يرب فصيلته يحفظها ويرعاها ويربيها .

لقومى بعد وفاتى . فمليكنه فابغينه ، وتفرقن فى الأحياء ، فأيتكن أتتنى بما أحب فلها أجزل الحباء ، وعلىّ لها الوفاء . فخرجن فيها وجهتهن له — وكنّ بنات مقاول ذوات عقل ورأى — فجاءتها إحداهن — وهى عمرّطة بنت زُرعة ابن ذى خنفر — فقالت : قد أصبت البغية . فقالت : صفيه ، ولا تسميه ، فقالت : غيث فى المحْل(١) ، ثِمال فى الأزْل(٢) ، مفيد مبيد . يصلح النائر ، وينعش العاثر ، ويغمرُ الندىّ ، ويقتاد الأبىّ ، عِرْضه وافر ، وحسبُه باهر ، غضُّ الشباب ، طاهر الأثواب . قالت : ومن هو ؟ قالت : سبرةُ بن عوّال بن شداد بن الهمّال . ثم خلت بالثانية . فقالت : أصبت من بغيتك شيئاً ؟ قالت : نعم . قالت : صفيه ، ولا تسميه . قالت : مُصامِص(٣) النسب ، كريم الحسب ، كامل الأدب ، غزير العطايا ، مألوف السجايا ، مُقتبلُ الشباب ، خصيب الجناب . أمره ماض ، وعشيره راض . قالت : ومن هو ؟ قالت يَعلى بن هَزّال بن ذى جَدَن . ثم خلت بالثالثة فقالت : ما عندك ؟ قالت : وجدته كثير الفوائد ، عظيم المرافد(٤) يعطى قبل السؤال ، وينيل قبل أن يستنال . فى العشيرة معظّم ، وفى الندىّ مكرم ، جمّ الفواضل ، كثير النوافل(٥) . بذالُ أموال ، محقق آمال ، كريم أعمام وأخوال . قالت : ومن هو ؟ قالت : رَوَاحة بن حُمير بن مضحى بن ذى مُلاهِلة . فاختارت يعلى بن هَزّال

---

(١) المحل : الجدب والقحط .

(٢) الثمال : الغياث ، والأزل : الضيق والشدة .

(٣) المصامص الخالص من كل شىء وهو مصامص فى قومه إذا كان زاكى الحسب خالصاً فيهم .

(٤) المرافد : جمع مرفد — بفتح الميم وضمها — المعونة .

(٥) النوافل — جمع نافلة — ما زيد على العطاء .

فتزوجته ، فاحتجبت عن نسائها شهراً . ثم برزت لهن فأجزلت لهن الحباء ،
وأعظمت لهن العطاء [1] » .

* * *

وفى كلام النسوة الذى رواه أبو بكر بن دريد نرى صورة فنية من الصفات التى ترغبها المرأة العربية فى الزوج وهو أن يكون سيداً فى قومه ذا حسب ونسب ، جواداً كريماً مكتمل الفتوة ، حسن السيرة إلى غير ذلك من السجايا والطبائع التى تعتز بها القبيلة وتفتخر بها . فهى لوحة فنية تظهر فيها آمال الزوجة وأحلامها فى الزوج :

١ — فالزوج الشاب أثير مستحب لأنه أدنى إلى الزوجة سناً وأشبه بها خلقاً وميلا .

٢ — وأن يكون الزوج حسن السيرة حدبا على الزوجة رقيقاً ، وأن الزوجة لترجو أن يكون زوجها مرحاً لتجد الأنس فى قربه والراحة فى عشرته .

٣ — وأن يكون الزوج متحلياً بالفضائل من كرم وشجاعة وأنفة فهى تؤثره مسماحاً حتى تحقق آمالها وتعيش فى حياة ناعمة ، وتريده شجاعاً ليكفل لها الشهرة والسيادة والأمان والطمأنينة [2] .

وبهذه الباقة السابقة ينتهى حديث الوصف النسائى وإذا أردنا أن نتكلم فى الوصف ونستطرد فى الحديث عنه لضاق بنا هذا الكتاب ، فالوصف غرض واسع النواحى بعيد ما بين الأطراف ، وقلما يلم الناثر أو الشاعر بأطرافها جميعاً فضلا عن الإجادة فيها ، ولكل من الأدباء الوصافين فن

---

(١) آمالى القالى ج ١ ص ٨٠ — ٨٢ .
(٢) د . الحوفى : ١٧١ .

أو فنون من الوصف تستأثر بنفسه ، وتظهر فيها براعته ، وذلك بحسب البيئة التى تغلب فيها ، والظروف التى اكتنفته واتصلت بإحساسه ، وتغلغلت آثارها فى مجرى حياته ، فكان يمتثلها بصره وعقله ، وينبض بها قلبه ، ويفيض لتذكرها شعوره فلا ينتظر من الأديب أو الشاعر إلا أن يجيد فى الناحية التى هيأته لها نفسه ، فجعلتها مناط شاعريته ، ومهبط وحيه ، ومصدر إحساسه ومثار آماله وآلامه[1] .

---

(١) الوصف فى شعر المتنبى — المتولى قاسم ١٩٣٦

الفصل الثالث

أدب الكواهن

وكان الكاهنات فى أدبهن يملن إلى استخدام السجع ، والتكلف فى صوغ عباراته ، وكثيراً ما يمتزج أدبهن بالمثل والحكمة مع عدم تعمقهن فى استخراج المعانى البعيدة ، واستقصاء الأفكار الدقيقة التى تحتاج إلى كدّ خاطر أودرس علم ، ونظراً لأن أدب الكهانة من الأدب الخاصّ ، فكان التأنّق مقصوداً فى انتقاء الألفاظ المناسبة الوزن ، المتشابهة فى النغم والجَرْسِ ، وإن كن فى بعض الأحيان يعمدن فى تأدية المعنى إلى ألفاظ تطابقه ، حسبما يتفق ، وكما يكون . مع قِصرٍ فى الجمل ، أو توسّط فيها ، كما نلاحظ أنهن يستخدمن الكناية القريبة المنال (كطابع النثر الأدبى فى هذه الحقبة) .

ولأن أدب الكهانة من الأدب الخاص كما أسلفنا ، فكانت لغة الكهانة تنبثق من شعور بالتفوق والأفضلية والسمو الروحى على من يستصبحون بهديها ، فهى فى نظر أصحابها ونظر من يدينون بها لغةٌ خاصةٌ مختارة ، لها سند من قوة علوية مُلهِمة ، تتخذ منها أداة لفض أختام الغيوب ، وهتك أستارها ، ومن ثَمَّ كان لا بد أن تستعين بما تستعين به (كدية الزّار) من التأثير فى النفوس الضعيفة المستسلمة ، لتشُلّ تفكيرها ، وتخدّر تعقلها ، وتلهيها عن تبيين التدليس والتلبيس ؛ وتسوقها إلى الإذعان والقبول ؛ مستغلةً تشوّفها إلى معرفة أسرار الغد ، ومطالعة صحف المجهول . لذلك تراها تعتمد على المواربة والرمز والإبهام والاستغلاق مرة ، وعلى القَسَم والطنين

والجلجلة والتهويل والإغراب أخرى ، حتى تتحقق الغاية المقصودة منها[١] .

والذى يبدو أن أكثر ما جاءنا عنهم مخترع مصنوع ، ولكن مجيئه على هذه الصورة بعينها ؛ دليل على أنهم هكذا كانوا ينطقون ، وهكذا كانوا يخطبون ، وإلا لما اتفقت روايات الرواة ، ومن قد نحلوهم بعض الأقوال والخطب ، على أنهم كانوا يسجعون هذا السجع ، وإذا صح أن هذا السجع مصنوع ، فهو لا ينفى أن الأصل مصنوع أيضاً ، لأن من أراد محاكاة شىء أفرغ جهده وحذقه فى مجيئه على شاكلته .

وحسبك دليلا على ما كان للكهان من سجع عرفوا به ما جاء فى الأثر : أن النبى ﷺ قضى بديةٍ فى جنين ، فقال أحدهم : يا رسول الله كيف نَدِى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهلّ ، فمثل ذلك يطل .

فأنكر عليه الرسول ﷺ هذا الأسلوب ، قائلا : « أسَجْعاً كسجع الجاهلية » وفى رواية أخرى « أسجعاً كسجع الكهان » فجعل السجع مختصاً بالكهان بمقتضى الإضافة ، كما يقول ابن خلدون .

ومعنى هذا أنه كان للكهان سجع ، وأن صورة هذا السجع كانت معروفة فى صدر الإسلام[٢] .

وإنما بغض هذا السجع — فوق التكلّف والتعسّف — أن الكهان الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يَدّعون الكهانه ، وأن مع كل واحد منهم رِئْىٌ من الجن ، كانو يتكهنون ويحكمون بالأسجاع .

---

(١) صور البديع للدكتور على الجندى ، والخطابة فى صدر الإســـلام د . محمد طاهر ص ٧٨ .

(٢) الخطابة فى صدر الإسلام ج ١ ص ٧٩ .

ألا ترى أن ضمرة بن ضمرة ، وهرم بن قرطبة ، والأقرع بن حابس ، ونفيل بن عبد العزى ، وربيعة بن حذار كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع فوق النهى .

والاستكراه فى ذلك لقرب عهد العرب بالجاهلية ولبقيتها فيهم ، وفى صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم .

وقد كان الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة ، فلم ينهَوْا منهم أحداً .

* * *

ومن الأديبات الكواهن : الشعثاء ، وطريفة الخير التى تكهنت بسيل العَرِم ، وخراب سد مأرب ، والزبراء ، وكاهنة ذى الخَلَصة التى تكهنت بها فى بطن رقية بنت جُشَم ، وسلمى الهمدانية ، والعجفاء بنت علقمة والعُفَيراء .

وإليك أمثلة من أدبهن :

خطب الكواهن

والكاهنات الخطيبات كما أسلفنا يتناولن فى حديثهن موضوعات عديدة ، وكلها مستوحاة من البيئة الجاهلية ومستقاة من جوها .

ففى حديث الشعثاء الكاهنه يتبين فيها شخصية المرأة العربية واضحة كل الوضوح ، وأن لها ذاتيتها المحترمة ورأيها المقدر ، فكان يؤخذ رأيها فى الزواج ، ولا ترغم على اختيار شخص معين مهما كانت الظروف .

كما تدل على أن هناك فى الجاهليات نساء محنكات مجربات يرجع إليهن فى معضلات الأمور (كعثمة بنت مطرود البجلية فقد كانت ذات عقل ورأى مستمع) وكيف أن مخالفة هؤلاء النسوة المجربات الناصحات يورث الحيرة ويعقب الندامة ، وقد تجلى لنا ذلك الأمر جلياً فى مخالفة خود أختها عثمة وضربها بنصائحها عرض الحائط مما عرضها إلى فشلها فى حياتها الزوجية ، وأخذها أسيرة ذليلة ، وقد اعترفت خود بذنبها وبكت بكاء مراً وأنشجت نشيجاً محزناً ، فلما سئلت عن ذلك قالت : إنما أبكى على عصيانى أختى وتركى قولها : « ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل » فقد اهتمت خود بالمظهر البراق ، والمنظر الزائف ، ولم تنظر إلى شرف الجوهر ، وطهر المعدن فكان مصيرها كما قال الشاعر :

ترى الرجل النحيف فتزدريه   وفى أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه   فيخلف ظنك الرجل الطرير

وقد رجعت فى آخر الأمر إلى منطق العقل فاختارت أبا نواس مع سوء

خلقته ، لأنها نظرت حينئذ إلى الخبر وضربت صفحاً عن المظهر وقبلت الرجل الذى يحميها ويدافع عن قبيلتها ، وهذه هى الروح التى كانت تسود تطلعات المرأة العربية ورغباتها ، فتختار المرأة العربية الرجل القوى الذى يذود عن العشيرة ويحمى القبيلة .

ونراها فى نشدانها هذا صادقة فى وصفها تجيب نداء العقل وتتريث فى الاستجابة لنداء العاطفة .

* * *

وكانت عُثمة بنتُ مطرود البجلية ذات عقل ورأى مُستمع فى قومها ، وكانت لها أخت يقال لها : خود ، وكانت ذات جمال وميسم[1] وعقل ، فخطب سبعة إخوة غِلمة من بطن الأزد خوداً إلى أبيها . فأتوه وعليهم الحلل اليمانية ، وتحتهم النجائب الفُرُه[2] ، فقالوا : نحن بنو مالك بن غُفيلة : ذى النِّحْيين ، فقال لهم : انزلوا على الماء ، فنزلوا ليلتهم ، ثم أصبحوا غادين فى الحلل والهيئة ، ومعهم ربيبةٌ[3] لهم يقال لها الشَّعثاء : الكاهنةُ ، فرّوا بوَصيدها[4] يتعرضون لها ، وكلهم وَسيم جميل ، وخرج أبوها ، فجلسوا إليه ، فرحب بهم ، فقالوا : بلغنا أن لك بنتاً ، ونحن كما ترى شبابٌ ، وكلنا يَمنع الجانب ، ويمنح الراغب ، فقال أبوها : كلكم خيار ، فأقيموا نرى رأينا ، ثم دخل على ابنته ، فقال : ما ترّين ؛ فقد أتاكِ هؤلاء القوم ؟ فقالت :

---

(١) الميسم والوسامة : أثر الحسن .

(٢) النجائب : جمع نجيب ، وهو البعير والفرس إذا كانا كريمين عتيقين ، والفره : (كقفل وركع وكتب) جمع فارة ، وهو من الدواب الجيد السير النشيط الخفيف .

(٣) الربيبة : الحاضنة .

(٤) الوصيد : الفناء (بالكسر) والعتبة .

« أنكحني على قدري ، ولا تشطط في مهري ، فإن تخطئني أحلامهم ، لا تخطئني أجسامهم ، لعلي أصيب ولداً ، وأكثر عدداً ، فخرج أبوها ، فقال : أخبروني عن أفضلكم .

قالت ربيبتهم الشعثاء الكاهنة : « اسمع أخبرك عنهم : هم إخوة ، وكلهم أسوة[1] .

أما الكبير فمالك ، جريء فاتك ، يتعب السنابك[2] ، ويستصغر المهالك . وأما الذي يليه فالغمر ، بحر غمر[3] ، يقصر دونه الفخر ، نهد[4] صقر .

وأما الذي يليه فعلقمة ، صليب المعجمة[5] ، منيع المشتمة[6] ، قليل الجمجمة[7] .

وأما الذي يليه فعاصم ، سيد ناعم[8] ، جلد صارم ، أبي حازم ، جيشه غانم ، وجاره سالم .

وأما الذي يليه فثواب ، سريع الجواب ، عتيد الصواب[9] ، كريم

(١) الأسوة : القدوة .

(٢) السنابك : جمع سنبك كقنفذ ، وهو طرف الحافر ، أي أنه يجهد الخيل في حومة الوغى .

(٣) الغمر : معظم البحر ، والكريم : الواسع الخلق .

(٤) النهد : الأسد ، والكريم .

(٥) من عجم العود إذا عضه ليعرف صلابته من خوره .

(٦) المشتمة : مصدر شتم ، والمعنى : أنه في حرز من أن يشتم ويسب عرضه ، لحسن فعله وكرم خلقه .

(٧) الجمجمة : إخفاء الشيء في الصدر .

(٨) نعم كسمع ونصر وضرب فهو ناعم : أي ذو تنعم وترفه .

(٩) العتيد : الحاضر المهيأ .

النِّصاب[1] ، كليث الغاب .

وأما الذى يليه ، فمُدْرِك ، بذولٌ لِما يملك ، عَزوبٌ[2] عما يترك ، يُفنى ويُهلك .

وأما الذى يليه ، فجَنْدل ، لِقِرْنِه مجدِّل[3] ، مقل[4] لما يحمِّل ، يعطى ويبذُل ، وعن عدوه لا يَنكُل[5] » .

فشاورت أختها فيهم ، فقالت أختها عثمة : « ترى الفتيان كالنخل ، وما يدريك بالدخل ، اسمعى منى كلمة : إن شرّ الغريبة يعلن ، وخيرها يُدفن ، انكحى فى قومك ، ولا تغرُرْك الأجسام ، فلم تقبل منها ، وبعثت إلى أبيها : أنكحنى مدركا ، فأنكحها أبوها على مائة ناقة ورُعاتها ، وحملها مدرك ، فلم تلبث عنده إلا قليلا ، حتى صبَّحهم فوارسُ من بنى مالك بن كِنانة ، فاقتتلوا ساعة ، ثم إن زوجها وإخوته وبنى عامر انكشفوا ، فسبَوْها فيمن سَبَوا ، فبينما هى تسير ، بكت ، فقالوا : ما يبكيك ، أعلى فراق زوجك ؟ قالت : قبَّحهُ الله ، قالوا : لقد كان جميلا ! قالت : قبَّحَ الله جمالاً لا نفعَ معهُ ، إنما أبكى على عصيانى أختى ، وقولها :

ترى الفتيان كالنخل وما يدريك بالدخل

وأخبرتهم كيف خطبوها ، فقال لها رجل منهم يكنى أبا نواس ، شاب أسود أفوَه[6] مضطرب الخلق : أترضينَ بى ، على أن أمنعك من ذئاب العرب؟

---

(١) النصاب : الأصل . (٢) بعيد .
(٣) جدله : صرعه على الجدالة (كسحابة) وهى الأرض .
(٤) حامل . (٥) نكل عنه كضرب ونصر وعلم : نكص وجبن .
(٦) الأفوه : وصف من الفوه بالتحريك ، وهو سعة الفم .

فقالت لأصحابه : أكذلك هو ؟ قالوا : نعم ، إنه مع ما ترَين ليمنع الحليلة(١) ، وتتَّقيه القبيلة ، قالت : هذا أجمل جمال ، وأكمل كمال ، قد رضيت به ، فزوجوها منه .

(مجمع الأمثال للميدانى ١ : ٩١)

* * *

قال عبد الملك بن عبد الله بن بدرون فى شرح قصيدة الوزير عبد المجيد ابن عَبدون ، التى قالها فى رثاء دولة بنى الأفطس بالأندلس :

كان أول من خرج من اليمن فى أول تمزيقهم ، عمرو بن عامر : مُزَيقياء(٢)، وكان سبب خروجه ، أنه كانت له زوجة كاهنة ، يقال لها « طريفة الخير » ، وكانت رأت فى منامها أن سحابة غشيتْ أرضهم ، فأرعدت وأبرقت ، ثم صَعقت ، فأحرقت كل ما وقعت عليه ، ففزعت طريفة لذلك فزعاً شديداً ، وأتت الملك عَمراً ، وهى تقول :

« ما رأيتُ اليومَ ، أزال عنى النومَ ، رأيت غيما رَعدَ وَبرَق(٣) طويلا ، ثم صَعق ، فما وقع على شىء إلا احترق » .

فلما رأى ما داخلها من الفزع سكَّنها ، ثم إن عمراً دخل حديقة له ، ومعه جاريتان من جواريه ، فبلغ ذلك طريفة ، فخرجت إليه وخرج معها

---

(١) الزوجة .

(٢) لقب بذلك ، لأنه كان يلبس كل يوم حلتين ، ويمزقها بالعشى ، يكره العود فيهما ، ويأنف أن يلبسهما غيره .

(٣) رعدت السماء وبرقت (كنصر) ، وأرعدت السماء وأبرقت ، وأنكر الأصمعى ...

وَصيف[1] لها اسمه سنان ، فلما بَرزت من بيتها عرض لها ثلاثُ مناجيد منتصبات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن — وهى دواب تشبه اليرابيع[2] — فقعدت إلى الأرض واضعة يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : إذا ذهبت هذه المناجيد فأخبرنى ، فلما ذهبت أعلمها ، فانطلقت مسرعة ، فلما عارضها خليج الحديقة التى فيها عمرو ، وثبت من الماء سلحفاة . فوقعت فى الطريق على ظهرها ، وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع ، وتستعين بذنبها ، فتحثو التراب على بطنها من جنباته ، وتقذف بالبول قذفاً ، فلما رأتها طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء ، مضت إلى أن دخلت على عمرو وذلك حين انتصف النهار ، فى ساعة شديدة الحر ، فإذا الشجر يتكفأ من غير ريح ، فلما رآها عمرو استحيا منها ، وأمر الجاريتين بالتنحى ، ثم قال لها : يا طريفة ، فتكهنت وقالت : « والنورِ والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجرَ لهالك ، وليعودَنّ الماء كما كان فى الزمان السالك » .

قال عمرو : ومن خبّرك بهذا ؟ قالت : « أخبرتنى المناجد ، بسنين شدائد ، يقطع فيها الولد الوالد » .

قال : ما تقولين ؟ قالت : « أقول قول النَّدمان لهفاً ، لقد رأيت سُلحفاً[3] ، تجرُف التراب جرفاً ، وتقذف بالبول قذفاً ، فدخلت الحديقة ، فإذا الشجر من غير ريح يتكفأ » .

---

(١) وصيف : أى خادم .

(٢) اليربوع : دويبة نحو الفأرة لكن ذنبه وأذناه أطول منها ، ورجلاه أطول من يديه عكس الزرافة .

(٣) يقال : سلحفاة وسلحفاء وسلحفا ، ويقال أيضاً سلحفا ساكنة اللام مفتوحة الحاء .

قال عمرو : وما ترَين ؟ قالت : « داهية دَهْياء ، من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة » .

قال : وما هو ؟ ويلكِ ! قالت : « أجلْ ، إن فيه الويل ، وما لك فيه من قيْل[1] ، وإن الويل فيما يجيء به السيل » فألقى عمرو نفسه عن فراشه ، وقال : ماهذا يا طريفة ؟ قالت : « هو خَطب جليل ، وحزن طويل ، وخلَف قليل » قال : وما علامة ما تذكرين ؟ قالت « إذهب إلى السد ، فإذا رأيت جُرَذاً يُكثِرُ بيديه في السدّ الحفرَ ، ويقلّب برجليه من أجلّ الصخر ، فاعلم أنْ غمَرَ الغمرُ [2] وأنْ قد وقع الأمر » . قال : وما هذا الذى تذكرين ؟ قالت : « وعدٌ من الله نزل ، وباطل بَطل ، ونكال بنا نكل ، فبغيرك يا عمرو فليكن الثكل » [3] .

فانطلق عمرو فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلا ، (كذا) فرجع إلى طريقة فأخبرها الخبر وهو يقول :

أبصرت أمراً عادنِى منه ألمّ	وهاج لى من هوله بَرحُ السقم[4]
من جُرذ كفحل خِنزير الأجم	أو كبش صِرم من أفاريق الغنم[5]

---

(١) قال قيلا : نام فى القائلة ، وهى نصف النهار ، والمراد هنا الإقامة والمكث .
(٢) الغمر : الماء الكثير .
(٣) الشكل : كسبب وقفل الموت والهلاك . (٤) البرح : الشدة .
(٥) الأجم : جمع أجمة ، وهى الشجر الكثير الملتف ، والصرم : الجماعة والفرقة تجمع على فرق ، وجمع الجمع أفراق ، وجمع جمع الجمع أفاريق ، والجلاميد : جمع جلمود كعصفور الصخر .

يسحبُ صخراً من جلاميد العرِم　　لهُ مخاليبُ وأنيابٌ قضم[١]

ما فاتهُ سحلاً من الصخر قصم[٢]

فقالت طريفة : وإن من علامات ما ذكرت لك أن تجلس فتأمر بزجاجة فتوضع بين يديك ، فإن الريح تملؤها من تراب البطحاء[٣] ، من سِهلة[٤] الوادى ورمله ، وقد علمت أن الجِنان مُظلّلة لا يدخلها شمس ولا ريح .

فأمر عمر بزجاجة فوضعها بين يديه ولم يمكث إلا قليلا حتى امتلأت من تراب البطحاء ، فأخبر عمرو طريفة بذلك ، وقال لها : متى يكون هلاك السدّ ؟ قالت له : فيما بينك وبين سبع سنين . قال : ففى أيها يكون ؟ قالت : لا يعلم بذلك إلا الله ، ولو علمه أحد لعلمته ، ولا تأتى علىّ ليلة فيما بينى وبين سبع السنين إلا ظننت الهلاك فى غدها ، أو فى مسائها ، ثم رأى عمرو فى نومه سيل العرِم ، وقيل له : آية ذلك أن ترى الحصباء فى سَعف النخل ، فنظر إليها ، فوجد الحصباء فيها قد ظهرت ، فعلم أن ذلك واقع ، وأن بلادهم ستخرّب ، فكتم ذلك وأخفاه ، وأجمع على بيع كل شىء له بأرض مأرِب[٥] وأن يخرج منها

---

(١) العرم : السد يعترض به الوادى (ومن معانيه أيضاً المطر الشديد ، والجرذ ، وواد جاء السيل من قبله) .

(٢) سحله كمنع : قشره ونحته ، وقصمه : كسره .

(٣) البطحاء والأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

(٤) السهلة بالكسر : تراب كالرمل .

(٥) مأرب : مدينة باليمن ، وكانت فى الزمان الأول قاعدة التبابعة ، وهى مدينة بلقيس ، بينها وبين صنعاء نحو أربع مراحل ، وتسمى سبأ ، بإسم بانيها سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان .

هو وولده [١] ، فخرج ، ثم أرسل الله تعالى على السد [٢] السيل فهدمه .

(شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ص ٩٨)

* * *

---

(١) وقد خشى أن يستنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدعوه إليه أن يتأبى عليه ، وأن يفعل ذلك به فى الملأ من الناس ، وإذا لطمه يرفع هو يده ويلطمه ، ثم صنع طعاماً ، وبعث إلى أهل مأرب أن عمراً صنع يوم مجد وذكر ، فاحضروا طعامه . فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذى أمره بما أمر ؛ فجعل يأمره بأمور فيتأبى عليه ، وينهاه فلا ينتهى ، فرفع عمرو يده فلطمه على وجهه ، فلطمه ابنه ؛ وكان اسمه مالكا ، فصاح عمرو : واذلاه ، يوم فخر عمرو يبيجه صبى ويضرب وجهه ، وحلف ليقتلنه ، فلم يزالوا بعمرو يرغبون إليه حتى تركه ، فقال : والله لا أقيم بموضع صنع بى فيه هذا ، ولأبيعن أموالى حتى لا يرث منها بعدى شيئا ، فقال الناس بعضهم لبعض : اغتنموا غضب عمرو ، واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى ، فابتاع الناس منه كل أمواله التى بأرض مأرب ، وفشا بعض حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم ، فقام ناس من الأزد فباعوا أموالهم ، فلما أكثروا البيع استنكر الناس ذلك ، فأمسكوا أيديهم عن الشراء ، ولما اجتمعت إلى عمرو أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم ، ولما خرج عمرو من اليمن خرج لخروجه منها بشر كثير ، فنزلوا أرض « عك » فحاربتهم « عك » . فارتحلوا عنها ، ثم اصطلحوا وبقوا بها حتى مات عمرو بن عامر ، وتفرقوا على البلاد ، فمنهم من صار إلى الشام ، وهم أولاد « جفنة بن عمرو بن عامر » ومنهم من صار إلى يثرب ، وهم أبناء قيلة « الأوس والخزرج » ، وأبوهما حارثة ابن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وصارت « أزد الشراة » إلى أرض الشراة ؛ وأزد عمان إلى عمان ، وصار مالك ابن فهم إلى العراق ، ثم خرجت بعد عمرو بيسير من أرض اليمن طيء ، فنزلت جبلى طيء : أجأ وسلمى ، ونزلت ربيعة بن حارثة ابن عمرو بن عامر تهامة ، وسموا خزاعة ، لانخزاعهم من إخوانهم ، وتمزقوا فى البلاد كل ممزق .

(٢) كان السد فيما يذكر قد بناه لقمان الأكبر بن عاد ، وكان وصفه بالحجارة =

وقال أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى :

وسارت القبائل من أهل مأرب حين خافوا سيل العرم ، وعليهم مُزَيقياء ، ومعهم طريفة الكاهنة ، فقالت لهم :

« لا تؤمّوا مكة حتى أقول ، وما علمنى ما أقول إلا الحكيم المحكم ، ربُّ جميع الأمم ، من عرب وعجم » .

قالوا لها : ما شأنك ياطريفة ؟ قالت : خذوا البعير الشَّدقم(١) ، فخضّبوه بالدم ، تكن لكم أرضُ جُرهم(٢) ، جيرانِ بيته المحرم » .

(الأغانى ١٣ : ١٠٥)

* * *

وروى الميدانى فى مجمع الأمثال قال :

ألفت طريفة الكاهنة إلى عمرو بن عامر الذى يقال له : « مزيقيا بن ماء السماء » ، وكانت قد رأت فى كهانتها(٣) أن سدّ مأرب سيخرب ، وأنه

= السد بالرصاص والحديد ويقال : إن الذى بناه كان من ملوك حِمْيَر ، وذلك أن الماء كان يأتى أرض سبأ من الشحر وأودية اليمن ، فردموا ردماً بين جبلين ، وحبسوا الماء ، وجعلوا فى ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض .

(١) الواسع الشدق .

(٢) وكانوا يسكنون مكة ، فأرسل إليهم عمرو : أن افسحوا لنا فى بلادكم حتى نقيم قدر ما نستريح ، ونرسل رواداً إلى الشام وإلى الشرق ، فحيثما بلغنا أنه أمثل لحقنا به ، فأبت ذلك جرهم إباء شديدا ، وقالوا : لا ، والله ما نحب أن ينزلوا فيضيقوا علينا مرابعنا ومواردنا ، وكانت الحرب بين الفريقين ، وانهزمت جرهم فلم يفلت منهم إلا الشريد .

(٣) كهن كهانة بالفتح ، فهو كاهن ، وحرفته الكِهانة بالكسر .

سيأتى سيل العرم ، فيخرّب الجنتين (١) ، فباع عمرو بن عامر أمواله ، وسار هو وقومه حتى انتهوا إلى مكة ، فأقاموا بمكة وما حولها ، فأصابتهم الحُمّى ، وكانوا ببلد لا يدرون فيه ما الحمى ، فدَعوا طريفة فشكوا إليها الذى أصابهم ، فقالت لهم : قد أصابنى الذى تشكون ، وهو مفرّق بيننا . قالوا : فما تأمرين ؟ قالت :

« من كان منكم ذا همّ بعيد ، وجمل شديد ، ومَزاد (٢) جديد ، فليلحق بقصر عُمان المشيد (٣) ، فكانت أزْدُ عمان .

ثم قالت : من كان منكم ذا جلد وقَسْر (٤) ، وصبرٍ على أزَمات الدهر ، فعليه بالأرَاك (٥) من بطن مُرّ (٦) ، فكانت خزاعة .

ثم قالت : من كان منكم يريد الراسيات فى الوحل ، المُطعِمات فى المحْل (٧) ، فليلحق بيثرب ذات النخل ، فكانت الأوسُ والخزرج .

ثم قالت : من كان منكم يريد الخمر الخمير ، والملك والتأمير ، ويلبس الدّيباج والحرير ، فليلحق ببُصرى وغوير ، (وهما من أرض الشام) ، فكان الذين سكنوها من آل جَفنة من غسان .

---

(١) قال تعالى : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آيَةٌ جنّتان عن يمين وشمال ، ... ... » .

(٢) المزاد والمزايد : جمع مزادة ، وهى الراوية .

(٣) المشيد : المرفوع ، قال مسلم بن الوليد فى رثاء يزيد بن مزيد :

أما هدت لمصرعه نزار ... بلى ، وتقوض المجد المشيد

(٤) قسره على الأمر : قهره .

(٥) الأراك : القطعة من الأرض ، وموضع بعرفات ، وجبل .

(٦) بطن مر : مر بن أد بن طابخة .

(٧) المحل : الجدب والقحط .

ثم قالت : من كان منكم يريد الثياب الرّقاق ، والخيل العتاق ، وكنوزَ الأرزاق ، والدّم المهراق ، فليلحق بأرض العراق ، فكان الذين سكنوها آل جذيمة الأبرش ، ومن كان بالحيرة وآل محرّق[1] » .

(مجمع الأمثال ١ : ١٨٩)

ونلاحظ من حديث طريفة الخير الآتى : أن العرب كانوا يعرفون علم الأحياء فهم يعرفون الحيوان وسلوكياته والرياح ونواحيها واتجاهاتها ، وما يستدل من هذه العلوم من نتائج تخبر عن حدوث أمر ما وهذا يتضح فى قولها : « لقد رأيت سلحفاً تجرف التراب جرفاً » فدخلت الحديقة « فإذا الشجر من غير ريح يتكفا » ، وقولها : « فإذا رأيت جرذاً يكثر بيديه فى السد الحفر فاعلم أن غمر الغمر » .

وقولها فى صفة الرياح « وإن من علامات ما ذكرت لك أن تجلس فتأمر بزجاجة فتوضع بين يديك ، فإن الريح يملؤها من تراب البطحاء الخ » .

ومن هنا نرى أن الأمر ليس مرتبطاً بالكهانة ، ولكنه نتيجة مستنبطة من خلال دراسات عملية للبيئة وما تحتويه من جبال وأشجار وغيرها يستدل بها على التوقعات المنتظرة ، وشبيه بهذه الأوصاف المذكورة ما يحدث فى عصرنا الحديث من تحركات بعض الأشياء ، والهزات الخفيفة التى تحدث غالباً قبل الزلازل .

كما نلاحظ أن الحاكم فى هذه الفترة كان يحترم رأى الكاهنات ويقدسهن وفى هذا اعتراف بمكانة الكواهن ومنزلتهن العلمية فى هذا الزمان .

---

(١) هو عمرو بن هند لأنه حرق مائة من بنى تميم .

حديث زبراء الكاهنة مع بنى رئام من قضاعة

كان ثلاثة أبطن من قضاعة مجتورين[1] بين الشحر وحضرموت : بنو ناعب ، وبنو داهن ، وبنو رئام ، وكانت بنو رئام أقلهم عدداً ، وأشجعهم لقاءً ، وكانت لبنى رئام عجوز تسمى خُويلة ، وكانت لها أمةٌ من مولدات العرب ، تسمى زَبراءَ ؛ وكان يدخلُ على خوَيلة أربعون رجلا ، كلهم لها محرَمٌ ، بنو إخوة ، وبنو أخوات ، وكانت خويلة عَقيما ، وكان بنو ناعب ، وبنو داهن متظاهرين على بنى رئام ، فاجتمع بنو رئام ذات يوم فى عرس لهم ، وهم سبعون رجلا ، كلهم شجاع بئيسٌ[2] ، فطعموا وأقبلوا على شرابهم ، وكانت زبراء كاهنةً ، فقالت لخويلة : انطلقى بنا إلى قومك أنذِرهم ، فأقبلت خويلة تتوكأ على زبراء ، فلما أبصرها القوم ، قاموا إجلالا لها . فقالت : « يا ثمرَ الأكباد ، وأندادَ[3] الأولاد ، وشَجا[4] الحسَّاد ، هذه زبراءُ ، تخبركم عن أنباء ، قبل انحسار الظلماء ، بالمؤيدِ[5] الشنعاء ، فاسمعوا ما تقول » قالوا : وما تقولين يا زبراء ؟ قالت :

« واللوحِ[6] الخافق ، والليل ، الغاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزنِ الوادِق[7] ، إن شجر الوادى ليأدو ختلا[8] ،

---

(١) أنداد : جمع نِد بالكسر ، وهو المثل والنظير .
(٢) الشجا : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه .
(٣) المؤيد : الداهية والأمر العظيم .
(٤) اللوح بالضم والفتح (والضم أعلى) : الهواء بين السماء والأرض .
(٥) غسق الليل كجلس : اشتدت ظلمته .
(٦) الطارق : فى الأصل ، كل من أتى ليلا ، ثم استعمل فى النجوم لطلوعها ليلا .
(٧) المزن : السحاب أو أبيضه أو ذو الماء ، والوادق من ودق المطر كوعد : قطر .
(٨) أدوت له آدو أدوا إذا ختلته وخدعته (ودأيت له ، ودألت له أيضا) والختل : الخدع .

ويحرُق أنياباً عُصلا (١) ، وإن صخر الطوْدِ لينذد ثـكلا (٢) ، لا تجدون عنه مَعلاً (٣) » .

فوافقت قوماً أشارَى(٤) سكارى ، فقالوا : « رِيحٌ خجوجٌ(٥) ، بعيدةُ ما بين الفروج ، أتت زبراءُ بالأبلق النتوج (٦) » .

فقالت زبراء : « مهلاً يا بنى الأعِزّة ، والله إنى لأشمّ ذفر (٧) الرجال تحت الحديد » ، فقال لها فتى منهم يقال له هُذيل بن منقذ : « يا خذاقِ (٨) ، والله ما تشمّين إلا ذفرَ إبطيك » ، فانصرفت عنهم ، وارتاب قوم من ذوى أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون رجلا ، وبقى ثلاثون ، فرقدوا فى مشربَهم ، وطرَقتهم بنو داهن وبنو ناعب ، فقتلوهم أجمعين .

---

(١) حرق أنيابه : إذا حك بعضها ببعض ، والعرب تقول عند الغضب يغضبه الرجل على صاحبه : « هو يحرق على الأرم » والأرم كسر : الأضراس ؛ والعصل : المعوجة جمع أعصل .

(٢) الطود : الجبل ، والثكل : الفقد . (٣) المعل : المنجى .

(٤) الأشر محركة : المرح . (٥) الخجوج : السريعة المر .

(٦) الأبلق . وصف من البلق محركة ، وهو ارتفاع البياض فى قوائم الفرس إلى الفخذين ، والأبلق لا يكون نتوجا ، والعرب تضرب هذا مثلا للشىء الذى لا ينال ، تقول « طلب الأبلق العقوق ، فلما فاته أراد بيض الأنوق » ، والعقوق كصبور : الحامل ، والأنوق كصبور أيضاً : الذكر من الرخم ولا بيض له ، هذا قول بعض اللغويين . فالمعنى أنه طلب مالا يمكن ، فلما لم يجد طلب أيضاً ما لا يكون ولا يوجد ، وعامتهم يقولون : الأنوق الرخمة وهى تبيض فى مكان لا يوصل فيه إلى بيضها إلا بعد عناء . فالمعنى أنه طلب مالا يقدر عليه ، فلما لم ينله طلب ما يجوز أن يناله .

(٧) الذفر : حدة الريح ، يكون فى النتن والطيب .

(٨) خذاق : كناية عما يخرج من الإنسان يقال : خذق ، ومزق ، وزرق .

وأقبلت خويلة مع الصباح ، فوقفت على مصارعهم ، ثم عمدت إلى خناصرهم ، فقطعتها ، وانتظمت منها قلادة ، وألقتها فى عنقها ، وخرجت حتى لحقت بمُرْضاوى بن سَعوة المهرىّ ، وهو ابن أختها ، فأناخت بفنائه ، فاستعدته على بنى داهن وبنى ناعب ، فخرج فى مَنسِرٍ[1] من قومه ، فطرقهم فأوجع فيهم . (الأمالى ١ : ١٢٦)

وفى حديث الزبراء ، نلاحظ أنه مع الاعتراف بمكانة الكواهن ، واحترام رأيهن ، إلا أن هناك بعضاً من العرب ، كانوا يعتبرون ذلك من قبيل الدجل والشعوذة ، وهذا ما نراه من موقف هذيل بن منقذ « والله ما تشمين إلا ذفر إبطيك » مفنداً قول الزبراء : « إنى لأشم ذفر الرجل تحت الحديد » كما نلاحظ فى حديث الزبراء الكاهنة ، مدى تأثير المرأة العربية ، وأهميتها الاجتماعية فى قومها ، وأنها بكلمة واحدة تثير الحرب الضروس ، وهذا ما تشاهده فى موقف « خويلة » وأنها تعمد إلى خناصر القتلى وتنتظم منها قلادة واحدة تلقيها فى عنقها ، ثم تذهب إلى ابن سعوة المهرى فتقيم فى داره وتستعديه على « بنى داهن » و « بنى ناعب » ، فأعلن الحرب عليهما ، وأعد جيشاً من قومه وقاتلهم وأعمل فيهم القتل والتنكيل .

(١) المنسر من الخيل : ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، أو من الأربعين إلى الخمسين ، أو إلى الستين ، أو المائة إلى المائتين ، وقطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير .

كاهنة ذى الخلصة تتكهن بما فى بطن رقية بنت جشم

زعموا أن رُقية بنت جشم بن معاوية ، ولدت نميراً وهلالا وسواءة ، ثم اعتاطت[١] فأتت كاهنة بذى الخلصة[٢] ، فأرتها بطنها ، وقالت : إنى قد ولدت ، ثم اعتطتُ ، فنظرت إليها ومسّت بطنها ، وقالت :

« رُبَّ قبائلَ فِرَقٍ ، ومجالسَ خِلق ، وظُعنٌ[٣] حُزُق[٤] ، فى بطنك زرق[٥] » .

فلما مخضت[٦] بربيعة بن عامر[٧] ، قالت : إنى أعرف ضرطى بهلال ؛ « أى هو غلام ؛ كما أن هلالاً كان غلاماً » .

(مجمع الأمثال ١ : ٣٢١)

---

(١) اعتاطت المرأة : لم تحمل سنين من غير عقر .

(٢) ذو الخلصة محركة وبضمتين : بيت كان يدعى الكعبة اليمانية لخثعم ، كان فيه صنم اسمه الخلصة .

(٣) الظعن والظعائن : جمع ظعينة ، وهى الهودج سواء كان فيه امرأة أم لا ، والمرأة ما دامت فى الهودج ، ويقال : الظعينة فى الأصل وصف للمرأة فى هودجها ، ثم سميت بهذا الإسم ، وإن كانت فى بيتها ، لأنها تصير مظعونة (أى يظعن بها زوجها ، فهى فعيلة بمعنى مفعولة) .

(٤) الحزق والحزقة (بكسر الحاء) والحازقة ، والحزيق ، والحزيقة ، والحزاقة (بالفتح) : الجماعة ، والجمع : حزائق وحزيق وحزق (بضمتين) .

(٥) أى وضع ، وأصل الزرق : رمى الطائر بذرقه .

(٦) مخض كسمع ومنع وعنى : أخذها الطلق

(٧) هو : ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر ، ومن نسله بنو كلاب بن ربيعة ابن عامر ، وبنو جعفر بن كلاب بن ربيعة .

وفى حديث كاهنة ذى الخلصة ، أرى أن كلامها هذا لا يعد من قبيل الكهانة ، إذ أنه لا يعدو أن يكون من باب البشارة التى يسوقها النساء عادة فى مثل هذه المواقف ، والغرض منها إسعاد النساء ، بكلام محبب إلى قلوبهن ، وهو أسلوب من أساليب التفاؤل ، وتوقع الخير ، وهذا يحدث فى كل العصور لا فى العصر الجاهلى وحده .

كما أننا نلاحظ فى حديثها اعتزاز العرب بالولد فهو يحمل اسم القبيلة ، ويدافع عن ذمارها ، ومن ذريته يأتى المحامون والمدافعون عن بيضة العشيرة والقبيلة .

* * *

رأى سلمى الهمدانية فى حريم المرادى

كما نلاحظ أهمية مشورة المرأة فى العصر الجاهلى وأن الملوك كانوا ينزلون عند رأيها ومشورتها ويستنيرون براجح عقلها كما بدا واضحاً فى استرشاد عمرو ابن براقة برأى سلمى الهمدانية وبلغ من تأثير رأيها فيه أنه أغار على حريم المرادى وقاتله واستاق كل شىء له ، وكان كل شىء يسير بناء على توجيهات سلمى وإرشاداتها .

وكان أغار رجل من « مراد » يقال له « حَريم » على إبل عمرو بن برّاقة الهمدانِىّ وخيل له ، فذهب بها ، فأتى عمرو بن سلمى الهمدانية ، وكانت بنت سيّدهم ، وعن رأيها كانوا يصدرون ، فأخبرها أن حريماً المرادىّ أغار على إبله وخيله ، فقالت : « والخفو والوميض[1] ، والشفق كالإحريض[2] ، والقلة والحضيض[3]، إن حريماً لمنيعُ الخِير[4]، سيدٌ مزيز[5] ذو معقل حريز

(١) الخفو : اللمعان الضعيف ، والوميض : أشد من الخفو .

(٢) الإحريض : العصفر . (٣) القلة : أعلى الرأس ، والجبل ، وكل شىء ، والحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

(٤) الناحية . (٥) مزيز : فاضل ، من قولهم هذا أمز من هذا أى أفضل منه .

غير أني أرى الحَمَة (١) سَتظفرَ منهُ بعــثرَة ، بطيئة الجبْرَة ، فاغِرْ ولا تُنْـكع (٢) » .

فأغار عمرو ، فاستاق كلّ شيء له ، فأتى حريم بعد ذلك يطلب إلى عمرو أن يرد عليه بعض ما أخذ منه ، فامتنع ورجع حريم .

(الأمالى ٢ : ١٢٣)

تنافر العجفاء بنت علقمة وصواحباتها إلى الكاهنة السعدية

كان العرب يفتخرون بالأنساب ، ويشيدون بمآثر الآباء والأجداد متمثلين بقولهم :

إن الفتى من يقول كان أبى   ليس الفتى من يقول ها أنذا (٣)

ونرى هنا أن المرأة العربية سلكت مسلكا آخر مغايراً لما كان عليه الحال قبل ذلك ، فتقدم لنا العجفاء — فى حديثها الآتى — الرجال فى صورة عملية تسجيلية ، نرى من خلالها الخصال الطيبة والمكارم المحمودة للرجال ، كأننا نراها ونلمسها ، تحفز على الخير ، وتحض على الفضائل فلم تعد الصورة مجرد فخر ومنافرة بل كرماً يبعث على الكرم ، ومروءة ، تدفع إلى المروءة ، وصدقاً ينهى عن الكذب ، وفضائل خيرة تنهى عن الرزائل المشينة :

* وبضدها تتميز الأشياء *

---

(١) الحمة : القدر (محركة) ، وقيل : هى واحد الحمام (بالكسر) .

(٢) نكعه عن الأمر (كمنع) منعه ودفعه .

(٣) أى أنهم عكسوا قول الشاعر :

ليس الفتى من يقول كان أبى   إن الفتى من يقول ها أنذا

وكان قد روى أن العجفاء بنت علقمة السعدى ، وثلاث نسوة من قومها ، خرجن فاتعدن بروضة يتحدثن فيها ، فوافين بها ليلا فى قمر زاهر ، وليلة طلقة ساكنة ، وروضة مُعشبة خِصبة ، فلما جلسن قلن : ما رأينا كالليلةِ ليلة ، ولا كهذه الروضةِ روضة أطيب ريحاً ولا أنضر .

ثم أفضن فى الحديث ، فقلن : أى النساء أفضل ؟ قالت إحداهن : الخرود[1] الودود الولود ، قالت الأخرى : خيرهن ذات الغناء[2] ، وطيب الثناء ، وشدة الحياء . قالت الثالثة : خيرهن السموع الجموع ، النفوع غير المنوع ، قالت الرابعة : خيرهن الجامعة لأهلها ، الوادعة الرافعة ، لا الواضعة . قلن : فأى الرجال أفضل ؟ قالت إحداهن : خيرهم الحظى[3] الرّضى ، غير الحظِل[4] البطىّ . قالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ، ذو الحسب العميم ، والمجد القديم قالت الثالثة : خيرهم السخىّ ، الوفىّ الرّضى ، الذى لا يغير[5] الحرّة ، ولا يتخذ الضرّة . قالت الرابعة : وأبيكن ، إن فى أبى لنعتكن ، كرمَ الأخلاق ، والصدقَ عند التلاق ، والفلج[6] عند السباق ، ويحمده أهل الرفاق . قالت العجفاء عند ذلك : كل فتاة بأبيها معجبة .

---

(١) الخرود ، والخريد ، والخريدة : الحيية الطويلة السكوت ، الخافضة الصوت ، المتسترة .

(٢) الكفاية والمنفعة .

(٣) الحظى : ذو الحظوة والمكانة عند زوجه ، والحظية كذلك .

(٤) رجل حظل ككتف وشداد وصبور : مقتر ، يحاسب أهله بما ينفق عليهم ، وفى مجمع الأمثال « غير الحظال ، ولا التبال » والتبال بالتشديد من التبل (بفتح فسكون) وهو الحقد .

(٥) أغار امرأته : تزوج عليها .

(٦) الفوز والظفر .

وفى بعض الروايات أن إحداهن قالت : إن أبى يكرم الجار ، ويُعظِم الخطار[١] ، وينحر العِشار[٢] ، بعد الحُوار[٣] ، ويحمل الأمور الكبار ، ويأنف من الصغار ، فقالت الثانية : إن أبى عظيم الخطر ، منيع الوَزر[٤] ، عزيز النَّفر ، يحمدُ منه الوِرد والصَّدَر ، فقالت الثالثة : إن أبى صدوق اللسان ، حديدُ الجنان ، رَذوم[٥] الجفان ، كثير الأعوان ، يُروِى السِّنان عند الطِّعان ، قالت الرابعة : إن أبى كريم النزال ، مُنيف المقال ، كثير النوال ، قليل السؤال ، كريم الفعال .

ثم تنافرن إلى كاهنة معهن فى الحى ، فقلن لها : اسمعى ما قلناه ، واحكمى بيننا واعدلى ، ثم أعدن عليها قولهن ، فقالت لهن : «كل واحدة منكن ماردة[٦] ، بأبيها واجدة[٧] ، على الإحسان جاهدة ، لصواحباتها حاسدة ، ولكن اسمعن قولى : خير النساء المبقية على بعلها ، الصابرة على الضرّاء مخافة أن ترجع إلى أهلها مطلقة ؛ فهى تؤثرُ حظ زوجها على حظ نفسها ؛ فتلك الكريمة الكاملة ؛ وخير الرجال الجواد البطل ، القليل الفشل ، إذا سأله الرجل ، ألفاه قليل العلل ، كثير النفل[٨] ، ثم قالت : كل واحدة منكن بأبيها معجبة .

(مجمع الأمثال ٢ : ٥٤ وجمهرة الأمثال ٢ : ١٢٣)

---

(١) الخطار : جمع خطر كسبب وهو السبق يتراهن عليه .

(٢) العشار : جمع عشراء كنفساء وهى من النوق التى مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية .

(٣) الحوار بالضم وقد يكسر : ولد الناقة ساعة تضعه .

(٤) الوزر : الملجأ . (٥) الرذوم : القصعة المتلئة تتصبب جوانبها .

(٦) ماردة : أى بلغت الغاية .

(٧) وجد به بالكسر : أحبه .

(٨) النفل : الهبة .

عفيراء الكاهنة تعبر عن رؤيا مرثد بن عبد كلال

روى أن مرثد بن عبد كلال قفلَ من غزوة غزاها بغنائم عظيمة ، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه ، فرفع الحجاب عن الوافدين ، وأوسعهم عطاء ، واشتد سروره بهم ، فبينما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا فى المنام أخافته وأذعرته وهالته فى حال منامه ، فلما انتبه أنسيها حتى لم يذكر منها شيئاً ، وثبت ارتياعه فى نفسه بها ، فانقلب سروره حزناً ، واحتجب عن الوفود حتى أساءوا به الظن ، ثم إنه حشر الكهان ، فجعل يخلو بكاهن كاهنٍ . ثم يقول : أخبرنى عما أريد أن أسألك عنه ، فيجيبه الكاهن بأن لا علم عندى ، حتى لم يدع كاهناً علمهُ إلا كان إليه منذ ذلك ، فتضاعف قلقه ، وطال أرقه ، وكانت أمة قد تكهنت ، فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك ، إن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه ، لأن أتباع الكواهن من الجان ، ألطف وأظرف من أتباع الكهان ، فأمر بحشر الكواهن إليه ، وسألهن كما سأل الكهان ، فلم يجد عند واحدة منهن علماً مما أراد علمه ، ولما يئس من طلبته سلا عنها ، ثم إنه بعد ذلك ذهب يتصيد ، وأوغل فى طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرفعت له أبيات من ذُرَا (١) جبل ، وكان قد لفحه الهجير ، فعدل إلى الأبيات ، وقصد بيتاً منها كان منفرداً عنها ، فبرزت إليه منه عجوز ، فقالت له : انزل بالرحب والسعة ، والأمن والدعة ، والجفنة المدعدعة(٢) ، والعلبة المترعة(٣) ، فنزل عن جواده ، ودخل البيت ، فلما احتجب عن الشمس ، وخفقت عليه

---

(١) أى فى كنفه وستره .

(٢) الجفنة : القصعة ، والمدعدعة : التى ملئت بقوة ثم حركت حتى تراص ما فيها ، ثم ملئت بعد ذلك .

(٣) العلبة : قدح ضخم من جلود الإبل أو من خشب يحلب فيها ، والمترعة : المملوءة .

الأرواح[١] ، نام فلم يستيقظ حتى تصرّم الهجين ، فجلس يمسح عينيه ، فإذا هو بين يديه فتاة لم ير مثله قواماً ولا جمالا ، فقالت : « أبيت اللعن أيها الملك الهمام ! هل لك فى الطعام ؟ » فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لما رأى أنها عرفته ، وتصامّ عن كلتها ، فقالت له : « لا حذر ، فداك البشر ، فجدّك الأكبر ، وحظّنا بك الأوفر » ثم قرّبت إليه ثريداً وقديداً وحيساً[٢] ، وقامت تذُبّ عنهُ ، حتى انتهى أكله ، ثم سقته لبناً صريفاً وضريباً[٣] ، فشرب ماشاء ، وجعل يتأملها مُقبلة ومدبرَة ، فملأت عينيه حسناً ، وقلبه هوى ، فقال لها : ما اسمكِ يا جارية ؟ قالت : اسمى عفيراء ، فقال لها : يا عفيراء ، من الذى دعوتِه بالملك الهمام ؟ قالت : « مرْثد العظيم الشأن ، حاشرُ الكواهن والكهان ، لمعضِلة بعد عنها الجان » ، فقال يا عفيراء : أتعلمين تلك المعضلة ؟ قالت : « أجل أيها الملك ، إنها رؤيا منام ، ليست بأضغاث[٤] أحلام » . قال الملك : أصبتِ يا عفيراء ، فما تلك الرؤيا ؟ قالت : « رأيت أعاصيرَ[٥] زوابع بعضها لبعض تابع ، فيها لهب لامع ، ولها دخان ساطع ، يَقفوها نهر مُتدافع ، وسمعت فيما أنت سامع ، دعاءُ ذى جَرس[٥]

---

(١) الأرواح ، والرياح : جمع ريح .

(٢) القديد : اللحم المقدد ، أو اقطع منه طولا ، والحيس تمر يخلط بسمن وأقط ، فيعجن شديداً ثم يندر منه نواه ، والأقط شىء يتخذ من المخيض الغنمى والخيث : تمر يخلط بسمن .

(٣) الصريف : اللبن ساعة الحلب والضريب : اللبن يحلب من عدة لقاح فى إناء .

(٤) أضغاث أحلام : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها .

(٥) الأعاصير : جمع إعصار وهو الريح التى تهب من الأرض كالعمود نحو السماء ، أو التى فيها العصار بالكسر وهو الغبار الشديد .

صادِغ : هلـمُّوا إلى المشارع [١] ، فروى جارع [٢] . وغرِق كارع [٣] » فقال الملك : أجل ، هذه رؤياى ، فما تأويلها يا عفيراء ؟ قالت : « الأعاصير الزوابع ، ملوكٌ تبابِع [٤] ، والنهر علم واسع ، والداعى نبىٌّ شافع ، والجارع ولى تابع ، والكارعُ عدو منازع » . فقال الملك : يا عفيراء ، أسِلمٌ هذا النبى أم حرب ؟ فقالت : « أقسمُ برافع السماء ، ومنزل الماء من العماء [٥] ، وإنه لمطِلٌّ الدماء [٦] ، ومنطِّق العقائل نطُقَ الإماء [٧] » . فقال الملك : إلام يدعو يا عفيراء ؟ قالت : « إلى صلاة وصيام ، وصِلة أرحام ، وكسر أصنام : وتعطيل أزلام [٨] ، واجتناب آثام » فقال الملك : يا عفيراء ، إذا ذبح قومهُ

---

(١) المشارع : جمع مشرعة وهى مورد الشاربة .

(٢) جارع : فاعل من جرع الماء كسمع ومنع إذا بلعه .

(٣) كارع : فاعل من كرع فى الماء كسمع ومنع تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء . (٤) التبابع : جمع تبع كسكر : ملوك اليمن .

(٥) العماء : السحاب الكثيف .

(٦) انظر قوله عليه الصلاة والسلام فى خطبته فى حجة الوداع « وإن دماء الجاهلية موضوعة » .

(٧) العقائل : كرائم النساء جمع عقيلة ، والنطق : جمع نطاق ككتاب ، والنطاق والمنطقة : ما تشد به المرأة وسطها للمهنة ، ونطقها تنطيقا : ألبسها النطاق فتنطقت وانتطقت ، ومنطق النساء أى يسبيهن فيشددن النطق على أوساطهن للخدمة كالإماء .

(٨) الأزلام : جمع زلم ، كسبب : قداح كان العرب يستقسمون بها فى الجاهلية (أى يطلبون معرفة ما قسم لهم) وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا فعلا من تجارة أو سفر أجالوا ثلاثة قداح (القداح جمع قدح بالكسر ، وهو : السهم قبل أن يراش) وكانت عند أصنامهم ، أحدها مكتوب عليه : أمرنى ربى ، والثانى نهانى ربى ، والثالث : غفل . ويتصرف الواحد منهم حسب ما هو مكتوب .

فمن أعضاده[1] ؟ قالت : أعضادُه غطاريف[2] يمانون ، طائرهم به ميمون ، يغزيهم فيغزون ، ويُدمِّث[3] بهم الحزون ، وإلى نصره يعتزون » . فأطرق الملك يؤامر[4] نفسه في خطبتها ، فقالت : « أبيتَ اللعن أيها الملك ! إن تابعي غيور ، ولأمري صبور ، وناكحي مثبور ، والكاشف بي ثبور[5] » . فنهض الملك وجال في صهوة[6] جواده ، وانطلق ، فبعث إليها بمائة ناقة كوماء .

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٩٦)

ومن كلام عفيراء الكاهنة — نرى أن هناك من النساء في الجاهلية من تتصف بالشفاعة وصفاء الروح ، فقد تنبأت عفيراء بوجود النبي الكريم ووصفته بأنه مطل الدماء ، ومنطق القبائل نطق الإماء ، ولعلها في تنبؤها هذا قد اطلعت على هذه الأخبار عن طريق اتصالها بالأحبار والرهبان والحنفاء كورقة بن نوفل وأمية بن أبي الصلت وغيرهما .

كما يدل حديث عفيراء على وجود ما يسمى « بعلم تفسير الأحلام » كعلم له قواعده وأصوله عند العرب وبخاصة الكهان .

وأياً ما كان فإن أدب الكواهن موسوعة أدبية وتاريخية وعلمية ، قدمت لنا وصفاً تسجيلياً ، لعادات العرب وطباعهم ، وأخلاقهم وعلومهم وثقافاتهم في باقة مسجوعة موسيقية ترتاح لها النفس ، ويهفو لها القلب .

---

(١) الأعضاد : الأنصار جمع عضد ، والذبح معروف ، والمراد هنا إذا قطعوه وتركوا نصرته . (٢) الغطاريف : جمع غطريف وهو السيد الشريف .
(٣) يسهل ، والحزون : جمع حزن كشمس وهو ما غلظ من الأرض .
(٤) يشاور . (٥) الثبور : الهلاك . (٦) الصهوة : مقعد الفارس .

الفصل الرابع

الحكمة والمثل

العرب ــ كغيرهم من الشعوب الشرقية عامة والسامية خاصة ــ شديدو الميل إلى إرسال الحكمة والمثل وهما على لسانهم فى كل حال، يدعمون بهما أقوالهم، ويعللون بهما أعمالهم فيطلقونهما عند كل فرحة وترحة، ويوردونهما فى جميع أحداثهم متضمنة تجاربهم، وخبرتهم فى حياتهم ومجتمعهم، فهى عندهم من ذخائر الدهر، وحكم الزمان، وثمار الشيخوخة المحنكة التى توجه الناس إلى الطريق الأقوم فى تنظيم شئونهم القبلية والحضرية

وللحكمة عند العرب مكانة عالية، ومنزلة مرموقة وهى (وشى الكلام، وجوهر اللفظ وحلىّ المعانى) وهى أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة لم يسر شىء مسيرها، ولا عم عمومها حتى قيل « أسير من مثل ».

وقال الشاعر :

ما أنت إلا مثل سائر يعرفه الجاهل والخابر

وقد ضرب الله عز وجل الأمثال فى كتابه، وضربها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى حديثه. قال الله تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له »[1] ومثل هذا كثير فى القرآن الكريم.

وجاء فى المناظرة التى جرت بين النعمان بن المنذر، وكسرى أنو شروان فى شأن العرب :

(١) آخر سورة الحج .

« قال النعمان : وأما الأمم التي ذكرت فأية أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها .

قال كسرى : بماذا فضلتها ؟

قال النعمان : بعزها ، ومنعتها ، وحسن وجوهها ، وبأسها ، وسخائها وحكمة ألسنتها .

وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء وضربهم « الأمثال » وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس »[1] ومن ثم ترى أن الحكمة والمثل من موضوعات فخر العرب لأنهما دليل الحصافة والفهم ، ولا عجب في ذلك فإنهما فلسفة الحياة وعصارة خبرة الدهور وخلاصة نور العقل ، ونور اليقين ، بل إنهما عينا النفس العربية ومرآة ما يجول فيها ، وطريق الاستقامة إلى المثل العليا .

ومن زعماء الحكمة والمثل أكثم بن صيفي وقل من جاراه من حكماء عصره في ضرب الأمثال وسوق الحكمة ، وكان في خطبه قليل « المجاز حسن الإيجاز » ، حلو الألفاظ ، دقيق المعاني مولعاً بالأمثال يقول : « حسبك من شر سماعة » ، « الصمت حكم وقليل فاعله » ، وزهير بن أبي سلمى المزني ، وقد أكثر من الأمثال والحكم بما لم يفقه شاعر جاهلي ، وبما فتح به باب الحكم والأمثال في الشعر العربي فكان كلامه الدرب الذي سلكه الشعراء لبلوغ الحكمة ومن أمثلته :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم

ومن يجعل المعروف في غير أهله ... يكن حمده ذماً عليه ويندم

ولبيد بن ربيعة ، وهو ممن أبدعوا في الحكم والأمثال ، وقد ثبت في

---

(١) الحكم والأمثال ص ١٠ ، ١١ .

الصحيحين شهادة للنبي ﷺ له بقوله : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

* ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ *

وطرفة بن العبد الشاب الذى انهالت عليه المصائب فأنطقته بالحكمة التى نثرها فى ديوانه فكانت مصبوغة بصبغة الوعى والحنكة :

الخير خير وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد

وأمية بن أبى الصلت الذى يمتاز شعره بتضمنه روائع الحكمة والمثل يقول :

عطاؤك زين لامرىء قد حبوته بخير وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرىء بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

وعدى بن زيد العبادى يقول من قصيدة نظمها فى السجن ووجهها إلى النعمان أبى قابوس يتظلم من سجنه (وكان قد وشى بعض الحاقدين به إلى النعمان فسجنه) :

أيها الشامت المعير بالدهر أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى ، كسرى الملوك أبو ساسان أم أين قبله سابور

وأسلوب عدى ساذج لينته الحاضرة ، وجعلته ناعم الجرس رائع التشبيه والتصوير أحياناً ، وإنك لتشعر أن لغة الشاعر تتثاقل ولا تنقاد له ناصية القوافى ، ولهذا لم يعده العلماء الأقدمون حجة فى الشعر [1] .

وقد شاركت المرأة الأديبة الرجال الأدباء فى ضرب الأمثال والحكم ، وكن أمثلة رائعة فى هذا الفن ، ومنهن عثمة بنت مطرود البجلية ، والحمراء

---

(١) والحديد فى الأدب العربى ج ٥ ص ٢٣٥ .

بنت ضمرة بن جابر وحبى بنت مالك العدوانية ، والعجفاء بنت علقمة السعدى والخنساء بنت عمرو بن الشريد ، والأمثلة التى أرسلتها المرأة العربية من الوجهة الأدبية والفنية تقوم على التشبيه والاستعارة والتمثيل ، وهى لا تعدو الأمثال العربية الأخرى التى ساقها الحكماء — ووصلت صورة الكلام فيها إلى الغاية القصوى فى البلاغة من حيث إيجاز اللفظ وصحة المعنى ، وحسن البيان ، ولطف الإشارة وإصابة الغرض ، وصدق التجربة ، وتجعل النفوس ترتاح لها وتنشط لحفظها ، ليسير مثونتها ، وحسن وقعها ، وسهولة الاحتجاج بها ، ولأنها تورث ما تتخلله من الكلام رواجاً ، وتكسبه قبولا ، كما أنها مستقاة من حياة البداوة ، ومستوحاة من رمال الصحراء ، وطبيعة أرضها وسمائها وحيوانها ونباتها ، وعادات العرب وتقاليدهم وحروبهم وغزواتهم ، وحلهم وترحالهم وشجاعتهم وجودهم ، وعزهم وشرفهم وسائر أخلاقهم العربية ؛ فإن رأت زوجها تخلف عن لقاء العدو واعتكف فى منزله ، ثم اغتاظ من نظرها وإعجابها بالمقاتلين الشجعان ، انطلقت قائلة :

* أغيرة وجبنا *

فذهبت مثلا ، وإن سئلت ما ليس فى بيتها ، فلما عز عليها عطاؤه ، وقيل لها : أتبخلين ؟ انطلقت قائلة :

* بيتى يبخل لا أنا *

وقولها :

ترى الفتيان كالنخل   وما يدريك ما الدخل

* * *

وقد ظهرت فى العصر الجاهلى أديبات حكيمات اشتهرن بضرب المثل والحكمة ، فذهب كلامهن مثلا ذائعاً ، يتمثل به فى جميع المواقف ، والمرأة من طبيعتها تجنح دائماً إلى الحكمة وعدم التسرع فى بعض الأمور ، وإنها

كثيراً ما تهتدى عن طريق شعورها وبصيرتها إلى حقائق قد لا يستطيع الرجل أن يهتدى إليها بعقله وتفكيره المجرد[1] .

وقد نبغ فى مجال الحكمة نساء كثيرات ، ومنهن عثمة بنت مطرود البجلية والحمراء بنت ضمرة ، وحي بنت مالك العدوانية ، وعصام الكندية ، والعجفاء بنت علقمة السعدى ، « والخنساء » بنت عمرو بن الشريد ، و « قذور » بنت قيس بن خالد الشيبانى ، والأمثلة الآتية : تبين مدى ما بلغت إليه المرأة من الدقة المتناهية فى صوغ الأمثال ، فجاءت أمثلة معبرة عن روح العصر الذى يعشن فيه كما تضمنت خلاصة تجاربهن فى الحياة وصارت أمثلة خالدة تعبر عن أدبهن ونبوغهن :

﴿ لا تعدم الحسناءُ ذاماً ﴾[2]

قالته حيّ بنت مالك العدوانية .

﴿ لا عتاب على الجندل ﴾

يضرب فى الأمر إذا وقع لا مرد له .

وأصله ما حدثوا أن إحدى ملكاتِ سبأ ، وفد إليها قوم يخطبونها . فقالت : ليصِفْ كل رجل منكم نفسه ، وليصدق ، وليوجز . لأتقدّم إن تقدمت ، أو أدَع إن تركت على علم . فتكلم رجل منهم يقال له مدرك ، فقال : إن أبى كان فى العز الباذخ ، والحسب الشامخ . وأنا شرس الخليقة ، غير رعديد عند الحقيقة[3] ، قالت . « لا عتاب على الجندل » . فأرسلتها مثلا . ثم تكلم

---

(١) « سيكلوجية المرأة » الدكتور زكريا ابراهيم ، مكتبة مصر ـ الفجالة ص ٣٥

(٢) الذام : العيب .

(٧) الرعديد : الجبان المستطار القلب ، والحقيقة : ما يحق على المرء أن يحميه ، وقد يريدون بها اللواء .

آخر منهم يقال له ضبيس ابن شرس . فقال : أنا فى مال أثيث ، وخلق غير خبيث ، وحسب غير غثيث ، أحـــذو الفعل بالفعل ، وأجزى القرض بالقرض[1] . فقالت : « لا يسرّك غائباً ، من لا يسرّك شاهداً » فأرسلتها مثلا .
ثم تكلم آخر منهم يقال له شماس بن عباس . فقال : أنا شماس بن عباس ، معروف بالندى والباس ، حسن الخلق فى سجية ، والعدل فى قضية ، مالى غير محظور على القل والكثر ، وبالى[2] غير محجوب على العسر واليسر . قالت : الخير متبع ، والشر محذور . فأرسلتها مثلا . ثم قالت : اسمع يا مدرك ، وأنت ياضبيس : لن يستقيم معكما معاشرة لمشير حتى يكون فيكما لين العريكة . وأما أنت يا شماس فقد حللت منى محل الأهزع[3] من الكنانة ، والواسطة من القلادة ، لدماثة خلقك ، وكرم طباعك ، « ثم اسمع بخير أو دع » . فأرسلتها مثلا وتزوجت شماساً .

﴿ لو ترك القطا ليلا لنام ﴾

يضرب لمن حُمل على مكروه من غير إرادته .

وأول من قاله « حذام بنت الريان » . وذلك أن عاطس بن خلاج سار إلى أبيها فى حمير وخثعم وجعفى وهمدان . ولقيهم الريان فى أربعة عشر حياً من أحياء اليمن ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، ثم تحاجزوا .

وإن الريان خرج تحت ليلته هو وأصحابه هُرّاباً ، فساروا يومهم وليلتهم ، ثم عسكروا . فأصبح عاطس ، فغدا لقتالهم فإذا الأرض منهم بلاقع ، فجرد

---

(١) القرض : القطع ، والفرض : الحز ، يريد أنه لا يصبر على ضيم ، بل يجزى الشر بأشد منه .
(٢) البال : رخاء العيش .
(٣) الأهزع : خير السهام وأفضلها تدخره لشديدة .

خيله . وحث فى الطلب ، فانتهوا إلى عسكر الريان ليلا ، فلما كانوا قريباً منه ، أثاروا القطا ، فمرت بأصحاب الريان ، فخرجت حذام بنت الريان إلى قومها فقالت :

ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا　　فلو ترك القطا ليـــلا لناما

أى إن القطا لو ترك ما طار هذه الساعة ، وقد أتاكم القوم . فلم يلتفتوا إلى قولها ، وأخلدوا إلى المضاجع لما نالهم من التعب . فقام ديسم بن طارق ، وقال بصوت عال :

إذا قالت حذام فصدِّقوها　　فإن القول ما قالت حَـذامِ

وثار القوم ، فلجئوا إلى واد قريب منهم ، فانحازوا به ، حتى أصبحوا ، وامتنعوا منهم .

﴿ مَرْعى ولا كالسَّعدان ﴾

يضرب للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله .

وأول من قال ذلك : « الخنساء بنت عمرو بن الشريد » . وذلك أنها أقبلت من الموسم — فى عكاظ — فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن ربيعة . فعرَّجت عليها ، وهى تنشدهم مراثى فى أهل بيتها . فلما دنت منها قالت : على من تبكين ؟ قالت : أبكى سادة مضوا . قالت : أنشدينى بعض ما قلت . فأنشدت هند أبياتاً . فقالت الخنساء « مرعىً ولا كالسعدان » .

﴿ ماءٌ ولا كصدَّاء ﴾

يضرب للرجلين لهما فضل ، ولكن أحدهما أفضل .

والمثل لقذورّ بنت قيس بن خالد ذى الجدين الشيبانى . وكان من حديثها أن زُرارة بن عدس رأى ابنه لقيطاً يختال ، فقال له : كأنك أصبت ابنة قيس بن خالد ، ومائة من هجان المنذر بن ماء السماء ! فحلف لقيط لا يمسّ الطيب ،

ولا يشرب الخمر ، حتى يصيب ذلك . فسار حتى أتى قيس بن خالد — وهو سيد ربيعة — وكانت عليه يمين لا يخطب إنسان إليه علانية إلا أصابه بسوء . فخطب إليه لقيط فى مجلسه ، وقال : عرفت أنى إن أعالنك لم أشنك ، وإن أناجك لم أخدعك . فزوجه ابنته القذور ، وساق المهر عنه ، وهداها إليه من ليلته . فاحتمل بها إلى المنذر ، فأخبره بما قال أبوه . فأعطاه مائة من هجانه ، فرحل إلى أهله فقالت : ألق أبى وأودعه . فلما جاءته قال لها : يا بنية ، كونى له أمة يكن لك عبداً ، وليكن أطيب طيبك الماء . إنه فارس مضر ، ويوشك أن يقتل ، فإن كان ذلك فلا تخمشى له وجهاً ، ولا تحلق شعراً . فقتل لقيط ، فاحتملت إلى قومها ، فتزوجها بعده رجل منهم ، فجعلت تكثر ذكر لقيط ، فقال لها : وأىُّ شىء رأيت منه كان أحسن فى عينك ؟ قالت : كل أموره حسن ، ولكنى أحدثك إنه خرج إلى الصيد فى يوم دُجْن[1] وقد تطيب وشرب ، فرجع إلىَّ ولقميصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضوع من أطرافه ... فسكت عنها ، حتى إذا كان يوم دجن شرب ، وتطيب ، وركب ، وصرع من الصيد ، وأتى وبه نضح من الدم والطيب . فقال لها : كيف ترَيْنى ؟ أنا أحسن أم لقيط ؟ فقالت : « ماءٌ ولا كصدَّاءٍ » .

* * *

أسلوب الأمثال الذمائية : يتسم أسلوب الأمثال بشدة الإيجاز ، وهذا ما يميز صيغة الأمثلة كما تتميز بالفكرة الصائبة ، وروعة التعبير ، وهذا ما جعلها أسير على الزمن ، كما قالوا قديماً « أسير من مثل » ، إذ أن إيجازها وجمالها يسهلان استظهارها وذيوعها ، وتمثل الناس بها فى شتى أنحاء الدنيا .

كما نلاحظ أن الأمثال يكثر فيها الحذف والإيماء ، وتتصف عموماً بمتانة

---

(١) الدجن : المطر الكثير .

السبك وجودة التقسيم مع الميل إلى النسق الإنشائى العالى من تقديم القيود على المقيدات والمسند على المسند إليه ، ومع أنها ليست إلا فقرات قصيرة يصعب الحكم بها على النسق الإنشائى فى ذلك العهد ، فإننا نتعرف بها ما بلغته العربية منذ العهد النبوى أو ماقبله من التطور فى بناء الجمل ، وتركيب الألفاظ ويمكن استخدامها للحكم على ما نقل لنا من آثار ذلك العهد البعيد (١) .

كما نلاحظ أن الأمثلة مبنية على الاستعارة التصريحية قد شبهت فيه حالة المضرب بحالة المورد إذ يعبر عن حالة المضرب بالعبارة التى قيلت فى حالة المورد على سبيل الاستعارة التصريحية التمثيلية إلا إذا كان المثل صيغة تفضيل فيكون ضرب المثل تشبيهاً عادياً .

والأمثلة النسائية السابقة كلها ترتبط بحادثة أو قصـــة ، وقعت وهى — كما قدمنا أولا — تعبر عن خلاصات لتجارب صدرت فى أكثرها عن ذكاء ودقة ملاحظة ونفاذ بصيرة ، كما نلاحظ ارتباطها بالبيئة العربية ، وأنها صدى لها وتعبر عنها تعبيراً فطرياً صادقاً ، لا تكلف فيه ولا تصنع إذ هو إحساس الأمة وشعورها وقلبها النابض ، ولذلك قيل (المثل صوت الشعب) .

وأغراض الأمثلة التى قالت فيها المرأة العربية متشعبة وكثيرة فمنها ما يتصل بالحرب كقول الحمراء بنت ضمرة : « صارت الفتيان حمماً » ، وقول حذام بنت الريان : « لو ترك القطا ليلاً لنام » ، ومنها ما يكون فى مقام المفاضلة كقول قذور بنت قيس « ماء ولا كصداء » ، « ومرعى ولا كالسعدان » ، ومنها ما يضرب فى افتخار الرجل بعشيرته وقومه كقول العجفاء : « كل فتاة بأبيها معجبة » .

ومنها ما يمثل النهى عن صفة مذمومة أو ممدوحة كقولها : « أغيرة وجبنا » و « بيتى يبخل لا أنا » ، و « لا تأمنى الأحمق وفى يده سكين » ، و « رمتنى بدائها

(١) تطور الأساليب النثرية : ٩٣ .

وانسلت ، ومنها ما يمثل منهجاً خاصاً أو اتجاهات معينة أو أغراض أخرى تفهم من السياق المتقدم ، هذا وتتخذ الأمثلة فى الدراسات الحديثة مفاتيح لمعرفة طبيعة الشعب واتجاهاته وميوله العميقة المستقرة فى نفوس أبنائه »[1].

وما من ريب فى أن هذه الأمثال تستحوذ على ضروب من الجمال الفنى يرجع بعضها إلى اختيار ألفاظها وصيغها ويرجع بعضها الآخر إلى ما تعتمد عليه من تصوير أو سجع وتوقيع ، وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن الأمثال الجاهلية تحتوى فى بعض جوانبها آثاراً من الصنعة ، ولعل ذلك ما جعل الفارابى يقول : إنها من أبلغ الحكمة ، ويقول ابن المقفع أنها آنق للسمع بينما يقول النظام أنها « نهاية البلاغة » لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية » وطبيعى أن تظهر الصنعة فى بعض الأمثال الجاهلية ، فقد كان العرب حينئذ مشغوفين بالبيان والبلاغة وصوّر القرآن الكريم هذا الجانب فيهم ، فقال جل شأنه « ولتعرفنهم فى لحن القول » وقال : « وإن يقولوا تسمع لقولهم » وقال : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا » .

وفى جميع آثار نثرهم وشعرهم نجد آثار هذه الرغبة الملحة فى استمالتهم الأسماع بجمال منطقهم وخلابة ألسنتهم ، وقد دفعتهم تلك الرغبة دفعاً إلى تحسين كلامهم وتحبير ألفاظهم حتى فى أمثالهم ، وهيأ لذلك أن كثيراً من بلغائهم وفصحائهم أسهموا فى صناعة هذه الأمثال ؛ فكان طبعياً أن تظهر فيها خصائصهم الفنية التى يستظهرونها فى بيانهم وتدبيج عباراتهم حين ينظمون أو يخطبون .

(١) النصوص المقررة ١ / ١٤٥ — الأهرام — القاهرة .
(٢) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٣٦ .

الباب الثاني

النثر فى العصر الإسلامى وعصر بنى أمية

كان للمرأة العربية فى صدر الإسلام وبنى أمية نشاط ملحوظ ، ونبه شأنها فى النثر ونقده ، وكان للنساء دور هام فى تحميس المقاتلين فى الحروب والغزوات بخطبهن الرنانة ، وألفاظهن الضخمة المجلجلة ، وكأن خطبهن فى التحميس سحر بابل ، يقذفن بالخطب الحارة ، كالفحول تهدر فى الشقاشق مثل : عكرشة بنت الأطرش ، وأم الخير بنت الحريش البارقية ، والزرقاء بنت عدى الهمدانية .

كما كان لغيرهن فى مواقع أخرى مواقع مشهودة ، وخطب وأقوال مشهودة ، فقد شهدت أسماء بنت أبى بكر اليرموك مع زوجها الزبير بن العوام ، وابنها عبد الله بن الزبير ، وكان موقفها من ابنها ، ونصحها له بالقتال حتى الموت فى حربه مع الحجاج بمكة قدرة تفوق قدرة الرجال . وشهدت السيدة عائشة موقعة الجمل ، وخطبها فى هذا المقام مدونة ومعروفة ، كما شهدت الخنساء موقعة القادسية ، وحديثها فى هذه الموقعة لبنيها يأسر القلوب ويحرك الوجدان ، فكانت تحضهم على الجهاد والصبر والثبات ، بكلماتها الآسرة وعباراتها البليغة مما كان له الأثر الأكبر فى إذكاء نار الحماسة فى قلوب المجاهدين ، فهبوا يدافعون عن بيضة الإسلام ، فى عزم وثبات ، ونفس متطلعة إلى النصر ، وحقق الله أملهم ، ففازوا بالنصر المبين ، والظفر العظيم .

كما لا تنسى منتديات الأدب والشعر مجالس سكينة بنت الحسين فقد كان يفد إليها الأدباء والشعراء والنقاد فيحتكمون إليها فيما أنتجته عقولهم وأفكارهم من النظم والنثر ، وتناقشهم مناقشة أدبية جادة ، وتقنعهم بوجهة نظرها ،

فى غير حيف ولا شطط ، حتى شهد لها علماء الأدب برسوخ قدمها فى هذا الميدان .

وغيرهن كثيرات ممن شيّدْن صروح الأدب ، ورفعن منار العرفان ، وكن معلمات لجيل متأدب بآداب الإسلام ، وناهل من فيض القرآن والحديث .

وأفضل كلام نبدأ به نثر النساء ، حديث النسوة الذى رواه الشيخان البخارى ومسلم .

بلاغة النساء (كما رواها الشيخان)

﴿ حديث أم زرع ﴾

فقد أخرج البخاري ومسلم[1] والترمذي في الشمائل وأبو عبيد القاسم ابن سلام والهيثم بن عدي والحرث بن أبي أسامة والإسمعيلي وابن السكيت وابن الأنباري وأبو يعلى والزبير بن بكار والطبراني وغيرهم ، واللفظ لمجموعهم .

عن عائشة رضي الله عنها ، قالت :

جلست إحدى عشرة امرأة من أهل اليمن ، فتعاهدْن وتعاقدْن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً .

فقالت الأولى : زوجي لحم جمل غثٌّ ، على رأس جبل وعث ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل .

قالت الثانية : زوجي لا أبث خبره ، إني أخاف أن لا أذره ، إن أذكره أذكر عُجَرَه وبُجَرَه .

قالت الثالثة : زوجي العَشنَّق ، إن أنطق أطلَّق ، وإن أسكت أعلَّق ، [على حدِّ السِّنان المذلَّق] .

قالت الرابعة : زوجي كليل تهامة ، لا حرٌّ ولا قُرٌّ ، ولا وخامة ولا سآمة ، [والغيث غيث غمامة] .

قالت الخامسة : زوجي إن دخل فهد ، وإن خرج أسِد ، ولا يسأل عما عهِد [ولا يرفع اليوم لغد] .

---

(١) راجعنا هذا الحديث على صحيح مسلم ١٥ : ٢١٢ والتجريد للزبيدي ٢ : ١٣٢ وفيما بين الأقواس زيادة ليست في هذين الكتابين .

قالت السادسة : زوجى إن أكل لفّ[1] ، وإن اضطجع التفّ [وإذا ذبح اغتث] ولا يولج الكفّ ، ليعلم البثّ .

قالت السابعة : زوجى غياياء ، أو عياياءُ طباقاء ، كل داء له داء ، شجك [أو بجك] أو فلك أو جمع كلاًّ لكِ .

قالت الثامنة : زوجى المسّ مَس أرنب ، والريح ريح زَرْنب [وأنا أغلبه والناسَ يَغلِب] .

قالت التاسعة : زوجى رفيع العماد ، طويل النّجاد ، عظيم[2] الرماد ، قريب البيت من الناد [لا يشبع ليلة يُضاف ، ولا ينام ليلة يخاف] .

قالت العاشرة : زوجى مالك ، وما مَلك[3] مالكٌ خير من ذلك ، له إبل قليلات المسارح ، كثيرات المبارِك ، إذا سمعن صوت المِزهر أيقن أنهن هوالك ، [وهو إمام القوم فى المهالك] .

قالت الحادية عشرة : زوجى أبو زرْع ، وما أبو زَرْع ؟ أناسَ من حُلىّ أذنىّ [وفرعىّ] وملأ من شحم عضدىّ ، وبجّحنى فبجحت نفسى إلى[4] ، وجدنى فى أهل غنيمة بشق ، فجعلنى فى أهل صهيل وأطيط ودائِس ومُنَق ، فعنده أقول فلا أقبَّح ، وأرقدُ فأتصبَّح ، وأشرب فأتقنح ، وآكل فأتمنَّح .

أم أبى زرع : فما أم أبى زرع ؟ عكومها رداح ، وبيتها فساح .

---

(١) فى رواية البخارى ومسلم : لف .

(٢) فى رواية البخارى ومسلم : رفيع .

(٣) فى رواية البخارى ومسلم : وما مالك .

(٤) فى رواية البخارى ومسلم : فبجحت إلى نفسى .

ابن أبي زرع : فما ابن أبي زرع ؟ كسلّ شطبة ، وتشبعه ذراع الجفرة ، [وترويه فيقة اليعرة ، ويميس في حلق النثرة] .

بنت أبي زَرْع : فما بنت أبي زرع ؟ طوع أبيها ، وطوع أمها [وزين أهلها ونسائها] وملء كسائها [وصِفر [1] ردائها] وعقر [2] جارتها [قباء هضيمة الحشا ، جائلة الوشاح ، عكناء ، فعماء ، نجلاء ، دعجاء ، رَجَّاء ، زجَّاء ، قنواء ، مؤنقة مُنفّقة ، بَرُود الظل ، وفي الآل ، كريمة الخِلّ] .

جارية أبي زرع : فما جارية أبي زرع ؟ لا تبثّ حديثنا تبثيثاً ، ولا تنقّث ميرتنا تنقيثاً ، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً .

[ضيف أبي زَرْع : فما ضيفُ أبي زرع ؟ في شِبع ورِي ورَتع [3]] .

[طهاة أبي زَرْع : فما طهاة أبي زرع ؟ لا تفتر ولا تعرى ، تقدح وتنصب أخرى ، فتلحق الآخرة بالأولى] .

[مال أبي زرع : فما مال أبي زرع ؟ على الجم معكوس ، وعلى العفاة محبوس] .

قالت : خرج أبو زرع من عندي والأوطاب تمخض ، فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين ، فنكحها فأعجبته [4] فلم تزل به حتى طلقني [فاستبدلت وكل بدل أعور] فنكحت بعده رجلا

---

(١) قال ابن الأثير : صفر ردائها وملء كسائها ؛ أي أنها ضامرة البطن ، فكأن رداءها صفر ، أي خال ، والرداء ينتهي إلى البطن فيقع عليه .

(٢) وعقر جارتها ، أي هلاكها من الحسد والغيظ ، ورواية البخاري ومسلم : وغيظ جارتها .

(٣) الرتع : التنعم .

(٤) عبارة البخاري ومسلم : يلعبان من تحت خصرها برمانتين ، فطلقني ونكحها ، فنكحت بعده رجلا سريا ، وركب شريا .

سرِياً ، شرياً ، ركب وأخذ خطيا ، وأراح عليّ نعماً ثريا ، وأعطانى من كل رائحة زوجاً ، وقال : كلى أم زرع ، وميرى أهلك .

قالت : فلو جمعتُ كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنية أبى زرع .

قالت عائشة : فقال لى رسول الله ﷺ : « كنت لك كأبى زرع لأم زرع ، إلا أنه طلقها ، وإنى لا أطلقكِ » ، فقالت عائشة : بأبى أنت وأمى ! لأنت خير لى من أبى زرعٍ لأمّ زرعٍ .

[الغثّ : الهزيل . والوَعث : الصعب المرتقى . وينتقى أى ليس له نِقى يستخرج ، والنـّقى : المخ . وأرادت بعجره وبجره عيوبه الظاهرة والباطنة . والعشنّق : السيء الخلق ، والمذاق : المحدد . والرخامة : الثقل . وفهِد وأسِد : فعل فِعل الفهود من اللـّين وقلة الشر ، وفعل الأسود من الشهامة والصرامة بين الناس . واقتفّ : جمع واستوعب . واشتفّ : استقصى . وغياياء (بالمعجمة) المنهمك فى الشر . وعياياء (بالمهملة) الذى تعييه مباضعة النساء . وطباقاء : قيل : الأحمق ، وقيل : الثقيل الصدر عند الجماع . وشجّك : جرح رأسك . وبجّك : طعنك . وفلـّك : جرح جسدك . والأرنب : دُويبّة لينة الملمس ناعمة الوبر . والزّرنب : نبت طيب الريح . والنّجاد : حمائل السيف . والمِزهر : آلة من آلات اللهو . وأناس : أثقل . وفرعىّ : يدىّ . وبجحنى : عظمنى . وغنيمة : تصغير غنم . وشِق (بالكسر) جهد من العيش . وأهل صهيل ، أى خيل . وأطيط : أى إبل . ودائس : أى زرع . ومنـِقّ (بضم الميم وكسر النون وتشديد القاف) أى أهل نقيق ، وهو أصوات المواشى ، وقيل الدجاج . وأتصبح : أنام الصّبحة . وأتقنح : لا أجد مساغا . وأتمنّح أطعم غيرى . والعكوم : الأعدال . ورداح : ملأى . وفساح : واسع . والشطبة : سعفة النخل أى أنه مهفهف خفيف اللحم ويؤخذ منه استحباب حسن المعاشرة للأهل وجواز الإخبار عن الأمم الخالية والتنافس فى اختيار الأزواج] .

السيدة عائشة ترثى أباها

قالت عائشة فى رثاء أبيها :

« نضّر[1] الله وجهك يا أبت ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا مذلا بإدبارك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها ، ولئن كان أجل الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك ، وأعظم المصائب بعده فقدك ، إن كتاب الله ليعـــد بحسن الصبر فيك حسن العوض منك ، وأنا أستنجز موعود الله تعالى بالصبر فيك ، وأستقضيه [2] بالاستغفار لك ، أما لئن قاموا بأمر الدنيا ، لقد قمت بأمر الدين ، لما وهى شعبه [3] وتفاقم صدعه[4] ، ورجفت[5] جوانبه ، فعليك ســـلام الله ، توديع غير قالية[6] لحياتك ، ولا زارية [7] على القضاء فيك » [8] .

ونلاحظ من قراءتنا للنص أن السيدة عائشة موفقة فى اختيار ألفاظها ، وعباراتها المنتقاة تعطى من المعانى ما لا يعطى غيرها فقد بدأت الموضوع باختيار موفق (نضر الله وجهك يا أبت) فجاء لفظ نضّر براعة استهلال للكلمة ، وقد عبرت عن نجيعتها بكلمات موجزة بليغة ، أعطت لنا المعانى الكثيرة « الشجن والحنين واللوعة والوجد ، والإكبار والإجلال بأبيها وقرة عينها ، والبر والوفاء لمن صنعها على عينه ورباها فى رحابه ، وهو الحب غرسته

(1) نضر : حسن . من النضارة والنضرة ، وهى الحسن .

(2) أستقضيه : أطلب قضاءه وما عنده . (3) وهى شعبه : ضعف جمعه .

(4) تفاقم صدعه : زاد تشققه . (5) رجفت : اضطربت .

(6) قالية : كارهة . (7) زارية : عائبة ولائمة .

(8) البيان والتبيين ٢ / ٢٤٠ . نهاية الأرب ٥ / ١٥٧ .

فى مغارسه من الجوانح يد الرحمن ، فما يستطيع أى إنسان أن ينتزعه ، وهو حب رسخت أصوله وذهبت فروعه فى السماء فهو خالد على الأيام ومر الأعوام [١]

العاطفة الحزينة الجياشة

وقد عبرت السيدة عائشة عن العاطفة الحزينة الجياشة ، أصدق تعبير والنساء فى هذا الميدان كما قدمنا تجدهن يستنبطن فى هذا الباب أساليب بديعة لم يتنبه لها الفحول ، لما طبعن عليه من رقة الطباع وشدة الجزع فى المصائب وصدق الحس ، فيبرزن عواطفهن الحزينة فى بيان سلس ملتاع ، وكلام حزين أخاذ ، وهن أكثر من الرجال ذكراً للوعة ، وأكثر حديثاً عن البكاء والدموع والوجيعة ، لأن ضعفهن وأنوثتهن وسرعة انفعالهن كل أولئك يتجلى فى تصويرهن للترح بالحديث عن البكاء ومخاطبة العيون والدموع ، والنساء أشجى الناس قلوباً عند المصيبة وأشدها على هالك لما ركب الله فى طبعهن من الخور وضعف العزيمة وشدة الجزع ودواعى الرثاء [٢] .

والعاطفة الحزينة المشبوبة تمليها الخطوب وتشعلها الحوادث والمواقف العنيفة ، تجد المجال أمامها فسيحاً فى صدور النساء والولدان ، فتترك فيها أعمق الآثار ، وتدفعها فى طريق الانفعال ، فإذا أخذ هذا الانفعال صورة الخطابة أو الشعر أو المقال ، فهناك الأدب الرفيع ، والشعر الرائع ، والخطابة الباهرة ، والسحر الحلال ، فالعاطفة القوية هى التى تمنح الأدب الحياة ، وتهبه فيضاً من الحرارة والقوة .

وهذا هو ما تترجم عنه الخطبة ، وتعرضه فى كل كلمة من كلماتها ، كما تلمح

---

(١) الخطابة فى صدر الإسلام ج ١ : ٣٩٥ .

(٢) كتاب العمدة ٢ / ١٢٣ .

من خلالها شخصية السيدة عائشة الحزينة المشغوفة ، البارة الوفية ، المثنية المكبرة المؤمنة الصابرة ، الذاكرة الشاكرة .

وهذا الحزن القوى ، وتلك العاطفة المشبوبة طبعا الأسلوب بطابعهما ، وقد استمر هذا الفيض من قوة الشعور والعاطفة ، وقوة التعبير ماثلا فى الخطبة كلها ، فاحتفظ بمستوى واحد من بدئها إلى نهايتها ، وأعتقد أنها لو أطالت لبقى كلامها كله على هذا النمط الرفيع الذى هو أليق الأنماط بالرثاء من لفظ شجى إلى عاطفة حرّى ، ومن صدق التعبير إلى وضوح المعانى ، ومن سهولة الأسلوب إلى استيفاء الغرض ، ومن شيوع الطبعية فى الكلام إلى الأخذ بقدر من جمال الصنعة ، فى السجع والطباق والمقابلة والازدواج وتساوى الفواصل ، وحسن التأليف الموسيقى بين الألفاظ ، المعانى والموسيقى والنغم وجمال الإيقاع[1] .

خطبة السيدة عائشة فى الفخر بأبيها

ذكروا أنه جاء عائشة أن قوماً يتناولون أبا بكر رضى الله عنه ، فأرسلت إلى جماعة من الناس ، فلما حضروا أسدلت أستارها ، ثم قالت :

« أبى وما أبيه ! أبى والله لا تعطوه[2] الأيدى ، ذلك طود منيف[3] ، وفرع مديد[4] ، هيهات ، كذبت الظنون ، أنجح[5] إذ أكديتم[6] ، وسبق إذ ونيتم ، سبق الجواد إذا استولى على الأمد[7] ، فتى قريش ناشئاً ، وكهفها

---

(١) الخطابة فى صدر الإسلام ج ١ : ٣٩٥ .

(٢) تعطوه : تناله . (٣) طود منيف : جبل مشرف .

(٤) فرع : الفرع أعلى الشىء ، والشريف من القوم .

(٥) أنجح : نجح . (٦) أكدى : لم يعط خيراً .

(٧) الأمد : الغاية والنهاية .

كهلا ، يفك عانيها ، ويريش مُملقها [١] ، ويرأبُ شعبها [٢] ويلم شعثها ، حتى حليتْه [٣] قلوبها ، ثم استشرى [٤] فى دين الله ، فما برحت شكيمته فى ذات الله عز وجل [٥] ، حتى اتخذ بفنائه مسجداً ، يحيي فيه ما أمات المبطلون .

فأكبرت ذلك رجالات من قريش ، فحنت قسيها وفوّقت سهامها [٦] ، وامتثلوه غرضاً ، فما فلوا له صفاة [٧] ، ولا قصفوا له قناه ، ومر على سيسائه [٨] .

وهنا نلاحظ أن النص يسير على نسق آخر مخالف لنسق بكائها على أبيها فلكل مقام مقال كما قال أرباب البلاغة ، والسيدة عائشة كما لا يخفى نابغة فى الذكاء والفصاحة والبلاغة فاختارت لكل موضع ما يناسبه من الألفاظ والعبارات ؛ فإن مقام الافتخار يتطلب الألفاظ الضخمة ، والعبارات الفخمة الرنانة : استمع إلى قولها تصف أباها بالطود المنيف والجبل الأشم والفرع المديد وأنه سباق بلغ الغاية ، وأربى على النهاية تجد بلاغة النبوة تشع من لهاتها ، وسحر البيان ينبع من ثناياها ثم أسبغت عليه من الصفات الاجتماعية أنبلها ، ومن أفعال المروءات أشرفها وأمجدها (يفك العانى ، ويغنى الفقير ، ويلم الشعث ، ويرأب الصدع) .

والسيدة عائشة هنا غاضبة ثخورة مدافعة محتجة ؛ فالعوامل على التفخيم والتهويل متظاهرة ، من أجل ذلك حشدت فى خطبتها ما ينبغى لهذا الموقف من عدة ، وشاكلت بين اللفظ والمعنى فى الشرف والجودة والنقاء ؛ وعنيت بالفواصل

---

(١) يريش المملق : يعين الفقير .

(٢) رأب الشعب : أصلح الشق والكسر .

(٣) حليته القلوب : وجدته حلواً .

(٤) استشرى : غضب وتمعق .

(٥) الشكيمة : الأنفة والإباء .

(٦) فوق السهم : جعل له فوقاً وهو موضع السهم .

(٧) الصفاة : الحجر الصلد .

(٨) سيسائه : أى شدته .

وتقصير الجمل ، وترادف التأكيد ، والتأليف بين الألفاظ تأليفاً يوفر لها الإيقاع والوزن وجمال المقاطع ، ومنحت قولها من صدق الإيمان وحرارة الانفعال قوة ووقعاً وتأثيراً . والحق أن السر الأكبر فيما لهذه الخطبة من سلطان فى النفوس راجع إلى تخير الألفاظ المشاكلة للغرض ، وحسن موافقتها للمعانى ، ألفاظها من فخامتها وجزالتها وقوتها جلال فى القلوب ، وسلطان على النفوس ، إلى ما انضم لذلك من مزايا الأساليب ، التى أشرنا إليها [١] .

وتمضى السيدة عائشة فى مفاخر أبيها فتقول :

« فلما قبض الله نبيه ﷺ ضرب الشيطان رواقه [٢] ، ومد طُنُبه [٣] ، ونصب حبائله ، وأجلب بخيله ورَجله [٤] ، واضطرب حبل الاسلام ، ومَرِج عهده [٥] ، وماج أهله ، وبُغى الغوائل ، فظنت رجال أن قد أكثبت أطماعهم [٦] ، ولات حين الذى يرجون . وأنّى والصدّيق بين أظهرهم ؛ فقام حاسراً مشمراً ، فجمع حاشيتيه [٧] ، ورفع قُطريه [٨] ، فردّ رَسَن [٩] الإسلام على غرْبه [١٠] ، ولمّ شعَثه بِطِبّه [١١] ، وانتاش [١٢] الدين فنعَشه ،

(١) الخطابة فى صدر الإسلام ج ١ : ٣٩٨ .

(٢) الرواق : الخيمة والفسطاط .

(٣) الطنب : الحبل أو الوتد تشد به الخيمة .

(٤) أجلب : صاح . الخيل هنا راكب الخيل . والرجل اسم جمع راجل أى ماش .

(٥) مرج : اختلط واضطرب وقلق وفسد .

(٦) أكثبت : قربت .

(٧) الحاشية الجانب والطرف .

(٨) القطر : الناحية .

(٩) الرسن : الحبل .

(١٠) الغرب : حد الشىء . والمراد هنا الظهر .

(١١) الشعث : المتفرق .

(١٢) انتاش : انتشل نعشه ، وأنعشه : رفعه .

فلما أراح[١] الحقّ على أهله، وقرر الرءوس على كواهلها، وحقن الدماء فى أهُبها[٢]، أتته منيّته، فسد ثُلمته بنظيره فى الرحمة، وشقيقه فى السيرة والمعدلة، ذلك ابن الخطاب، فلله درٌّ[٣] أمٍّ حملت به، ودرّت عليه، لقد أوْحدت به[٤]، ففنخَ[٥] الكفرة وديّخها[٦]، وشرّد الشرك شذر مذر[٧]، وبَعج[٨] الأرض وبَخعها[٩]، فقاءت[١٠] أكلها، ولفظت خبْأها، ترأمه[١١] ويصدِف عنها، وتصدّى له ويأباها، ثم وزع فيها فيئها، وودعها كما صحبها.

فأرونى ماذا ترتئون؟ وأى يومىْ أبى تنقمون؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم، أم يوم ظعنه إذ نظر لكم؟ [١٢] أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم».

ثم أقبلت على الناس بوجهها، فقالت: «أنشدكم الله، هل أنكرتم مما قلت شيئاً؟ قالوا: اللهم لا» [١٣].

وقد جاءت خطبتها فريدة فى نوعها وأتت لها البلاغة منقادة طائعة، كيف لا وقد تربت فى مدرستها، ورضعت من لبانها، وقد صورت جهاد أبيها فى محاربة المرتدين والوقوف أمامهم أدق تصوير وأبلغه: ما أروع الاستعارات

---

(١) أراح الحق: رده. (٢) الأهب: جمع إهاب وهو الجلد.

(٣) الدر: اللبن والنفس والعمل. والمراد التعجب، كأن ذلك لعظمته منسوب (لله). (٤) أوحدت به: جاءت به واحداً لا نظير له.

(٥) فنخ: أذل وقهر. (٦) ديخ: دوخ: قهر وأذل.

(٧) شذر مذر: فى كل اتجاه. (٨) بعج الأرض: شقها.

(٩) بخع: قهرها واستخرج ما فيها من الكنوز.

(١٠) قاءت أكلها: أخرجت خيراتها. والأكل ما يؤكل.

(١١) رأمه: تعطف عليه. (١٢) نظر لكم: عطف عليكم.

(١٢) صبح الأعشى: ١ / ٢٤٨. العقد الفريد ٢ / ٢٠٦ نهاية الأرب ٧ / ٢٣٠

فى قولها ، ضرب الشيطان رواقه ومد طنبه ، ونصب حبائله ، وأجلب بخيله ورجله ؛ واضطرب حبل الإسلام ، ثم بينت كيف أن الصديق حينما رأى ذلك قام حاسراً مشمراً يدافع عن بيضة الدين ، ويرد كيد المعتدين فى عزم وثاب ، وهمة متطلعة إلى النصر ، وقد حقق الله له أمله ، فولى المرتدون مذؤومين مدحورين وأضحت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ثم بينت كيف أنه حقن الدماء ورد رسن الإسلام على غربه ، ولم الشعث ورأب الصدع .

« إلا أن ماينبغى أن يلاحظ هنا هو أن أم المؤمنين قد حشدت فى هذه الخطبة حشداً من العبارات القوية الرنانة ، والألفاظ الضخمة ، والكلمات التى لم يؤلف مثلها عند النبى ﷺ ، ولا الخلفاء من بعده ؛ ولم تجنح هى إلى استعمالها فى رثائها لأبيها ، حتى صارت الخطبة كلها نسيجاً واحداً ، وهيكلا صلباً متماسكا . وليس العلم باللغة ومفرداتها ، صعبها وسهلها بمستغرب منها ؛ ولكن الذى نريد أن نذهب إليه هو أن السيدة عائشة قد تعمدت تعمداً أن تسوق خطبتها هذا المساق ، وأن تخرجها على هذه الصورة من الشدة والصلابة والأسر ، لتسترعى انتباه السامعين ، وتقرع أسماعهم وبصائرهم بهذه القدرة الباهرة فى القول ، والبلاغة الظاهرة فى الخطابة ؛ ورغبة فى مفاجأتهم بما يبهرهم من الإحسان ؛ والعلو عليهم بما يقهرهم من الحجة ؛ وركوبهم بما يشدههم من الفصاحة ، ورميهم كما شاءت بصُمّ الجنادل ، فتضيف بذلك إلى شخصيتها عاملا آخر ، يضاعف مكانها من نفوسهم ؛ ويبسط سلطانها عليهم ، فتصل إلى ما أرادت من طريق قريب ؛ وعلى أحسن وجه ، فمما لا شك فيه أن قوة الشخصية والمقدرة الخطابية تتفاعلان وتتعاونان ، وقد ساعدها على النجاح فيما قصدت إليه بحشد هذا الحشد من العبارات والتشبيهات والاستعارات والتمثيل والصور ، دويّة أتيحت لها ، وإعداد واتتها فرصته ، حينما بلغها ما بلغها ، فأدارت هذه المعانى

فى نفسها ، واختارت لها من الألفاظ أشباهها ، واستحضرت فى ذهنها من الصور والتشبيه والاستعارة مايلائمها ، حتى إذا دعت من دعت فلبوا دعوتها ، خرجت عليهم بتلك الخطبة التى أعدتها فى نفسها وزوّدتها »(١) .

ولأم المؤمنين خطب وأقوال أخرى أثرت عنها ليس فيها مثل هذا الإيغال فى الاستعارات والعبارات النازحة غير المألوفة ، ولا قريب منه ، فالميل إلى السهولة والطبعية والبعد عن التكلف كان السمة الغالبة على خطب العصر وأقواله وقد نشأت رضى الله عنها أسمح نشأة ، فى حمى كهفين للفصاحة ، ومنبعين للبلاغة وفى ظل مدرسة تنشر فى الخافقين لواء الإسلام ، وتجعل القرآن إماماً فى هديه ومثلا فى سماحة أسلوبه ، وقدوة فى نهج بلاغته ، وما نزعت فى خطبتها هذا المنزع إلا وقد ترجّح عندها اختيار الأسلوب المشاكل لذلك الموقف ، لما هى فيه من غضب ودفاع واحتجاج وفخر .

وكتبت إلى معاوية : أما بعد فإنه من عمل بما يسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً .

وقالت : من أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن أرضى الناس بإسخاط الله وكله الله إلى الناس . وقالت : سلوا ربكم حتى الشسع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر . وقالت : يا بنى لا تطلبوا ما عند الله من عند غير الله بما يسخط الله .

وقالت : مكارم الأخلاق عشر تكون فى العبد دون سيده ، وفى الخامل دون المذكور ،وفى المسود دون السيد : صدق الحديث وأداء الأمانة والصدق والصبر فى البأس والتذمم للصاحب والتذمم للجار ، والإعطاء فى النائبة ، وإطعام المسكين ، والرفق بالمملوك ، وبر الوالدين .

---

(١) نفس المصدر ص ٤٠١ .

وقالت : كل شرف دونه لؤم فاللؤم أولى به ، وكل لؤم دونه شرف فالشرف أولى به . وقالت : جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها وقالت : إن لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير كلما خفقت الريح خفقت معها فأف للجبناء فأف للجبناء . وقيل لعائشة : إن قوماً يشتمون أصحاب محمد ﷺ فقالت : قطع الله عنهم العمل فأحب أن لا يقطع عنهم الأجر .

وقيل لها : أى النساء أفضل ؟ فقالت : التى لا تعرف عيب المقال ولا تهتدى لمكر الرجال ، فارغة القلب إلا من الزينة لبعلها ، والإبقاء فى الصيانة على أهلها .

وقالت : إنما النكاح رق فلينظر امرؤ من يرق كريمته .

وقالت : المغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد فى سبيل الله .

ورأت عائشة فى بيت امرأة أثر المغزل فقالت لها : أبشرى بما لك عند الله عز جل ، لو رأيتم بعض ما أعد الله لكم معاشر النساء لما أقررتم ليلا ولا نهاراً ، ما من امرأة غزلت لزوجها ولنفسها ولصبيانها إلا أعطاها الله عز وجل بكل طاقة نوراً حتى ملأت مغزلها ، فإذا ملأت مغزلها أعطاها الله عز وجل بيتاً فى الجنة أوسع من المشرق إلى المغرب ولها بكل ثوب مائة ألف وعشرين ألف مدينة ، وما على ظهر الأرض تسبيح يعدل عند الله من صوت صرير يخرج من مغزل النساء حتى ينتهى إلى العرش له دوى كدوى النحل ويعدل عند الله عز وجل بمنزلة قول لا إله إلا الله عز وجل . بلغوا عنى النساء ما أقول : ما من امرأة غزلت حتى كسبت نفسها إلا استغفر لها سبع سموات وما فيهن من الملائكة . . . إلى أن قالت : أبشروا معاشر النساء مالكن عند الله عز وجل بطاعتكن لبعولتكن وخدمتكن لأولادكن أنتم المساكين فى الدنيا والسابقون إلى الجنة مع أرواح الأنبياء يغفر الله لكن كل ذنب عملتهن ما خلا الكبائر .

وقالت : التمسوا الرزق فى خبايا الأرض . ورأت عائشة رجلا متماوتاً

فقالت : ما هذا ؟ فقالوا : زاهد . قالت : قد كان عمر بن الخطاب زاهداً وكان إذا قال أسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب فى ذات الله أوجع .

ووهبت مالا كثيراً ثم أمرت بثوب لها أن يرقع وتمثلت بهذا المثل ، لا يعجز مسك السوء عن عرف السوء [1] .

وقال أبو سلمة : أنا أفقه من بال فقال ابن عباس : أجل فى المباول . وكان أبو سلمة ينازع ابن عباس فى المسائل ويماريه فبلغ ذلك عائشة فقالت : إنما مثلك يا أبا سلمة مثل الفروج سمع الديكة تصيح فصاح معها ، تعنى أنك لم تبلغ ابن عباس وأنت تماريه .

وقالت : علموا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم .

ولما مات عبد الرحمن بن أبى بكر بالحُبَيْش [2] وقفت عائشة على قبره فقالت :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة   من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكاً   لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

أما والله لو حضرتك لدفنتك حيث مت ولو شهدت لزرتك .

وقالت رحم الله لبيداً كان يقول :

قض اللبانة لا أبا لك واذهب   والحق بأسرتك الكرام الغيب
ذهب الذين يعاش فى أكنافهم   وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

فكيف لو أدرك زماننا هذا : ثم قالت : إنى لأروى ألف بيت له وإنه أقل ما أروى لغيره .

وسمع النبى ﷺ وهى تنشد شعر زهير بن حباب :

---

(١) يضرب هذا المثل فى الذى يكتم لؤمه وهو يظهر .

(٢) الحبيش : جبل بأسفل مكة .

ادفع ضعيفك لا يحل بك ضعفه　　يوماً فتدركه عواقب ما جنى
يجزيك أو يثنى عليك فإن من　　أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

فقال النبي ﷺ : صدق يا عائشة لا شكر الله من لا يشكر الناس .
ورأت عائشة بنات طارق اللواتى يقلن :

نحن بنات طارق　　نمشى على النمارق

فقالت : أخطأ من يقول الخيل أحسن من النساء .

وبعثت عائشة عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية بن أبى سفيان فى حجر بن عدى وأصحابه . فقدم عليه وقد قتلهم فقال له : أين غاب عنك حلم أبى سفيان ؟ فقال : حين غاب عنى مثلك من حلماء قومى وحملنى ابن سمية فاحتملت وكانت عائشة تقول : لولا أنّا لم نغير شيئاً قط إلا آلت بنا الأمور إلى أشد مما كنا فيه لغيرنا قتل حجر ، أما والله إن كان ما علمت لمسلماً حجّاجاً معتمراً . ولما حج معاوية مر على عائشة فاستأذن عليها فأذنت له فلما قعد قالت له : يامعاوية أين كان حلمك عن حجر ؟ فقال لها : ياأم المؤمنين لم يحضرنى رشيد . فقالت له : أمنت أن أخبأ لك من يقتلك ؟ قال : بيت الأمن دخلت ، قالت : يا معاوية أما خشيت الله فى قتل حجر وأصحابه ؟ قال : لست أنا قتلتهم إنما قتلهم من شهد عليهم .

وقدم معاوية المدينة فدخل عليها فذكرت له شيئاً فقال : إن ذلك لا يصلح فقالت : الذى لا يصلح ادعاؤك زياداً ، فقال : شهدت الشهود . فقالت : ما شهدت ولكن ركبت الصليعاء . أى السوءة أو الفجرة البارزة المكشوفة .

ولما أراد معاوية البيعة ليزيد ولده كتب إلى مروان بن الحكم وهو عامله على المدينة فقرأ كتابه وقال : إن أمير المؤمنين قد كبر سنه ودق عظمه وقد خاف أن يأتيه أمر الله تعالى فيدع الناس كالغنم لا راعى لها وقد أحب أن يعلم

علماً ويقيم إماماً ، فقالوا : وفق الله أمير المؤمنين وسدده ليفعل . فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال : كذبت والله يا مروان وكذب معاوية معك ! لا يكون ذلك ، لا تحدثوا علينا سنة الروم كلما مات هرقل قام هرقل . فقال مروان : خذوه : فدخل في بيت عائشة فلم يقدروا عليه . فقال مروان : إن هذا الذي أنزل الله فيه « والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني » فقالت عائشة من وراء حجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري .

ثم كتب بذلك مروان إلى معاوية . فأقبل معاوية و معه خلق كثير من أهل الشام حتى أتى عائشة وهي بالمدينة فاستأذن عليها بعد أن بايع أهل الشام لابنه يزيد فأذنت له وحده ولم يدخل عليها معه أحد وعندها مولاها ذكوان فقالت عائشة : يا معاوية أكنت تأمن أن أقعد لك رجلا فأقتلك كما قتلت أخي محمد بن أبي بكر ؟ فقال معاوية : ما كنت لتفعلين ذلك . قالت : لم ؟ قال : لأني في بيت آمن، بيت رسول الله ﷺ ، ثم قامت عائشة فحمدت الله وأثنت عليه وذكرت رسول الله ﷺ وذكرت أبا بكر وعمر وحضته على الاقتداء بهما والاتباع لأثرهما ثم صمتت ، وأما معاوية فلم يخطب وخاف أن لا يبلغ ما بلغت فارتجل الحديث ارتجالا ، ثم قال أنت والله يا أم المؤمنين العالمة بالله وبرسول الله دللتنا على الحق وحضضتنا على حظ أنفسنا وأنت أهل لأن يطاع أمرك ويسمع قولك ، وإن أمر يزيد قضاء من القضاء ، وليس للعباد الخيرة من أمرهم ، وقد أكد الناس بيعتهم في أعناقهم وأعطوا عهودهم على ذلك ومواثيقهم ، أفترى أن ينقضوا عهودهم ومواثيقهم ، فلما سمعت ذلك عائشة علمت أنه سيمضي على أمره فقالت : أما ما ذكرت من عهود ومواثيق فاتق الله في هؤلاء الرهط ولا تعجل فيهم فلعلهم لا يصنعون إلا ما أحببت ... ثم خرج ومعه ذكوان فاتكأ على يد ذكوان وهو يمشي ويقول تالله إن رأيت كاليوم قط خطيباً أبلغ من عائشة بعد رسول الله .

وسأل مرة بن أبى عثمان مولى عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق السيدة عائشة أن تكتب له إلى زياد وتبدأ به فى عنوان كتابها . فكتبت له إليه بالوصاة به وعنونته إلى زياد بن أبى سفيان من عائشة أم المؤمنين . فلما رأى زياد أنها قد كاتبته ونسبته إلى أبى سفيان سر بذلك وأكرم مرة وألطفه وقال للناس : هذا كتاب أم المؤمنين إلىّ فيه وعرضه إليهم ليقرؤا عنوانه ثم أقطعه مائة جريب على نهر الأبلة (١) وأمره لحفر لها نهراً فنسب إليه .

* * *

وهذه هى الخنساء بنت عمرو السلمى ، لم تخرج كما خرجت هند بنت عتبة مبادرة إلى أحد ، تثأر لقومها ، وتشفى غيظ صدرها ، وتحاد الله ورسوله ، ولكنها خرجت تحارب الشرك ، وتذود عن الإسلام ، وتدافع عن العقيدة وتجاهد فى سبيل الله ، وقالت لأولادها والحرب تبرق والأسنة تلمع :

« يا بنى إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، ووالله الذى لا إله غيره ، إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجّنت حسبكم (٢) ، ولا غيّرت نسبكم (٣) ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم فى حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية ، خير من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » . فإذا أصبحتم غداً فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، ولله على أعدائه مستنصرين » .

---

(١) الأبلة : بلدة على شاطىء دجلة ، البصرة العظمى فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة .

(٢) هجنت حسبكم : خلطت بمفاخركم ما يضع منها .

(٣) غيرت نسبكم : لطخته بعار وغبار .

فلما أن أضاء لهم الصبح باكروا مواقعهم فى حومة الوغى ، فتقدموا إلى الشهادة وهم ينشدون الأراجيز ، وسعوا إلى لقاء ربهم مستبشرين (١) .

وأنشأ أولهم يقول :

يا إخوتى إن العجوز الناصحة　　قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيان واضحة　　فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وإنما تلقون عند الصائحة　　من آل ساسان الكلاب النابحة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة　　وأنتم بين حياة صالحة
أو ميتة تورث غنما رابحة

وتقدم فقاتل حتى قتل ، ثم حمل الثانى وهو يقول :

إن العجوز ذات حزم وجلد　　والنظر الأوفق والرأى المسد
قد أمرتنا بالسداد والرشد　　نصيحة منها وبرا بالولد
فباكروا الحرب حماة فى العدد　　إما لفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عز الأبد　　فى جنة الفردوس والعيش الرغد

فقاتل حتى استشهد ثم حمل الثالث وهو يقول :

والله لا نعصِ العجوز حرفا　　قد أمرتنا حدبا وعطفاً
نصحاً وبراً صادقاً ولطفاً　　فبادروا الحرب الضروس زحفاً
حتى تلقوا آل كسرى لفا　　أو يكشفوكم عن حماكم كشفا
إنا نرى التقصير منكم ضعفاً　　والقتل فيكم نجدة وزلفى

---

(٣) خزانة الأدب ١ / ٣٩٥ .

فقاتل حتى استشهد ، ثم حمل الرابع وهو يقول :

لست لخنساء ولا للأخرم ولا لعمرو ذى السناء الأقدم

إن لم أزد فى الجيش جيش الأعجم

ماض على الهول خضم حضرم

إما لفوز عاجل ومغنم أو لوفاة فى السبيل الأكرم

فقاتل حتى قتل ، فبلغها الخبر فقالت الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

وهى تصور لنا فى خطبتها الصبر والثبات فى عبارات قوية مؤثرة تزين لبنيها ما أعد الله للمسلمين من الثواب فى الآخرة ، والنعيم فى الجنة ، مهونة فى نظرهم شأن الدنيا مُعلية شأن الآخرة ، ونلاحظ أنها فى أسلوبها تقتبس بعض آيات من القرآن الكريم للاستشهاد بها ، وما أجمل اقتباسها فى هذه الخطبة بآيات الصبر والمرابطة فى آل عمران « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » .

ولقد كانت الخنساء صادقة فى عقيدتها ، مؤمنة بدعوتها ؛ فلذلك ترى لكلامها حلاوة الطبع ، وجمال الوقع ، وحسن اللفظ ، وقرب المعنى ، والبعد من الاستكراه ، والتوفيق فى الأداء ، والقدرة على الإثارة ، إلى ما فيه من بلاغة الإيجاز ، والاستغناء بالقليل عن الكثير من الكلام ، فقد ذكرتهم بالإسلام ، والهجرة ، ونقاء النسب ، وثواب المجاهدين وجزاء الصابرين ، ثم دعتهم بعد هذا للقتال .

وكأن الجاحظ قد عنى هذا الكلام وأمثاله بقوله : « وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه ، وكأن الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة ، على حسب نية صاحبه ، وتقوى

قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه . ومنزهاً عن الاختلال . ومصوناً من التكلف ، صنع فى القلب صنيع الغيث فى التربة الكريمة ، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد مالا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة »(١) .

وتلمح دقة أسلوبها ، وجريانه على ما تقتضيه الفنون البلاغية فى إعطائها الكلام فضل تأكيد ، عند ما تقرر بُنُوّتهم لرجل واحد ، لأن هذا الأمر هو الذى يجوز أن يتشكك فيه متشكك ، فجاءت بلام التوكيد مع إن فى قولها : « إنكم لبنو رجل واحد ، ولكنها استغنت عنها عندما قررت بنوتهم لامرأة واحدة » ؛ لأن ذلك مما لا يتشكك فيه الناس عادة ، فقالت : « كما أنكم بنو امرأة واحدة » ، إلى آخر خطبتها البليغة الموجزة .

وقد آثرت الإيجاز هنا لأن المقام يقتضى ذلك فالمقام مقام حرب ودفاع ، والكلمة حينئذ للسيف والرمح ، وليست للقرطاس والقلم ، وكلماتها تعطى من المعانى ما لا يعطى غيرها ، فكلمة « وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم فى حرب الكافرين » تعطى معانى كثيرة فلو أنها ذكرت تفصيل ذلك لطال الأمد ، والوقت كما قلنا وقت مبارزة حربية لا مبارزة كلامية ، وقولها « إن الدار الباقية خير من الدار الفانية » ينطوى تحتها الجنة ونعيمها وما فيها من متع يضيق الحصر عن عدها ، كما ينطوى تحتها حقارة شأن الدنيا وما فيها من متاع الغرور وزخارف الحياة ما لو ذكرت ذلك أيضاً لما اتسع الميدان له ، ولكان التطويل عبثاً وضياعاً .

« وإن كان يبدو من الأوفق - فى رأيى — لو أنها قالت : « ولا هجنت

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٨٣ ، والخطابة ج ١ ص ٤٠٤ .

نسبكم ، ولا غبرت حسبكم ، مكان قولها : « ولا هجنت حسبكم ، ولا غبرت نسبكم » ، وذلك لأن الهجنة والتهجين فى القول والفعل وغيرهما تجىء بمعنى العيب والتعييب ، والقبح والتقبيح ، وهى فى الحسب ما يضع منه ، ولكنها فى النسب النقص الذى يأتى من قبل الأم ، فالهجين اللئيم ، والعربى ولد من أمة ، أو من أبوه خير من أمه [١] .

والنسب هو ذلك الجانب المقدس عند العرب ، كانوا يتفاخرون بصراحته ، ويتهاجون بهجنته ، والخنساء تحدث أبناءها بما حفظته عليهم من المفاخر فى نسبهم ، وما أعلت به من قدرهم بين الناس ، فذكرها الشرف الذى جلبته لهم ، ونفيها عن نفسها وعنهم تهمة النقص الذى كان جائزاً أن يلحقهما من قبلها دون غيرها ، وهو هجنة النسب أليق بهذا المقام ، وأبلغ فى المقال . وإضافتها الهجنة إلى النسب تحقق معنى لا تحققه إضافة التغبير إليه .

ويبقى للحسب بعد ذلك شرفه الذى أرادته ، ويريده الناس لأنفسهم ، حين تذكر نصاعته وتنفى التغبير والتدنيس عنه بقولها ، ولا غبرت حسبكم » .

ولن ينقص قولها قدراً بهذا النقد ، لأنها لم تُرَوِّ فيه ، ولم تعمد إلى تحبير .

بل قالت ذلك ارتجالا دون إعداد سابق [٢] .

---

(١) انظر القاموس المحيط ، مادة « هجن » .

(٢) وانظر الخطابة فى صدر الإسلام ص ٤٠٥ .

نموذج رائع لحفيدة رسول الله تخاطب أهل الكوفة

حدّث ابن أبى طاهر عن خِذام الأسدى ، قال :

قدمت الكوفة سنة إحدى وستين — وهى السنة التى قتل فيها الحسين بن على عليهما السلام — فرأيت نساء الكوفة قياماً يَلتدِمن[١] ورأيت على بن الحسين عليهما السلام وهو يقول بصوت ضئيل قد نحل من المرض : يا أهل الكوفة إنكم تبكون علينا فمن قتلنا غيركم ؟ وسمعت أم كلثوم[٢] بنت على عليهما السلام وهى تقول — فلم أر خَفِرَةً والله أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، وأشارت إلى الناس أن امسكوا ،

---

(١) التدمت المرأة ضربت صدرها حزناً ونوحاً .

(٢) أم كلثوم : هى خطيبة قريش وفصيحتها أم كلثوم بنت على بن أبى طالب عليه السلام . وأمها سيدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله ﷺ . ولدت فى أخريات العهد النبوى وتزوجها عمر فى خلافته وهى حدثة دون البلوغ وما أراد إلا أن يصل نسبه وسببه برسول الله ، وكان رضى الله عنه قد كلم علياً عليه السلام فى أمرها ، فقال على : إنما حبست بناتى على بنى جعفر ، فقال عمر : زوجنيها يا على فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحبتها ما أرصد ، فقال على : قد فعلت ، ثم غدا على بيته وأمر ببرد فطواه ، وقال لأم كلثوم : انطلقى بهذا إلى أمير المؤمنين فقولى له : أرسلنى أبى يقرئك السلام ، ويقول : إن رضيت البرد فأمسكه ، وإن سخطته فرده ، فلما أتت عمر قال : بارك الله فيك وفى أبيك قد رضينا ، قالوا : فرجعت إلى أبيها فقالت : ما نشر البرد ولا نظر إلا إلىّ ، فزوجها إياه فأقامت عنده حتى قتل عنها وولدت منه زيداً ورقية ، ثم خلفته على ابن عمها عوف بن جعفر بن أبى طالب فمات عنها ثم أعقبته على أخيه محمد بن جعفر فمات عنها فخلفته على أخيه عبد الله بن جعفر — بعد أن ماتت عنه أختها زينب — فماتت عنده . وكان موتها هى وابنها زيد فى يوم واحد رضى الله عنهما .

فسكنت الأنفاس وهدأت، فقالت: الحمد لله رب العالمين، والصلاة على جدي سيد المرسلين. أما بعد:

إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم. ألا وهل فيكم إلاّ الصلفُ والشنفُ [١] وملقَ الإماء، وغمز الأعداء وهل أنتم إلا كمرعى على دِمنة [٢]؟ وكفضة على ملحودة [٣]؟ ألا ساءَ ما قدَّمتْ أنفسكمْ أنْ سخِط اللهُ عليكم وفي العذاب أنتم خالدون. أتبكون؟ إي والله فابكوا! وإنكم والله أحرياءُ بالبكاء، فابكوا كثيراً، واضحكوا قليلاً، فلقد فزتم بعارها وشنارها، ولن ترْحضوها بغسل بعدها أبداً [٤] وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، وسيد شباب أهل الجنة، ومنار محجتكم ومِدره حُجتكم [٥]، ومَفْزع نازلتكم، فتعساً ونكساً! لقد خاب السعي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة، لقد جئتم شيئاً إدّاً، تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا. أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم؟ وأي كريمة له أبرزتم؟ وأي دم له سفكتم؟ لقد جئتم بها شوهاء خرقاء، شرّها طلاّع الأرض والسماء، أفعجبتم أن

---

(١) الصلف الكبر والخيلاء والشنف التنكر عمن تعرفه.

(٢) الدمنة أثر الديار أو فضلاتها ينبت عليها مرعى أنيق الشكل مر المذاق وقد شبهوا بها كل شيء يموه لا خير فيه.

(٣) الملحودة القبر ومثل الفضة على الملحودة كمثل مرعى الدمن وهما جميعاً مثل الرجل المنافق.

(٤) رحض الثوب غسله.

(٥) المدره المقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال.

فطرت السماء دماً ! ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ، فلا يستخفنكم المهل ، فإنه لا تحفزه المبادرة [١] ولا يخاف عليه فوت الثأر . كلا إن ربك لنا ولهم لبالمرصاد ؛ ثم ولت عنهم . قال فرأيت الناس حيارى قد ردوا أيديهم إلى أفواههم . ورأيت شيخاً كبيراً من بنى جُعفىّ ، وقد أخضلت لحيته من دموع عينيه ، وهو يقول :

كهولهم خير الكهول ونسلهم إذا عد نسل لا يبور ولا يخزى [٢]

(١) حفزه : أعجله وأزعجه .
(٢) بلاغات النساء ج ٢٧ — ٢٩ .

خطب المناظرة

تكثر خطب المناظرة حين تنقسم الكلمة وتشتد الفرقة وتتسع دائرة الخلاف بين طائفة وطائفة ، أو حزب وآخر ، أو بين فردين كل منهما له وجهة خاصة — فى موضوع ما — والمناظرة قد تشتمل على لون من المنافرات والمفاخرات استطراداً ، فقد يستطرد أحد الفريقين بذكر فضائله أو فضائل قومه إذا عنت له فرصة أثناء المناظرة ، وقد اتسعت المناظرة وامتدت أطرافها حينما اشتد النزاع بين على ومعاوية ، وبين العراقيين والشاميين ، ومن أبلغ خطب المناظرات تلك الخطبة الرائعة التى رواها الرواة للإمام على قالها حين كان الخوارج يخاصمون ابن عباس فقال له الإمام : « انته عن كلامهم ألم أنهك رحمك الله ، ثم حمد الله وأثنى عليه وقال :

اللهم إن هذا مقام من أفلج[١] فيه كان أولى بالفلج يوم القيامة ، ومن نطق فيه وأوعث[٢] فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ثم سألهم عن زعيمهم قالوا : « ابن الكواء » قال على : فما أخرجكم علينا ؟ قالوا حكومتكم يوم صفّين ، قال : أنشدكم بالله أتعلمون أنهم حينما رفعوا المصاحف فقلتم : نجيبهم إلى كتاب الله ، قلت لكم : إنى أعلم بالقوم منكم ، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إنى صحبتهم وعرفتهم أطفالا ورجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال ، امضوا على حقكم وصدقكم ؛ فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة وإدهاناً ومكيدة[٣] .

---

(١) أفلج : فاز وصبر .　　(٢) أوعث : سار فى الوعث ، وهو الصعب .

(٣) الطبرى ٦ : ٢٧ .

ومثل هذه الخطب داخلة فى الخطابة الدينية والسياسية معاً لأنها تعتمد على أصول دينية وتتفرع عن مسائل مذهبية ، وتفرعت منها الخلافات حول المسائل السياسية .

وإذا رأى بعضهم أن هذا اللون داخل فى نطاق الخطابة الاستدلالية التى تعتمد على المدح أو الذم ، وتتجه إلى الحسن والقبح أو الفضيلة والرذيلة فإنها بشىء من التحوير تتحول إلى خطابة استثارة سياسية [١] .

ومن النصفة للأدب العربى وللمرأة العربية ألا نغفل فى هذا المقام ذكر بعض النساء الأديبات فى هذا العصر اللاتى أثر عنهن من المواقف ما لم يضن التاريخ الأدبى بتسجيله ، ولقد كان للحركة الشيعية فضل فى إظهار بعض الشخصيات النسوية المحاربة الموالية لعلى — رضى الله عنه — ولأهل البيت ، وقد امتاز هؤلاء الأديبات الشيعيات فوق جرأتهن وبلائهن فى سبيل العقيدة بمقدرة خطابية لعلها كانت ثمرة ضرورية من ثمار ذلك العهد المقاتل المتنازع الذى اعتمد على قوة السيف من ناحية ، وعلى قوة البيان من ناحية أخرى .

ولقد كانت الحرب بين على ومعاوية أو بين أهل الشام وأهل العراق ، ميداناً فسيحاً لمواهب المحاربين والخطباء حتى لقد كانت امرأة مثل « عكرشة بنت الأطرش متقلدة حمائل السيف فى موقعة صفين المشهورة وهى واقفة بين الصفوف تحض على قتال معاوية فى فصاحة وبلاغة وقوة عارضة ربما لم نرها لبعض البلغاء : « أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » إلى أن تقول « امضوا على بصيرتكم واصبروا على عزيمتكم ، الله الله عباد الله فى دين الله » .

ولم تكن « عكرشة » هى الخطيبة الوحيدة فى الحروب بين على ومعاوية ، فلقد كانت هناك أم الخير بنت الحريش التى طالما ألبت على معاوية وحرضت على قتاله واتهمته بإذكاء الأحقاد الجاهلية التى محاها الإســـلام ودعت

---

(١) الخطابة فى صدر الإسلام ١ / ٤٣٨ .

إلى الإمام العادل عليّ توحيداً للكلمة ، ورأباً لصدع المسلمين ، وكأنى بها وهى على جمل أرمل كلون الرماد وبيدها سوط قد انتشرت ضفائره وهى تهدر كالفحل من الإبل يهدر فى شقشقته : « يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم » .

وكان للزرقاء بنت عدى الهمدانية موقف لا يقل روعة عن موقف أم الخير فى الحث على قتال معاوية حتى أنه لم ينس خطبتها وهى راكبة الجمل الأحمر ، وحين استقدمها من الكوفة بعد أن صارت إليه الخلافة ذكرها بخطبتها التى تقول فيها : « أيها الناس ، ارعووا وارجعوا إنكم قد أصبحتم فى فتنة غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة »[1] .

ولعلنا نلاحظ أن أسلوبهن فى الخطابة اهتدى بنور القرآن سلاسة ووضوح قصد وسمواً فى الغرض ، وإصابة للحقائق واطراداً للأحكام وعذوبة فى اللفظ ، ودماثة فى الأساليب وتآلفاً بين العبارات ، وتباعداً عن الوحشى النافر والسوقى المبتذل ، واللفظ الغريب والسجع المفتعل ، وإيجازاً مع الخاصة وإطالة مع العامة وإيماء للعربى وتصريحاً للأعجمى حتى أنك لترى الآية المقتبسة من القرآن تدخل فى الأسلوب فتعمه نوراً وتفرعه جمالا ، وتكسوه روعة وجلالا ، مع قرب المعانى وصدقها وابتداعها وابتكارها ، وارتياح النفوس إليها فى أحكام[2] مسلمة وحجج باهرة ، وبراهين قاطعة ، وتشابيه رائعة .

ونسوق فيما يأتى بعض ما قالته أم الخير البارقية والزرقاء بنت عدى ، وبكارة الهلالية .

---

(١) الخطب والمواعظ : محمد عبد الغنى حسن ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) الخطابة فى صدر الإسلام ١ : ٤٤٨ .

أم الخير بنت الحريش البارقية ؛ ترد على معاوية

كتب معاوية إلى واليه بالكوفة : أن أوفد علىّ أم الخير بنت الحريش ابن سراقة البارقية ، رحلة محمودة الصحبة ، غير مذمومة العاقبة ، واعلم أنى مجازيك بقولها فيك ، بالخير خيراً ، بالشر شراً . فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فأقرأها إياه ، فقالت أما أنا فغير زائغة عن طاعة ، ولا معتلة بكذب . ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صدرى ، وتجرى مجرى النفس يغلى بها غلى المرجل بحب البُلسُن[١] يوقد بجِذل السمُر[٢] . فلما حملها وأراد مفارقتها قال : يا أم الخير ، إن معاوية قد ضمن لى عليه أن يقبل بقولك فىّ : بالخير خيراً ، وبالشر شراً ، فانظرى كيف تكونين ؟ قالت : يا هذا لا يُطعمك والله برك بى فى تزويق الباطل ، ولا تؤيسك معرفتك إياى أن أقول فيك غير الحق ، فسارت خير مسير . فلما قدمت معاوية أنزلها مع الحرم ثلاثاً ، ثم أذن لها فى اليوم الرابع وجمع لها الناس ، فدخلت عليه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال : وعليك السلام ، وبالرغم والله منك دعوتنى بهذا الاسم ! فقالت مه يا هذا ! فإن بديهة السلطان مُدْحضة لما يجب علمه[٣] . فقال صدقت ياخالة ، وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت لم أزلْ فى عافية وسلامة حتى أوفِدْتُ إلى مُلك جزل وعطاء بذل . فأنا فى عيش أنيق ، عند ملك رفيق ، فقال معاوية : بحسن نيتى ظفرت بكم وأعنت عليكم ، قالت : مه يا هذا ! لك والله من دحض المقال ما تُرْدى عاقبته ، قال ليس لهذا أردناك .

---

(١) البلسن : العدس .

(٢) الجذل : أصل الشجرة بعد ذهاب الفرع ، والسمر شجر من أشجار البادية .

(٣) البديهة : المفاجأة ومدحضة مبطلة .

قالت : إنما أجرى فى ميدانك ، إذا أجريت شيئاً أجريته فاسأل عما بدا لك .
قال : كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر ؟ قالت : لم أكن والله روّيته قبل ولا زوّرته بعد[1] وإنما كانت كلمات نفثهن لسانى حين الصدمة . فإن شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت قال لا أشاء ذلك . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أيكم حفظ كلام أم الخير ؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد ، قال هاته ! قال نعم ، كأنى بها ، يا أمير المؤمنين ، وعليها بُرد زَبيدِىٌّ كثيف الحاشية ، وهى على جمل أرمك[2] وقد أحيط حولها حواء[3] وبيدها سوط مُنتشرُ الضَّفْر ، وهى كالفحل يَهْدِرُ فى شِقشِقته[4] تقول : « يا أيها الناسُ اتقوا ربكم إن زلزلة الساعةِ شىءٌ عظيم » إن الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ، ونور السبيل ، ورفع العلم ، فلم يدَعكم فى عمياءُ مبهمة ، ولا سوداء مُدْلهِمَّة ، فإلى أين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين أم فراراً من المؤمنين ؟ أم فراراً من الزحف ؟ أم رغبة عن الإسلام ؟ أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » . ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى تقول : اللهم قد عيلَ الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشر الرعب ، وبيدك يارب أزِمَّة القلوب فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق إلى أهله . هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والوصى[5] الوفى ، والصِّديق الأكبر

---

(١) رويت فى الأمر : فكرت فيه ، وزورت الكلام زينته .
(٢) الأرمك : الرمادى . (٣) الحواء ما يتخذ كالوسادة على الرحل .
(٤) الشقشقة : شىء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج .
(٥) إنما سمى على عليه السلام بالوصى لقول رسول الله ﷺ له : « أنت منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » فهو بذلك كقول الشيعة — وقد أوصاه بالمسلمين واستخلفه عليهم .

إنها إِحَنٌ بَدْرية[1] وأحقاد جاهلية، وضغائن أُحُدية، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس. ثم قالت: قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون. صبراً معشر الأنصار والمهاجرين. قاتلوا عن بصيرة من ربكم وثبات من دينكم. وكأني بكم غداً لقد لقيتم أهل الشام كَحُمُرٍ مستنفرة لا تدرى أين يسلك بها من فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى، عما قليل ليُصْبِحُنّ نادمين، حتى تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة. إنه والله من ضل عن الحق وقع فى الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل النار، أيها الناس إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها، واستبطئوا مدة الآخرة فسعوا لها والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه. فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته، خلق من طينته، وتفرع من نَبْعَتِهِ، وخصه بسره، وجعله باب مدينته. وعَلَم المسلمين، وأبان ببغضه المنافقين، فلم يزل كذلك يؤيده الله عز وجل بمعونته، ويمضى على سَنَنَ استقامته لا يعرج لراحته الدّأب. ها هو مفلق الهام، ومكسر الأصنام، إذ صلى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون، فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزى بدر، وأفنى أهل أُحد، وفرق جمع هوازن، فيالها من وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقاً، ورِدّة وشقاقاً. قد اجتهدت فى القول وبالغت فى النصيحة، وبالله التوفيق، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

---

(١) الإحن: جمع أحنة — الأحقاد — وبدرية نسبة إلى بدر وهى أولى الوقائع بين المسلمين والمشركين تريد أن معاوية بإثارته الحرب على على إنما ينتقم لمن قتل من آله يوم بدر.

فقال معاوية : والله يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلى ! والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك . قالت : والله ما يسوءنى يا ابن هند أن يجرى الله ذلك على يدى من يسعدنى الله بشقائه . قال : هيهات يا كثيرة الفضول : ما تقولين فى عثمان بن عفان ؟ قالت : وما عسيت أن أقول فيه ؟ استخلفه الناس وهم عنه راضون ، وقتلوه وهم له كارهون . فقال معاوية : إيهاً يا أم الخير ! هذا والله أصلك الذى تبنين عليه[1] قالت : لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً . ما أردت لعثمان نقصاً وإن كان لسباقاً إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة . قال : فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله [2] قالت وما عسى أن أقول فى طلحة ؟ اغتيل فى مأمنه وأتى من حيث لم يحذر ، وقد وعده رسول الله ﷺ الجنة . قال فما تقولين فى الزبير[3] ؟ قالت يا هذا لا تدعنى كرجيع الصبيغ يعرك فى المركن[4] قال

(١) يريد أن سوء رأيها فى عثمان هو الذى دفعها إلى مناصرة على .

(٢) طلحة بن عبيد الله أحد السابقين الأولين والأبطال المعلمين وعاشر عشرة بشرهم رسول الله بالجنة وسادس ستة أختارهم عمر رضى الله عنه ليكون منهم الخليفة من بعده ، وأول صحابى بايع علياً عليه السلام ثم استحال رأيه فخرج عليه وانضم إلى جند عائشة رضى الله عنها يوم الجمل وهنالك أصيب بسهم أودى به رضى الله عنه .

(٣) كان أمر الزبير حيال على شبيهاً بأمر طلحة ، وكان قد انضم أيضاً إلى جند عائشة فأرسل إليه على يذكره بقول رسول الله له « لتقاتلنه — يريد تقاتل علياً — وأنت ظالم له » فانثنى عن الموقعة فراراً من الباطل وعوداً إلى الحق ، فلما انتهى إلى واد يقال له وادى السباع أخذه النوم فاغتاله رجل من مجاشع يقال له عمرو بن جرموز .

(٤) الصبيغ : الثوب المصبوغ ، والعرك الدلك والحك ، والمركن الآنية أى لا تتركنى كالثوب المصبوغ .

حقاً لتقولن ذلك وقد عزمت عليك قالت وما عسيت أن أقول فى الزبير ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه ، وقد شهد له رسول الله بالجنة . ولقد كان سباقاً إلى كل مكرمة فى الإسلام ، وإنى أسألك بحق الله يا معاوية فإن قريشاً تحدث أنك أحلمها ، وأسألك بأن تسعنى بفضل حلمك ، وأن تعفينى من هذه المسائل ، وخذ فيما شئت من غيرها . قال نعم وكرامة ، قد أعفيتك ، وردها مكرّمة إلى بلدها .

بلاغة الزرقاء بنت عدى

سهر معاوية ليلة فذكر الزرقاء بنت عدى بن غالب بن قيس — امرأة كانت من أهل الكوفة ، وكانت ممن يعين علياً عليه السلام يوم صفين ، فقال لأصحابه أيكم يحفظ كلام الزرقاء ؟ فقال القوم كلنا نحفظه يا أمير المؤمنين ، قال فما تشيرون علىّ فيها ؟ قالوا نشير عليك بقتلها ، قال بئس ما أشرتم علىّ به ! أيحسن بمثلى أن يتحدث الناس أنى قتلت امرأة بعد ما ملكت وصار الأمر لى ؟ ثم دعا كاتبه فى الليل فكتب إلى عامله فى الكوفة أن أوفد إلىّ الزرقاء ابنة عدى فى ثقة من محارمها ، وعدة من فرسان قومها ، ومهدها وطاء لينا ، واسترها بستر حصيف [١] . فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فأقرأها الكتاب ، فقالت : أما أنا فغير زائغة عن طاعة . وإن كان أمير المؤمنين جعل المشيئة إلىّ لم أرِم [٢] من بلدى هذا ، وإن كان حكم الأمر فالطاعة له أولى بى ، فحملها فى هودج وجعل غشاءه حبراً مبطناً بعصب اليمن ، ثم أحسن صحبتها فلما قدمت على معاوية قال لها مرحباً وأهلا خير مقدم قدم وافد . كيف حالك ياخالة ؟ وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت خير مسير ، كأنى كنت ربيبة بيت أو طفلا ممهداً . قال : بذلك أمرتهم فهل تعلمين لِمَ بعثت إليك ؟ قالت سبحان الله أنى لى بعلم ما لم أعلم ؟ وهل يعلم ما فى القلوب إلا الله ؟ قال بعثت إليك أن أسألك : ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفين بين الصفين ، توقدين الحرب وتحضين على

---

(١) الوطاء : الفراش اللين ، والحصيف : المحكم النسج . (٢) لم أرم : أى لم أتحرك .

القتال ؟ فما حملك على ذلك ؟ قالت يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس وبُتر الذنب والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر ، قال لها : صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ قالت : ما أحفظه . قال ولكني والله أحفظه ! لله أبوك . لقد سمعتك تقولين : أيها الناس ! إنكم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيالها من فتنة عمياء صماء ، يسمع لقائلها ولا ينظر لسامعها ، أيها الناس ! إن المصباح لا يضيء في الشمس ، وإن الكوكب لا ينفذ في الفخر وإن البغل لا يسبق الفرس ، وإن الزّف لا يوازن الحجر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن استخبرنا أخبرناه ، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها . فصبراً يامعشر المهاجرين والأنصار ؛ فكأن قد اندمل شعث الشتات ، والتأمت كلمة العدل ، وغلب الحق باطله ، فلا يعجلن أحد فيقول كيف وأنّى ليقضيَ الله أمراً كان مفعولا . ألا إن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، «والصبر خير في الأمور عواقباً» . إيهاً إلى الحرب قُدُماً غير ناكصين فهذا يوم له مابعده ، ثم قال معاوية والله يازرقاء لقد شركت علياً عليه السلام في كل دم سفكه . فقالت أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك مثلك من بشر بخير ، وسر جليسه ، قال لها وقد سرك ذلك ؟ قالت نعم لقد سرني قولك . فأنّى بتصديق الفعل ؟ قال معاوية : والله لوفاؤكم له بعد موته أحب إليّ من حبكم له في حياته . أذكرى حاجتك . قالت يا أمير المؤمنين إني قد آليت على نفسي ألا أسأل أميراً أعنتُ عليه شيئاً أبداً[1] . ومثلك أعطى عن غير مسألة وجاد عن غير طلب . قال صدقت ، فأقطعها ضيعة أغلّتها في أول سنة عشرة آلاف درهم وأحسن صفدها ، وردها والذين معها مكرمين .

---

(١) الزف : انظر جمهرة خطب العرب ، الجزء الأول والثاني .

بكارة الهـــلالية

استأذنت بكارة الهلالية على معاوية فأذن لهـا . فدخلت وكانت امرأة أسنت وعشى بصرها ، وضعفت قوتها ، فهى ترعش بين خادمين لها ، فسلمت ثم جلست ، فقال معاوية كيف أنت ياخالة ؟ قالت بخير يا أمير المؤمنين . قالت غيرك الدهر ! قالت كذلك هو ذو غير ، من عاش كبر ، ومن مات قبر . وكان هنالك مروان بن الحكم وعمرو بن العاص ، فابتدأ مروان فقال : ألا تعرف هذه يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن هى ؟ قال : هى التى كانت تعين علينا يوم صفين وهى القائلة :

يا زيد دونك فاستثر من دارنا　　سيفاً حساماً فى التراب دفينا
قد كان مذخوراً لكل عظيمة　　فاليوم أبرزه الزمان مصونا

قال عمرو بن العاص : وهى القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكا　　هيهـــات ذاك وما أراد بعيد
منتك نفسك فى الخلاء ضلالة　　أغراك عمرو للشقا وسعيد
فارجع بأنكد طائر بنحوسها　　لاقت علياً أسعد وسعـــود

فقال سعيد : يا أمير المؤمنين وهى القائلة :

قد كنت آمل أن أموت ولا أرى　　فوق المنابر من أمية خاطبا
فالله أخـّـر مدتى فتطاولت　　حتى رأيت من الزمان عجائبا

في كل يوم لا يزال خطيبهم   وسط الجموع لآل أحمد عائبا

ثم سكت القوم ، فقالت بكارة نبحتنى كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتنى فقصر مِحْجَنِى[1] وكثر عجبى ، وعشى بصرى ، وأنا والله قائلة ما قالوا ، لا أدفع ذلك بتكذيب ، فامض لشأنك ، فلا خير فى العيش بعد أمير المؤمنين فقال معاوية : إنه لا يضعك شىء . فاذكرى حاجتك تقض . فقضى حوائجها وردها إلى بلدها .

وهناك خطيبات كثيرات مثل عكرشة بنت الأطرش وجروة بنت غالب فقد حدث ابن أبى طاهر عن الشافعى ، قال :

دخلت عكرشة بنت الأطرش على معاوية وبيدها عكاز فى أسفله زج[2] مسق ، فسلمت عليه بالخلافة وجلست ، فقال لها معاوية : ياعكرشة ! الآن صرت أمير المؤمنين ! قالت نعم إذ لا علىٌّ حى ، قال ألست صاحبة الكور[3] المسدول والوسط المشدود ، والمتقلدة بحمائل السيف ، وأنت واقفة بين الصفين يوم تقولين « يا أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . إن الجنة دار لا يرحل عنها من قطنها ، ولا يحزن من سكنها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ولا تنصرم همومها ، كونوا قوماً مستبصرين . إن معاوية دافَ إليكم بعُجم غُلف القلوب[4] لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرون ما الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجاب واستدعاهم إلى الباطل فلبوه . فالله الله عباد الله فى دين الله ! وإياكم والتواكل فإن فى ذلك نقض عروة الإسلام ، وإطفاء نور الإيمان ، وذهاب السُّنة

---

(١) اعتورتنى : أى تناوبتنى من كل جانب ، والمحجن : العصا .

(٢) الزج : الحديدة فى أسفل الرمح أو نحوه ويطعن به .   (٣) الكور الرحل

(٤) غلف : جمع أغلف ، والقلب الأغلف الذى كأنما غشى غلافاً فهو لا يعى .

وإظهار الباطل ، هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى . قاتلوا يامعشر الأنصار والمهاجرين على بصيرة من دينكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأني بكم غداً قد لقيتم أهل الشام كالحمر النهاقة والبغال الشحّاجة . تصقع صقع البعير ، وتروث روث العتاق ثم قال معاوية : فوالله لولا قدر الله وما أحب أن يجعل لنا هذا الأمر لقد انكفأ العسكران ، فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين إن اللبيب إذا كره أمراً لم يحب إعادته . قال : صدقت ، اذكرى حاجتك . قالت : يا أمير المؤمنين إن قد رد صدقاتنا علينا ، ورد أموالنا فينا إلا بحقها . وإنا قد فقدنا ذلك فما أعطى فقير ، ولا يجبر لنا كسير فإن كان ذلك عن رأيك فما مثلك من استعان بالخونة واستعمل الظالمين ، قال معاوية : يا هذه إنه تنوبنا أمور هي أولى بنا منكم ، من بحور تنبثق وثغور تنفتق . قالت : ياسبحان الله ! ما فرض الله لنا حقاً جعل لنا فيه ضرراً على غيرنا ما جعله لنا وهو علام الغيوب ، قال معاوية هيهات يا أهل العراق فقد فقهكم ابن أبي طالب فلن تطاقوا ، ثم أمر لها برد صدقتها وإنصافها وردها مكرمة .

جروة بنت غالب

احتجم معاوية بمكة ، فلما أمسى أرق أرقاً شديداً ، فأرسل إلى جروة بنت غالب التميمية — وكانت مجاورة لمكة ، وهي من بنى أسد بن عمرو ابن تميم — فلما دخلت قال لها : مرحباً ياجروة ، أرعناك ؟ قالت : إي والله يا أمير المؤمنين ، لقد طرقت فى ساعة لا يطرق فيها الطير فى وكره ، فأرعت قلبي ، وريع صبياني ، وأفزعت عشيرتي ، وتركت بعضهم يموج فى بعض ، يراجعون القول ويديرون الكلام خشية منك وشفقة عليّ . فقال لها : ليسكن روعك ، ولتطب نفسك ، فإن الأمر على خلاف ما ظننت ، إني احتجمت فأعقبني ذلك أرقاً ، فأرسلت إليك تخبريني عن قومك .

قالت : عن أي قومي تسألني ؟ قال : عن بنى تميم . قالت : يا أمير

المؤمنين هم أكثر الناس عدداً ، وأوسعه بلداً وأبعده أمداً . هم الذهب الأحمر ، والحسب الأفخر قال : فنزّلهم لى ، قالت : يا أمير المؤمنين أما بنو عمرو بن تميم فأصحاب بأس ونجدة ، وتحاشد وشدة ، لا يتخاذلون عن اللقاء ، ولا يطمع فيهم الأعداء ، سلمهم فيهم ، وسيفهم على عدوهم . قال : صدقت ، ونعم القول لأنفسهم ، قالت : وأما بنو سعد بن زيد مناة ففى العدد الأكثرون ، وفى النسب الأطيبون . يضربون إن غضبوا ويدركون إن طلبوا ، أصحاب سيوف وحجَف (١) ونزال وزَلف(٢) ، على أن بأسهم فيهم ، وسيفهم عليهم وأما حنظلة فالبيت الرفيع ، والحسب البديع والعز المنيع المكرمون للجار ، والطالبون بالثار ، والناقضون للأوتار . قال : إن حنظلة شجر تفرع ، قالت : صدقت يا أمير المؤمنين . وأما البراجم فأصابع مجتمعة ، وكف ممتنعة ، وأما طهية فقوم لُهوج وقِرنٌ لجَوج . وأما بنو ربيعة فصخرة صماء ، وحية رقشاء يغزون لغيرهم ، ويفخرون بقومهم ، وأما بنو يربوع ففرسان الرماح ، وأسود الصباح يعتنقون الأقران ، ويقتلون الفرسان . وأما بنو مالك ، فجمع غير مفلول . وعز غير مجهول ، ليوث هرّارة ، وخيول كرارة ، وأما بنو دارم ، فكرم لا يدانى ، وشرف لا يسامى ، وعز لا يوازى ، قال : أنت أعلم الناس بتميم . فكيف علمك بقيس ؟ قالت : كعلمى بنفسى . قال : فخبرينى عنهم ، قالت : أما غطفان ، فأكثر سادة ، وأمنع قادة . وأما فزارة ، فبيتها المشهور وحسبها المذكور . وأما ذبيان ، فخطباء شعراء أعزة أقوياء . وأما عبس ، فجمرة لا تطفأ ، وعقبة لا تعلى ، وحية لا ترقى ، وأما هوازن فحلم ظاهر ، وعز قاهر . وأما سُليم ، ففرسان الملاحم ، وأسود ضراغم . وأما نمير ، فشوكة مسمومة ، وهامة مذمومة ، وداية ملمومة ، وأما هلال ،

---

(١) الحجف — جمع حجفة — التروس من جلد بلا خشب .

(٢) الزلف : الإقدام .

قاسم لحم ، وعز ضخم ، وأما بنو كلاب ، فعدد كثير ، وفخر أثير قال : لله أنت ! فما قولك فى قريش ؟ قالت : يا أمير المؤمنين هم ذروة السّنام ، وسادة الأنام ، والحسب القمقام قال : فما قولك فى على — عليه السلام — قالت : حاز والله فى الشرف حداً لا يوصف ؛ وغاية لا تعرف ، وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائى مما أتخوف . قال : قد فعلت ، وأمر بضيعة غلتها عشرة آلاف درهم .

ونلاحظ أن أسلوب الخطيبات هو الأسلوب الذى يساوق الطبع ويوائم السليقة ، ولا يعتسف فى لفظ أو فكر أو خيال ، فهو لين هادىء أو ثائر عاصف على حسب المقتضيات ووفقاً الأحوال ، مع وضوح اللفظ ، وسهولة فى الأسلوب ، والانسجام التام فى بناء الكلمات ، وترك السجع المرذول وهجر الوحشى والبعد عن التكلف ، والإيجاز فى موضوع الإيجاز والإطناب فيما يستدعى الإطناب والإكثار (١) .

كما نلاحظ أن الخطيبات وبخاصة الشيعيات كانت خطبهن تقوم على الإقناع والتأثير فى النفوس مدعمات خطبهن بأدلة عقلية ونقلية ، فيستشهدن بالقرآن الكريم وأحياناً بالشعر ومأثور الكلام من حكمة ومثل ، كما فى خطبة عكرشة بنت الأطرش ، فإننا نرى الآيات القرآنية تشع فى جوانبها وتتلألأ فى ثناياها « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ، « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » وقد بدأت خطبتها بالنداء : يا أيها الناس لتحرك الأذهان الغافلة وتنبه العقول النائمة كما تشعرهم بالعبء الثقيل الملقى على كاهلهم وأنفسهم فتدفعهم دفعاً إلى إصلاح أخطائهم ، والإفاقة من الضلال « فالله الله عباد الله فى دين الله » ، ثم تزين لهم أجر الجهاد وهو الجنة فى أسلوب

---

(١) الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام ، مؤسسة ومكتبة خدمة العلم - الرياض

التوكيد لتحفزهم إلى التضحية بأرواحهم وأموالهم « إن الجنة لا يرحل من أوطنها ، ولا يهرم من سكنها ولا يموت من دخلها فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ولا تنصرم همومها .

كما تحذرهم من التواكل فى استعارات جميلة : « إياكم والتواكل ؛ فإن ذلك ينقض عرا الإسلام ، ويطفىء نور الحق ، كما تسوق التشبيهات الرائعة ، فتشبه موقعة « صفين » بموقعة من زعموا أن هذه الموقعة التى يخوضها أنصار علىّ ، فى موقعة صفين تشبه أيضاً بيعة العقبة حين بايع المسلمون الأولون من الأنصار النبى ﷺ ، وعاهدوه أن ينصروه بأموالهم وأنفسهم ، أى أن هذه الموقعة دفاع عن الإسلام ونصرة له كتلك .

ثم تعرج فى آخر خطبتها إلى النداء كذلك فى أسلوب إنشائى خلاّب تعقبه تشبيهات مثيرة لتهيج حميتهم وتشعل حماسهم ضد معاوية : « يا معشر المهاجرين والأنصار امضوا على بصيرتكم واصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة تصقع صقع البقر .

كما نلاحظ أن « أم الخير بنت الحريش » تبدأ خطبتها بالأمثال الحكيمة والحكم السائدة لتشعر معاوية بأن حكمها عليه ، حكم صحيح مسلم لا يقبل النقض والإبرام « إن بديهة السلطان مدحضة » ولكل أجل كتاب » .

وضمنت خطبتها استشهادات من القرآن الكريم كسائر الخطيبات الشيعيات « اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم » ، « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » ، « قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » ، وإن هذا الموقف الرهيب بين يدى حاكم قوى كمعاوية لم يحل بينها وبين قول الحق ، والجهر بالرأى القويم ، وإصابة سواء المفصل وإقناع معاوية بالحجة والبرهان ، كما نستنبط من حديثها مع معاوية أنها خطيبة قد أوتيت من

قوة العارضة وبلاغة المنطق والتلاعب بالألفاظ ما لم تؤته خطيبة أخرى فهى تستطيع بقوتها الخطابية أن تجعـل الحق باطلا والباطل حقاً ، وأن تخلب ببلاغتها أمة بأسرها ، يدل على هذا ما قالته لمعاوية حينما عنفها على قولها خطبتها التى أيدت فيها الإمام علىّ « إنها كلمات نفثها لسانى عند الصدمة فإن أحببت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت » ، وهذا يدل على قدرتها الخطابية الخارقة العجيبة .

وحينما ننتقل إلى خطبة الزرقاء بنت عدى نرى فيها من سمو التعبير ، وعظمة التأثير ، ما يهز القلوب ، ويملك على عقل الإنسان كل منافذه وأبوابه ، فى منطق منسق وحجج متدافعة متدفقة كما نجدها تضمن نثرها وخطبها آيات من القرآن الكريم وأمثلة وحكما تتألق من خلال أقوالها تألق الدرر ، فى اتساق عجيب ، ونسق بهيج لقولها : « والدهر ذو غير ، من تفكر ابصر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ، والصبر خير فى الأمور عواقبا » ، وما أروع استعاراتها فى قولها : « إنكم قد أصبحتم فى فتنة غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيالها فتنة عمياء صماء بكماء ، لا تسمع لناعقها ، ولا تنساق لقائدها ، وفى قولها إن المصباح لا يضىء فى الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر تشبيه ضمنى لسيدنا على بالشمس والقمر وقد أخذهما أبو العلاء المعرى فقال :

يوجج فى شعاع الشمس ناراً   ويقـــدح فى تلهبها زناداً

وفوق ذلك كله تتميز خطبهن بصحة الألفاظ واستقامة الأساليب وبلاغتها ، وقوة المنطق وصدق الحجة إلى ترتيب الأفكار وتنسيق الحجج ، وإلى إصابة المحز وبلوغ الهدف ، كل ذلك يعد من خصائص بلاغة هؤلاء الخطيبات ، وروعة نثرهن . وروح نثرهن والجو الذى يسيطر عليه والتأثرات المختلفة فيه ترشد إلى أثر الإسلام والقرآن فى بلاغة النساء [1] كما قدمنا ذلك فيما سبق .

(١) الحياة الأدبية : ٦٠

أســـلوب المتحاورات

يفسر علماء اللغة المحاورة بأنها مراجعة الكلام ، يقال حاورته أى راجعته الكلام ، وتحاور القوم أو الجماعة راجعوا الكلام بينهم فمادة المحاورة تدور حول الرجوع ، ويفرق علماء اللغة بين المحاورة والمجادلة ، إذ المجادلة تتطلب اللدد فى الخصومة ، ومايكون فى نحو من ذلك ، ولكنها فى كل صورها تدور حول التخاصم بالكلام .

وأما المحاورة فهى مجرد مراجعة الكلام بين المتكلمين ولا تلزم فيه صور الخصومة ، وإنما تغلب عليها صور الكلام المتبادل بين الطرفين فى أسلوب لاتقصد به الخصومة فى حد ذاتها أو لا يراد به بالضرورة الاتجاه إلى الخصومة .

وهذه التفرقة بين المدلولين إنما استقاها اللغويون بطبيعة الحال من تتبع الاستعمال العربى ، وإذا ذهبنا إلى القرآن الكريم فى استعماله للفظين نجد فيه هذه التفرقة ، وذلك فى قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما »[١] .

فحديث المرأة عن زوجها كان خصومة ، ولذلك كان التعبير بالمجادلة ، ولكن حديثها مع النبى صلى الله عليه وسلم كان مراجعة للكلام ، ولذلك كان تعبيره بالمحاورة[٢] .

ونلاحظ أن المحاورة التى وردت بين معاوية والخطيبات الشيعيات أنصار على كانت من قبيل المحاورة لأنه كان مراجعة فى الكلام والغرض منه الوصول إلى الحق الذى يعتقده كل طرف .

---

(١) أول سورة المجادلة .

(٢) أسلوب المحاورة ، دكتور عبد الحليم حفنى ص١١ ، ١٢

والحوار من ألوان الخطابة ، ويعد أعلى مراتب الكلام ، وأوعر مسالك القول فالفضل فيه مذكور لصاحبه ، والإحسان شاهد لربه ولذلك يقل فيه أثر الصنعة ويكون الاعتماد فيه على الطبع والدربة والحوار يكشف عن طاقة بلاغية ومقدرة خطابية ، وبديهة وارتجال ، لأن الجانبين كليهما يقولان فيما لم يعدا له ، ويفاجىء كل منهما صاحبه بما لم يعلمه ، ومن كان عند البديهة والارتجال قادراً على الإجادة والإحسان فهو عند الروية والسعة أكثر قدرة وأرفع فى الفصاحة قمة ، وقد قوى فن الخطابة وازدهر بالحوار والجدل ومحاولة الإقناع فى الدين والسياسة والخصومات المختلفة ، وكان أن اتبع الخطباء فى هذا سبل القرآن وحاكوا أساليبه فى إيراد الحجج الخطابية وسوق الأدلة المقنعه وعرض القضايا المنطقية السليمة . وقد أصبح هذا اللون قسما ضخماً من أقسام الخطابة الإسلامية يمكن أن ينسب إليه جانب كبير من النهضة الخطابية ، وهذا ما مهد لقيام الخطابة الاستشارية السياسية ، ولم تكن معروفة قبل الإسلام بمفهومها الواضح الصحيح ، وماكان قريباً منها فى بعض منازعات الجاهليين فإنه لم يكن شيئاً يذكر لأنه كان يتمثل فى صورة غامضة من القول فى الخصومات البدوية تتراءى فى ثوب المفاخرة والمناظرة المصطنعة بالعصبية القبلية من غير ملامح واضحة أو كيان متميز يميزه كأسلوب المحاورة والمناظرة التى ظهرت فيما بعد فى لون متميز .

ومن صفات المحاور أن يكون لبقاً مرناً ذا كياسة وذكاء وحذق يدعم رأيه بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ، وأن يكون ذا أسلوب رقيق سلس يستولى به على قلوب محاوريه ، وينتزع منهم إقناعهم وإعجابهم ، وكذلك كان شأن النساء المحاورات مع معاوية ، كسودة بنت عمارة الهمدانية ، وأم سنان بنت خيثمة ، وبكارة الهلالية ، وأروى بنت الحارث وأم البراء بنت صفوان والحجونية كما يظهر فى أدبهن الاعتداد بالرأى ، والاعتزاز

بالنفس ، والجـــرأة فى الحق مهما كلفهن ذلك من ثمن ، نرى ذلك ونلاحظه فى رد سودة بنت عمارة على معاوية معللة خروجها ضده بحب الإمام على وآل بيته ، حينما قال لها ما حملك على ذلك ؟ قالت : « حب على عليه السلام واتباع الحق » .

وكثيراً ما تدعم المحاورات محاورتهن بالاستشهاد بالشعر كقولها متمثلة بقول الخنساء فى موقف الدفاع عن أخيها :

وإنّ صخراً لتأتم الهداة به كأنه عـــلم فى رأسه نار

ثم أخذت تشكو إلى معاوية ظلم بسر بن أرطأة وأنه أعمل فى قومها الظلم والقسوة ، فحصدهم حصاد السنابل وداس على أجسامهم دوس البقر واستولى على أموالهم ، وقتـــل أغلب رجالهم ؛ ثم أخـذت تمدح الإمام علياً بأبيات ساقتها :

صلى الإله على جسم تضمنه قبر فأصبح فيه العـدل مدفوناً

قد حالف الحق لايبغى به بدلا فصار بالحق والإيمان مقروناً

وفى آخر المحاورة تصف رقة قلب الإمام على وبكاءه من أجل نصرة المظلومين والتفانى فى سبيل رد الحق إليهم

وسودة فى محاورتها كسائر الشيعيات المحاورات تمثل نزعة جديدة قوية ، وجرأة خارقة فى سبيل نصرة الحق والمبدأ والعقيدة فى ألفاظ رصينة وعبارات قوية جزلة تمثل شجاعة القلب ومضاء العزيمة تتدافع وتتدفق ، تجللها حرارة الإيمان وتسيطر عليها روح الحب للإمام على رضى الله عنه .

وفى محاورة أم سنان نرى استشهادها بالشعر ما بين الفينة والفينة كطبيعة أسلوب محاورة الشيعيات فى هـذه الفترة ، وتتلألأ فى محاورتها صور من

من الاستعارات والتشبيهات والكنايات التى تملك شغاف القلوب وتأسر المشاعر ، فهى تصور الإمام عليا وقد أحاط به أصحابه من كل جانب ، كالهلال تحيط به النجوم من كل ناحية وهكذا فى كل صورة من صورها البيانية ، لا ترى إلا سحر بيان وإبداع صوغ وتحليق خيال ، كما يظهر فى المحاورة أثر الثقافة الإسلامية وما تطبعه فى نفس الفرد من قيم عظيمة يدافع عنها بدافع من دينه وعقيدته ، فقد تصدت لمروان لأنه لا يحكم بعدل ولا يقضى بسنة ويتتبع عورات المسلمين ويكشف سوءات المؤمنين فى دفاع مرير وإصرار عنيد وتلك هى سمة المتشيعات لآل على : تراهن يصدعن بالحق دون خوف من حاكم أو خشية من آمر تسيطر ، عليهن روح الحماسة التى تفضى فى النهاية إلى غايتها من الإثارة والتأثير وتنتهى إلى غرضها من الاستجابة والانقياد .

كما رأينا بكارة الهلالية شجاعة جريئة تدخل على معاوية وتحاوره فى رباطة جأش وثبات قلب تنطق بالحكمة السائرة « الدهر ذو غير ، من عاش كبر ، ومن كبر قبر » .

كما قدمت لنا صوراً مختلفة من ألوان البيان الرائعة « نبحتنى كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتنى » ، « فقصر محجنى ، وكثر عجبى ، وعشى بصرى » .

كما تمثلت باستشهادات شعرية مختلفة مما زاد الحوار جمالا وتأثيراً ، كما تبدو فيها حلاوة الازدواج والموازنة بين الألفاظ والجمل فى عبارات سهلة وأساليب مختارة برئت من كل صنعة وزخرف وتكلف ، وقصدت إلى غايتها من أقرب طريق فى تنوع يضفى عليها حلاوة الجدة ويكسبها مزيداً من التشويق والتأثير ما جعل معاوية يتأثر بأسلوبها ويبعثها مكرمة مجازاة إلى بلدها .

ومحاورة أروى بنت الحارث تتسنم ذروة البلاغة بما قبست فى خطبتها من أضواء القرآن الكريم ، وأخذت من سنائه ورشفت من رحيقه والذى

يطالع خطبتها يحس الأثر الواضح للبيان القرآنى والاقتباسات المضيئة من آياته فيتجلى ذلك فى قولها : « وكانت كلمتنا هى العليا ، ورد الحق إلى أهله ولو كره المشركون » .

كما استشهدت بأبيات شعرية فى غير موضع من الخطبة كعادة الخطيبات الشيعيات ، واشتملت الخطبة على تعنيف معاوية لانتزاعه السلطة من يد الإمام على ، وأخذه غير حقه من غير جدارة واستحقاق ، ثم أخذت تمدح الإمام وتضفى عليه هالات المدح والسناء ، وأنه بعد النبى ﷺ بمنزلة هارون من موسى وفرقت بين غايتى على ومعاوية ، وأن غاية الإمام الجنة وغاية معاوية النار ، ولقد بلغت بها جرأتها النادرة ، وشجاعتها الفذة أن شتمت معاوية ولم ترهب سطوة السلطان ، وهيبة الحكم لرباطة جأشها ، ولذلك جاءت خطبتها آية فى البلاغة لأن آلة البلاغة كما يقول أبو هلال العسكرى رباطة الجأش فان الحيرة والدهش يورثان الحبسة والحصر وهما سبب الارتاج والإجبال[١] ولذا فان معاوية رغم شتائمها ، قد سحرته بلاغتها ، وقوة منطقها ، ووفرة التضمين من القرآن الكريم والشعر العربى الجيد ، وأمر لها بستة آلاف دينار .

وفى هذا المجال تبرز أيضاً شجاعة أم البراء بنت صفوان تحاور معاوية فى شجاعة خارقة وبلاغة نادرة رغم ضعفها ومرضها حتى شهد لها معاوية ببلاغة منطقها ، وقوة حجتها حيث قال لها عقب خطبتها له : « قاتلك الله ما تركت مقالة لقائل » وسر بلاغتها يرجع كما قدمنا إلى اقتباسها من القرآن واستدلالها بآيات منه فى معرض اعتذارها أمام معاوية كقولها : « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، واستشهادها بالشعر العربى الجيد فى معرض الحماسة والتهييج كقولها :

---

(١) الصناعتان ١٤، ١٥ .

يا ليتني أصبحت غير قعيدة فأذب عنه عساكر الفجار

وكقولها في بكاء الإمام علي :

الشمس كاسفة لموت إمامنا خير الخلائق والإمام العادل

ومما يمتاز به أسلوب الخطبة ذلك الوضوح الذي يكشف عن قصدها في غير تعمية ولا تضليل ، وتلك الصراحة الشجاعة في غير مواربة أو نفاق .

وما أحسن محاورة دارمية الحجونية حيث تعلل لحبها للإمام علي بن أبي طالب تعليلا لطيفاً يقوم على الحجة والبرهان والمنطق « لعدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ولحبه المساكين ، وإعظامه لأمر الدين .

كما عللت كراهيتها لمعاوية . وأرجعت ذلك — في نظرها — إلى سفكه للدماء وشق عصا الطاعة ، والجور في القضاء والحكم بالهوى . وأسلوبها يجنح إلى السجع المحبب أحياناً وإلى الازدواج والموازنة تارة أخرى ، كما يشيع في محاورتها ضرب الأمثال الحكيمة « ماء ولا كصداء » ، « ومرعى ولا كالسعدان » وهذا ما يميز اسلوب الخطيبات الشيعيات بوجه خاص كما بينا فيما تقدم .

المتحاورات مع معاوية

﴿ محاورة سودة بنت عمارة ﴾

وفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية ، على معاوية بن أبي سفيان ، فاستأذنت عليه فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت ، فقال لها . كيف أنت يابنة الأشتر ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال لها : أنت القائلة لأخيك يوم صفين :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الأقران

وانصر عليا والحسين ورهطه ... واقصد لهند وابنها بهوان

إن الإمام أخو النبي محمدٍ ... علم الهدى ومنارة الإيمان

فقُدِ الجيوش وسر أمام لوائه ... قدماً بأبيضَ صارم وسنان[1]

قالت : إي والله ، ما مثلي من رغب عن الحق ، أو اعتذر بالكذب ، قال لها : فما حملك على ذلك ؟ قالت . حب عليّ عليه السلام ، واتباع الحق ، قال : فوالله ما أرى عليك من أثر عليّ شيئاً ، قالت : أنشدك الله يا أمير المؤمنين وإعادة ما مضى ، وتذكار ما قد نسي ، قال : هيهات ! ما مثل مقام أخيك يُنسى ، وما لقيت من أحد ما لقيت من قومك وأخيك ، قالت : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، وماكان أخي خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وإن صخراً لتأتمُّ الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار[2]

---

(١) القدم : الشجاع ؛ وفي بلاغات النساء : « فقد الحتوف وسر أمام لوائه » .

(٢) العلم : الجبل .

قال : صدقتِ ، لقد كان كذلك ، فقالت : مات الرأس وبتر الذنب ، وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائى مما استعفيت منه ، قال : قد فعلت ، فقولى حاجتك ، قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سيداً ، ولأمورهم متقلداً ، والله سائلك عن أمرنا وما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ، ويبسط سلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبل ، ويدوسنا دياس[1] البقر ، ويسومنا[2] الخسيسة ، ويسلبنا الجليلة ، هذا ابن أرطأة[3] قدم بلادى ، وقتل رجالى ، وأخذ مالى ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فإما عزلته عنا فشكرناك ، وإما لا ، فعرفناك ، فقال معاوية : إياى تهددين بقومك ؟ والله لقد هممت أن أحملك على قتب[4] أشرس فأردك إليه ، ينفذ فيك حكمه ، فأطرقت تبكى ، ثم أنشأت تقول :

صلى الإله على روح تضمنه ... قبر فأصبح فيه العدل مدفوناً
قد حالف الحق لا يبغى به ثمناً ... فصار بالحق والإيمان مقروناً

---

(١) الدوس والدياس والدياسة : الوطء بالرجل .

(٢) يسومنا : أى يذيقنا الخسيسة .

(٣) هو بسر بن أرطاة ، وقيل ابن أبى أرطاة ، وكان معاوية فى أيام على سيره إلى الحجاز واليمن ليقتل شيعة على ويأخذ البيعة له ، فسار إلى المدينة، ففعل بها أفعالا شنيعة ، وسار إلى اليمن ؛ وكان عليها عبيد الله بن العباس من قبل على ، فهرب عبيد الله فنزلها بسر ، وذبح عبد الرحمن وقثم ابنى عبيد الله وهما صغيران بين يدى أمهما عائشة بنت عبد المدان ؛ فأصابها من ذلك حزن عظيم ؛ فأنشأت تقول :

يا من أحس بنيي اللذين هما ... كالدرتين تشظى عنهما الصدف
يا من أحس بنيي اللذين هما ... سمعى وقلبى ؛ فقلبى اليوم مختطف
يا من أحس بنيي اللذين هما ... مخ العظام ، فمخى اليوم مزدهف

(٤) القتب : الإكاف الصغير على قدر سنام البعير .

قال : ومن ذلك ؟ قالت : علىّ بن أبى طالب ، رحمه الله تعالى ، قال : وما صنع بك حتى صار عندك كذلك ؟ قالت : أتيته يوماً فى رجل ولّاه صدقاتنا ، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين ، فوجدته قائماً يصلى ، فانفتل من الصلاة ، ثم قال برأفة وتعطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء ، فقال : اللهم إنك أنت الشاهد علىّ وعليهم ، إنى لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا تركِ حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : « قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان بالقسط[١] ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا[٢] فى الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ » إن أتاك كتابى هذا فاحتفظ بما فى يدك من عملنا ، حتى يأتى من يقبضه منك والسلام » .

فأخذته منه والله ما خزمه بخزام ، ولا ختمه بختام[٣] فقرأته ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها ، فقالت : ألىّ خاصة ، أم لقومى عامة ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هى والله إذن الفحشاء واللؤم ، إن لم يكن عدلا شاملا ، وإلا يسعنى ما يسع قومى ، قال : هيهات ! لمّظكم[٤] ابن أبى طالب الجرأة على السلطان فبطيئاً ماتفطمون ، وغركم قوله :

---

(١) القسط : العدل .
(٢) عثا يعثو عثوا : أفسد .

(٣) الخزام : جمع خزامة بالكسر ، وهى فى الأصل : حلقة تجعل فى أحد جانبى منخرى البعير ، وخزامة النعل : سير رقيق يخزم بين الشراكين ، الختام : الطين يختم به على الشىء ، (والخاتم : ما يوضع على الطينة) .

(٤) التلمظ : التذوق ، وأن يحرك الإنسان لسانه فى فمه بعد الأكل ، يتتبع به بقية من الطعام بين أسنانه ، ويخرجه فيمسح به شفتيه ، واسم ما بقى فى الفم اللماظة بالضم ، ويقال : لمظ فلاناً (بالتشديد) لماظة : أى شيئا يتلمظه ، ولمظه من حقه .

فلو كنت بوّاباً على باب جنة ... لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقوله :

ناديت همدان والأبواب مغلقة ... ومثل همدان سنّى فتحة الباب

كالهندوانىّ لم تفلل مضاربه ... وجه جميل وقلب غير وجاب

أكثبوا لها ولقومها[١] .

محاورة أم سنان بن خيثمة

حبس مروان بن الحكم، وهو والى المدينة ، فى خلافة معاوية ، غلاماً من بنى ليث فى جناية جناها ، فأتته جدة الغلام ، وهى أم سنان بنت خيثمة[٢] المذحجية ، فكلمته فى الغلام فأغلظ لها مروان ، فخرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانتسبت فعرفها ، فقال لها : مرحباً بك يابنة خيثمة ، ما أقدمك أرضنا ، وقد عهدتك تشتمييننا[٣] وتحضين علينا عدونا ؟ قالت : إن لبنى عبد مناف أخلاقاً طاهرة ، وأعلاماً ظاهرة ، وأحلاماً وافرة ، ولا يجهلون بعد علم ، ولا يسفهون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أولى الناس باتباع ما سن آباؤه لأنت ، قال : صدقتِ ، نحن كذلك فكيف قولك :

عزب الرقاد ، فمقلتى لا ترقدُ ... والليل يصدر بالهموم ويوردُ[٤]

ياآل مذحج ، لا مقام، فشمروا ... إن العدو لآل أحمد يقصد

---

(١) العقد الفريد ١ : ١٢٩ ، وبلاغات النساء ص ٣٥ .

(٢) فى صبح الأعشى « جشمية » ، وهو تحريف : وتحريره : ماذكرنا .

(٣) وفى بلاغات النساء : « أشنئين قربى » أى تبغضين .

(٤) عزب : بعد .

هذا عليّ كالهلال تحفه ... وسط السماء من الكواكب أسعد[1]
خير الخلائق وابن عم محمد ... إن يهدكم بالنور منه تهتدوا
ما زال مذ شهد الحروب مظفراً ... والنصر فوق لوائه ما يفقد

قالت : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خلفاً بعده ، فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهي القائلة :

إما هلكت أبا الحسين فلم تزل ... بالحق تعرف هادياً مهدياً
فاذهب، عليك صلاة ربك مادعت ... فوق الغصون حمامة قمرياً[2]
قد كنت بعد محمد خلفاً كما ... أرضى إليك بنا ، فكنت وفياً
واليوم لا خلف يؤمل بعده ... هيهات نأمل بعده إنسياً

قالت : يا أمير المؤمنين لسان نطق ، وقول صدق ، ولئن تحقق فيك ما ظنناه ، لحظك الأوفر ، والله ما أورثك الشنآن في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ، فأدحض مقالتهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قرباً ، ومن المؤمنين حباً . قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : يا سبحان الله ، والله ما مثلك من مدح بباطل ، ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا ، وضمير قلوبنا ، كان والله علي أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك ، قال : ممن ؟ قالت : من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص . قال : « وبمَ استحققت ذلك عندك ؟ قالت بسعة حلمك ، وكريم عفوك ، قال : وإنهما يطمعان في ذلك ؟ قالت : هما والله لك من الرأي على مثل ما كنت عليه لعثمان

---

(١) سعود النجوم عشرة : سعد بلع (بضم ففتح) وسعد الأخبية ، وسعد الذابح ، وسعد السعود ، وهذه الأربعة من منازل القمر

(٢) القمري : ضرب من الحمام .

ابن عفان رحمه الله تعالى . قال : والله لقد قاربت ، فما حاجتك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين إن مروان تبنّك بالمدينة تبنّك من لا يريد منها البراح ، لا يحكم بعدل . ولا يقضى بسنة ، يتتبع عثرات المسلمين ، ويكشف عورات المؤمنين ، حبس ابن ابنى ، فأتيته ، فقال : كيت وكيت ، فألقمته أخشن من الحجر ، وألعقته أمرّ من الصبر . ثم رجعت إلى نفسى بالّلائمة ، وقلت : لم لا أصرف ذلك إلى من هو أولى بالعفو منه ، فأتيتك يا أمير المؤمنين لتكون فى أمرى ناظراً ، وعليه مُعدِياً ، قال : صدقتِ ، لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا لها بإطلاقه . قالت : ياأميرالمؤمنين ، وأنّى لى بالرجعة ، وقد نفِد زادى ، وكلت راحلتى ، فأمر لها براحلة موطأة ، وخمسة آلاف درهم(١) .

محاورة أروى بنت الحارث بن عبد المطلب مع معاوية

دخلت أروى بنت الحرث بن عبد المطلب على معاوية وهى عجوز كبير ، فلما رآها معاوية قال : مرحباً بك وأهلا ياعمّة ، فكيف كنت بعدنا ؟ فقالت : « ياابن أخى ، لقد كفرتَ يدَ النعمة ، وأسأت لابن عمك الصّحبة ، وتسميت بغير اسمك ، وأخذت غير حقك ، من غير بلاء كان منك ولا من آبائك ، ولا سابقة فى الإسلام ، ولقد كفرتم بما جاء به محمد ﷺ ، فأتعس الله منكم الجدود(٢) ، وأضرع(٣) منكم الخدود ، وردّ الحق إلى أهله ، ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هى العليا ، ونبينا ﷺ هو المنصور ، فوليتم علينا

(١) العقد الفريد ١ : ١٢١ ، وصبح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، وبلاغات النساء ص ٦٧

(٢) جمع جد : وهو الحظ .

(٣) أذل ، وفى بلاغات النساء « وأصغر » .

من بعده — وتحتجون بقرابتكم من رسول الله ﷺ ، أقرب إليه منكم ، وأولى بهذا الأمر — فكنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيل فى آل فرعون ، وكان على بن أبى طالب رحمه الله بعد نبينا ﷺ بمنزلة هرون من موسى[1] ؛ فغايتنا الجنة ، وغايتكم النار » .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيتها العجوز الضالة ، واقصرى من قولك ، وغضّى من طرْفك ، قالت : ومن أنت ، لا أمّ لك ؟ قال : عمرو ابن العاص ، قالت : يا ابن اللخناء[2] النابغة تتكلم ، وأمّك كانت أشهر امرأة تغنى بمكة ، وآخذهن لأجرة ! اربَع على ظلعك ، واعن بشأن نفسك ؛ فوالله ما أنت من قريش فى اللباب من حسبها ، ولا كريم منصبها ، ولقد ادعاك خمسة[3] نفر من قريش ، كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم ، فقالت : كلهم أتانى ، فانظروا أشبههم به ، فألحقوه به ، فغلبَ عليك شبه العاص ابن وائل ، فلحقت به ، ولقد رأيت أمك أيام مِنًى بمكة مع كل عبد عاهر[4] ، فأتمّ بهم فإنك بهم أشبهُ .

---

(١) ورواية بلاغات النساء : فكنا أهل البيت أعظم الناس فى الدين حظاً ، ونصيباً وقدراً ، حتى قبض الله نبيه ﷺ ، مغفوراً ذنبه ، مرفوعاً درجته ، شريفاً عند الله مرضياً ، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون ، يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا بمنزلة هرون من حيث يقول : « ياابن أمّ إنّ القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى »

(٢) رجل ألخن وأمة لخناء : لم يختنا ، ولخن السقاء ، وغيره كفرح : أنتن ، والجوزة فسدت ، ومن شتم العرب « يا ابن اللخناء » كأنهم يقولون : يا دنىء الأصل ، أو يا لئيم الأم ، والنابغة أم عمرو ، وقد تقدمت .

(٣) وفى بلاغات النساء « ستة » . (٤) فاجر .

فقال مروان : كفى أيتها العجوز ، واقصرى لما جئت له . ساخ بصرك مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهادتك ، فقالت : وأنت أيضاً يا ابن الزرقاء تتكلم ؟ فوالله لأنت إلى سفيان بن الحارث بن كلدة أشبه منك بالحكم ، وإنك اشبهك فى زُرقة عينيك ، وحمرة شعرك ، مع قصر قامته ، وظاهر دمامته [١] ، ولقد رأيت الحكم مادّ [٢] القامة ، ظاهر الإمة [٣] ، سبْط [٤] الشعر ، وما بينكما قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأتان المُقْرِب [٥] ، فاسأل أمك تخبرك بشأن أبيك إن صدقت ، ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت : والله ما جرّأ علىّ هؤلاء غيرُك ، وإن أمك للقائلة يوم أحد فى قتل حمزة رحمة الله عليه :

نحن جزيناكم بيوم بدْرِ
والحربُ بعد الحرب ذاتُ سُعْر

ما كان عن عتبة لى مِن صَبر أبى وعمّى وأخى وصِهرى
شفيت (وحشى) غليل صدرى شفيتَ نفسى وقضيتَ نذْرى
فشكرُ وحشىٍ علىّ دهرى حتى ترمّ أعظمى فى قبرى

فأجبتها :

يا بنت جبار عظيمِ الكفر خزيتِ فى بدر وغير بدر
صبّحك الله قبيل الفجر بالهاشميين الطوال الزهر
بكل قطاعٍ حسام يفرى حمزة ليثى ، وعلىٌّ صقرى

---

(١) الدمامة : القبح .
(٢) ممتد القامة .
(٣) الإمة بالكسر ويضم : الشأن والنعمة والهيئة .
(٤) سبط الشعر : طويله .
(٥) الأتان : الحمارة

فقال معاوية لمروان وعمرو : ويلكما ! أنتما عرضتمانى لها ، وأسمعتمانى ما أكره ، ثم قال لها : يا عمّة اقصدى قصد حاجتك ، ودعى عنكِ أساطيرَ النساء ، قالت : تأمر لى بألفى دينار . وألفى دينار ، وألفى دينار ، قال : ماتصنعين يا عمةُ بألفى دينار ؟ قالت : أشترى بها عيناً خرخارة[1] فى أرض خوّارة[2] ، تكون لولد الحارث بن عبد المطلب ، قال : نِعم الموضعُ وضعتها ، فما تصنعين بألفى دينار ؟ قالت : أزوّجُ بها فتيان عبد المطلب من أكفائهم ، قال : نعم الموضع وضعتها ، فما تصنعين بألفى دينار ؟ قالت : أستعين بها على عسر المدينة ، وزيارة بيت الله الحرام ، قال : نعم الموضع وضعتها ، هى لك نعمْ وكرامة ، ثم قال : أما والله لو كان عَلِىٌّ ما أمر لك بها ، قالت : صدقت ، إن علياً أدى الأمانة ، وعمل بأمر الله ، وأخذ به ، وأنت ضيعت أمانتك ، وخنت الله فى ماله ، فأعطيتَ مال الله من لا يستحقه ، وقد فرض الله فى كتابه الحقوق لأهلها وبيّنها ، فلم تأخذ بها ، ودعانا (أى علىّ) إلى أخذ حقنا الذى فرضَ الله لنا فشغل بحربك عن وضع الأمور مواضعها ، وما سألتك من مالك شيئاً فتمنّ به ، إنما سألتك من حقنا ، ولا نرى أخذ شىء غير حقنا ، أتذكر علياً ؟ فضّ الله فاك[3] ، وأجهد بلاءك ، ثم علا بكاؤها وجعلت تندُب علياً ، فأمر لها بستة آلاف دينار ، وقال لها : يا عمة : أنفقى هذه فيما تحبين ، فإذا احتجت فاكتبى إلى ابن أخيك يُحسن صَفدك[4] ومعونتك ، إن شاء الله[5] .

---

(١) أى تخر الماء . (٢) خوّاره أى ضعيفة .

(٣) تدعو عليه : أى نثر الله أسنانك .

(٤) الصفد : العطاء .

(٥) العقد الفريد ١ : ١٣٤ ، بلاغات النساء ص ٣٢

محاورة أم البراء بنت صفوان ومعاوية

استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية فأذِن لها ، فدخلت عليه وعليها ثلاثة دروع[1] (بُرودٍ) تسحبها ذراعاً ، قد لاثت[2] على رأسها كوْراً كالمنسف ، فسلمت وجلست ، فقال لها معاوية : كيف أنتِ يا بنة صفوان ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : كيف حالك ؟ قالت : ضعفت بعد جَلد ، وكسِلت بعد نشاط ، قال : شتّان بينك اليوم وحين تقولين :

يا زيدُ دونك صارماً ذا رونقٍ   عضبَ المهزّة ليس بالخـوّار
أسرجْ جوادك مسرعاً ومشمّراً   للحرب غير معرّدٍ لفرار
أجب الإمام وذبّ تحت لوائه   والقَ العدوّ بصارمٍ بتّارِ
يا ليتني أصبحتُ لست قعيدةً   فأذب عنه عساكر الفجار

قالت : قد كان ذلك ، ومثلك من عفا ، والله تعالى يقول : « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقمُ الله منه » قال : هيهات ، أما والله لو عاد لعدتِ ، ولكنه اخترِمَ[3] منك ، قالت : أجل ، واللهِ إني لعلى بينة من ربي ، وهدى من أمري قال : كيف كان قولك حين قتل ؟ قالت : أنسيته ؟ قال بعض جلسائه : هو حين تقول :

يا للرّجال لعُظم هوْل مصيبة   قدَحت ، فليس مُصابها بالحائل[4]
الشمس كاسفةٌ لفقد إمامنا   خير الخلائق والإمام العادل

---

(١) درع المرأة : قميصها (مذكر) ودرع الحديد مؤنث وقد يذكر .
(٢) اللوث : عصب العمامة ، والكور : لوث العمامة .
(٣) اخترم : هلك .   (٤) المتحول المتغير .

يا خيرَ من ركب المطيَّ ومن مشى فوق التراب لمحتفٍ أو ناعل
حاشا النبي لقد هددْت قواءنا فالحق أصبح خاضعاً للباطل(١)

فقال معاوية : قاتلك الله ! فما تركت مقالا لقائل ، اذكرى حاجتك ، قالت أما الآن فلا ، وقامت فعثرت ، فقالت : تعِس شانىء علىّ(٢) ، فقال زعمتِ أن قالت هو كما علمت ، فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة . وقال : إذا ضيعت فمن يحفظه ؟(٣)

محاورة دارمية الحجونية ومعاوية

وحج معاوية سنة من سنيه ، فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت بالحجون(٤) ، يقال لها دارميةَ الحجونية . وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر بسلامتها ، فبعث إليها فجىء بها ، فقال : ما حالك يا بنة حامٍ ؟ فقالت : لست لحام إن عِبته إنما أنا امرأة من بنى كنانة ، ثمت من بنى أبيك ، قال : صدقتِ ، أتدرين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله ، قال : بعثت إليكِ لأسألك : علامَ أحببت على وأبغضتنى ، وواليته وعاديتنى ؟ قالت : أوَ تعفينى يا أمير المؤمنين؟ قال : لا ، قالت : « أما إذا أبيت فإنى أحببت علياً على عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطلبتك(٥) ماليس لك بحق ؛ وواليت علياً على ما عقد له رسول الله ﷺ من الوِلاء(٦) ، وعلى حبه المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك

---

(١) جمع القوة قوى ، وإنما قالت قواء بالمد للضرر .
(٢) أى مبغضه . (٣) صبح الأعشى ١ : ٢٦١ بلاغات النساء ص ٧٨
(٤) الحجون : جبل بمعلاة مكة .
(٥) الطلبة : الطلب .
(٦) تشير إلى قوله : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

على سفكك الدماء ، وشقك العصا ، وجورك فى القضاء ، وحكمك بالهوى » .

قال : فلذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ، وربت عجيزتك ، قالت : يا هذا بهند [١] ، والله كان يضرب المثل فى ذلك لا بى ، قال معاوية : يا هذه اربعى [٢] ، فإنا لم نقل إلا خيراً ، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها ، وإذا عظم ثدياها تروّى [٣] رضيعاً وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها ، فرجعت وسكنت ، فقال : ياهذه هل رأيت علياً ؟ قالت : إى والله لقد رأيته ، قال : فكيف رأيته ؟ قالت : رأيته والله لم يفتنه الملك الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك ، قال : فهل سمعتِ كلامه ؟ قالت : نعم والله فكان يجلو القلوب من العمى ، كما يجلو الزيت الطست من الصدأ ، قال : صدقت . فهل لك من حاجة ؟ قالت . أوتفعل إذا سألتك ؟ قال : نعم ، قالت : تعطينى مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها ، قال : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذو بألبانها الصغار وأستحيى بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر ، قال : فإن أعطيتك ذلك ، فهل أحل عندك محل على بن أبى طالب ؟ قالت : ماء ولا كصدّاء [٤]

---

(١) هى أمه هند بنت عتبة . (٢) ربع : وقف وانتظر وتحبس .

(٣) ارتوى .

(٤) صداء : عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها . ويروى عن ابنة هانىء ابن قبيصة : أنه لما قتل لقيط بن زرارة (من دارم) تزوجها رجل من أهلها ، فكان لا يزال يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنت من لقيط ؟ قالت : كل أموره حسن ، ولكنى أحدثك أنه خرج إلى الصيد مرة ، وقد ابتنى بى فرجع إلىّ وبقميصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضوع من أعطافه ، ورائحة الشراب من فمه ، فضمنى ضمة ، وشمنى شمة . فليتنى مت ثمة .

ففعل زوجها مثل ذلك ، ثم ضمها وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ قالت : ماء ولا كصداء .

ومرعى ولا كالسعدان[١] ، وفتى ولا كمالك ، سبحان الله أو دونه ؛ فأنشأ يقول :

إذا لم أعد بالحلم منى عليكم ... فمن ذا الذى بعدى يُؤملُ للحلمِ

خذيها هنيئاً ، واذكرى فِعلَ ماجدٍ ... جزاك على حرب العداوة بالسلم

ثم قال : أما والله لو كان علىّ حياً ما أعطاك منها شيئاً ، قالت : لا ولا وَبَرة واحدة من مال المسلمين[٢] .

---

(١) السعدان : نبت ذو شوك ، وهو من أفضل مراعى الإبل ، ولا تحسن على نبت حسنها عليه ، وأول من قال ذلك الخنساء بنت عمرو بن الشريد ، وذلك أنها أقبلت من الموسم ؛ فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن ربيعة ؛ ففرجت عنها وهى تنشدهم مراثى فى أهل بيتها ؛ فلما دنت منها قالت : على من تبكين ؟ قالت : أبكى سادة مضوا ؛ قالت : فأنشدينى بعض ما قلت ؛ فأنشدتها ، فقالت الخنساء : مرعى ولا كالسعدان ، ثم أنشدتها ما رثت به أخاها صخراً ، وقيل إن المثل لامرأة من طيء .

(٢) العقد الفريد ١ : ١٣٢ وصبح الأعشى ١ : ٢٥٩ وبلاغات النساء ص ٩٧

الأديبات فى العصر العباسى والأندلسى

الأدب العربى فى ذلك العصر خصب إلى أبعد حدود الخصوبة ، ولقد بلغ الأدب شأواً عظيما ، ومكانة عالية لم يحلم بها من قبل ، ويرجع السبب فى ذلك - كما أسلفنا - إلى حب الخلفاء والولاة للأدب وبذلهم النفيس للأدباء والشعراء وهذا ما دفع الأدباء إلى أن يحسنوا إنتاجهم ويتقنوا أدبهم كى يفوزوا بالجوائز الثمينة فضلا عما يحظون به من القربى للخلفاء والأمراء إذا صادف أدبهم قبولا لديهم ، فظهر جيل عظيم من الأدباء الأفذاذ ، كابن الزيات ، وابن المقفع ، والجاحظ ، وعمرو بن مسعدة ، والمأمون وغيرهم ، وفى الأندلس أبو عامر بن شهيد ، وابن زيدون ، وابن جيتر ، وابن عبد ربه وغيرهم ، وقد نبغ فى هذه الفترة من النساء أديبات شهد لهن التاريخ بالقدرة الفائقة فى الأدب ، وكن أمثلة تحتذى فى الأدب والنقد ، يتلاعبن بالفصاحة ويتصرفن فى فنون القول وينقاد لهم عصى المعنى وليداً جديداً فى البيان واللسان والجمال والحسن والإبداع والتصوير والروعة والألاقة والجرس الموسيقى ، ومن هؤلاء : أم جعفر وقد كانت أديبة ناقدة ، وذات ذوق مرهف فى قول الأدب ونقده .

يقول صاحب كتاب الأغانى :

لما جلس الأمين فى الخلافة أنشده أبو العتاهية :

يا ابن عم النبى خير البرية ... إنما أنت رحمة للرعية

يا إمام الهدى الأمين المصفى ... بلباب الخلافة الهاشمية

لك نفس أمارة لك بالخير ... وكف بالمكرمات نديه

إن نفساً تحملت منك ما حملت ... للمسلمين نفس قوية

ثم خرج إلى دار أم جعفر فقالت له أنشدنى ما أنشدت أمير المؤمنين فأنشدها فقالت أين هذا من مدائحك فى المهدى والرشيد فغضب وقال : إنما أنشدت أمير المؤمنين ما يستملح وأنا القائل فيه :

يا عمود الإسلام خير عمود والذى صيغ من حياء وجود
والذى فيه ما يسلى ذوى أحزان عن كل هالك مفقود
والأمين المهذب الهاشمى القرم محض الآباء محض الجدود
إن يوماً أراك فيه ليوم طلعت شمسه بشمس السعود

فقالت له : الآن وفيت المديح حقه وأمرت له بعشرة آلاف درهم [١]
وكما كانت أم جعفر أديبة ناقدة كانت علية بنت المهدى كذلك فقد قال عنها الحصرى : « كانت علية تعدل بكثير من أفاضل الرجال فى فضل العقل وحسن المقال لها نثر رائق وغناء رائع وشعر ذائع [٢] .

---

(١) الأغانى ٢٠ ص ١١ .

(٢) كانت أمها « مكنونة » المغنية ، أنضر جوارى المدينة وجهاً ، وأسمحهن منظراً وقد اشتراها المهدى فى حياة أبيه المنصور (٧٧٥ — ٧٨٥ م) بمائه ألف درهم . وقد وهبها من قلبه أكثر من هذا المال وشغف بها . وكان قد أخفى أمرها حتى وفاة المنصور ، فولدت له « علية » .

فنانة ومتعبدة :

نشأت « علية » أميرة تستقبل خلافة بعد خلافة . فمن خلافة الأب والجد ، إلى خلافة الأخ وابن الأخ . فشبت زهرة يانعة مدللة ، بين مقاصير الذهب وبسط الحرير . وثقفت بما هو جدير بأمثالها . تقول الشعر الجميل ، وتصوغه لحناً أجمل ، وتؤديه بأعذب صوت وأبرع أداء . ولها إلى جانب ذلك ملاحة طبع ، وإيناس روح ، وجمال دعابة .

ثم فضل الأديبة الشاعرة ، فلقد كانت على بعد مرامها فى الشعر بعيدة الغاية فى النثر ، ومما قاله إبراهيم بن المهدى فيها : كانت نضل الشاعرة من أحسن خلق الله خطاباً وأفصحهم كلاماً ، وأبلغهم فى مخاطبة ، وأثبتهم فى محاورة ،

= وقد جمعت « علية » بين شخصية الفنانة البارعة ، وصفات المتعبدة المصلية . فما تكاد تنال نصيبها من الغناء ، حتى تنصرف إلى تلاوة القرآن وقراءة الكتب وإنك لتعجب إذا علمت أن هذه الموعظة الجميلة القصيرة قد صدرت عن هذه الموسيقارة الشاعرة المبدعة حيث قالت : « ما حرم الله شيئاً إلا وقد جعل منه عوضاً ، فبأى شيء يحتج عاصيه والمنتهك لحرماته » . وكان إيمانها بطهارة تاريخها ينطقها بهذا الاعتزاز والفخر إذ تقول : « لا غفر الله لى فاحشة ارتكبتها قط » .

علية وأخوها إبراهيم :

وقد كتب التاريخ الكثير عن أنباء أخيها إبراهيم بن المهدى ومكانته من الغناء ، تلك المكانة التى سامى بها إسحق وأباه إبراهيم الموصلى ، وما كان له من براعة الابتداع والإنشاء فى هذا الفن . وها نحن أولاء نرى المؤرخين يقومون « علية » على أخيها فيقولون : « ما اجتمع فى الإسلام أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدى وأخته علية ، وكانت تقدم عليه » . وإنما غلبت شهرة إبراهيم عليها ، لأنه كان أكثر ظهوراً فى المجلس والمناظرات ، ويستطيع التنقل فى حرية وانطلاق ، بينما هى محصنة لا تغنى إلا حين يطلب إليها الخليفة . وهى كثيرة التعبد ، غنية عن الشهرة ، وليست بحاجة إلى أن يعرف الناس عنها تلك المكانة فى الغناء .

غنى « البنان » المغنى المشهور لحناً بديعاً فى حضرة المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢ م) فابتسم أحد أقطاب الفن ممن شهدوا ذلك المجلس . وسأل المعتصم عن بواعث ابتسامه فأجاب : إن سبب اجتماع الشرف من ثلاث جهات على هذا الشعر : فى قائله وملحنه ومستمعه ، أما قائله فالرشيد ، وأما ملحنه فعليه ، وأما مستمعه فأنت يا أمير المؤمنين . وهذه القصة القصيرة تضع أيدينا على المستوى الذى ارتفعت إليه الموسيقى فى ذلك العصر الزاهر ، وتقفنا عند مكانة علية الأدبية وصيتها الأدبى الذائع =

ومنهن نزهون الغرناطية فلقد كانت أديبة فضلا عن كونها شاعرة رقيقة ، وكانت سريعة الحاضرة ، حلوة النادرة .

ومن نوادرها أن ابن قزمان الشاعر جاء ليناظرها ، وكان يلبس غفارة صفراء على زى الفقهاء ، فلما رأته قالت إنك اليوم كبقرة بنى إسرائيل صفراء فاقع لونها ، ولكن لا تسر الناظرين ، فضحك الحضور ، وثار ابن قزمان واندفع يسب ، وتدافع القوم عليه حتى طرحوه فى بركة أمام البستان الذى احتفل المجلس به ، وحديث الأدب فى هذا العصر حديث شيق ، وإذا قلت لك إن هناك أستاذات من النساء كن يدارسن بنات الأسر الشريفة ، ويروينهن الشعر فلا تظن هؤلاء على قدر محدود فيما أخـــذن فيه من درس وتحصيل ، ولكنهن كن مع أعلام هذا العصر وأقدار رجاله على ســواء واحد من العلم والأدب والفهم والتخريج[1] . وأول أستاذة للأدب فى هذا العصر ولادة بنت المستكفى ، فلقد كان قصرها مهبطاً رحباً ، ومنتدى خصيباً يأوى إليه كل مبدع منقطع النظير من الكتاب والأدباء ، ومن هؤلاء الوزراء والأمراء والعلماء والقضاة والولاة ، فيتجاذبون الأدب ، ويتناولون النقد ، وولادة بمثابة الحكم الذى يقف الأدباء عند حكمه ، ويخضع الشعراء ، لوجهة نظره ورأيه .

= وقد عاشت علية فى صون حجابها ، على معهود عصرها ، مغنية عازفة شاعرة ملحنة مبتكرة ، معلمة متعلمة . كما عاشت ناسكة فى صومعة فنها ، وخلوة عبادتها . فقد صامت وحجت ورتلت القرآن ، ثم قالت الشعر الرقيق السهل الممتنع ، وأرسلت الغناء الساحر الذى إن لم نسمعه ، فقد سمعنا عنه ما يكفى .

وقضت « علية » سنة عشر ومائتين من الهجرة (٥٢٨ م) ، ولم تتجاوز الخمسين ربيعا ... حياة كلها صبا وشباب ، عاصرت فيها الرشيد وقاطعت بعده الغناء ودواعيه حزناً عليه ، ثم ألح عليها الأمين فى خلافته فتكلفت ، وبعد أن قتل الأمين وانتصر المأمون ، عادت أيضاً إلى الغناء فى قلة ، حتى ماتت بين يديه ، وصلى عليها بنفسه .

(انظر مجلة « دائرة المعرفة » ـ مؤسسة الأهرام) .

(١) المرأة العربية ج ٣ : ١٣٦

طبيعة أدب المولدين

إن الأدب الذى ساد هذه الحقبة يسمى الأدب المولد لأن معظم الأدباء فى تلك الفترة كانو مولدين ، أو يدعونه بالأدب المحدث أى أنه حدث ووجد بعد العصر الجاهلى ، وعصر صدر الإسلام و بنى أمية .

فالأدب بهذا المعنى صار مولداً محدثاً أى لم يكن عربياً خالصاً فى معانيه وأساليبه فقد أصبح المعنى دقيقاً ، والأسلوب جميلا والخيال رائعاً خلاباً ، إذ أن هذا الأدب وليد حضارة عظيمة تعتمد على ثقافة علمية وأدبية لقحت العقل العربى ، ووسعت آفاق المتأدبين بما تعج به من خيالات بارعة ، وتصورات بديعة ، هذا إلى ما جادت به طبيعة بلادهم من مناظر ذات بهجة ، وجنان ذات بهاء ورواء فأضفت على أسلوب أدباء بغداد وقرطبة رقة وسحراً وجمالا ، وقد تلفت أدباء قرطبة و بغداد فوجدوا منابع على بعد قرارها أجرى من السلسال وأصفى من الزلال ، ولذلك جروا فى ميدانه ، وطاروا فى سمائه إلى مدى بعيد ، أنتج ألواناً مبدعة فى الأدب والشعر ما جاء فتنة للناظرين كما نلاحظ [١] أن الأدب فى هذه الفترة صار أدباً مرن الأسلوب .

ونظرة واحدة نلقيها على هذا التراث الأدبى نرى أن البيئة العباسية هى التى أعطت اللغة العربية مرونة الأساليب ، وأداء المعانى الدقيقة وهى التى وضعت نماذج التعبير العباسى البليغ فقد كانت تنفى الألفاظ المتوعرة الوحشية عن كلامها كما كانت تنفى الساقط السوقى فاختارت بذلك لغة متوسطة تقوم على الألفاظ الرشيقة ذات المخارج السهلة ، كما تقوم على ضرب من التلاؤم الموسيقى يكسو الكلام كسوة الازدواج والترادف الصوتى البديع .

---

(١) الأدب العربى فى العصر العباسى : ٥٤ د / محمد بدر

وكان كبار الأدباء فى القرن الثانى للهجرة يتخذون هذا الأسلوب الوسط إمامهم ومثلهم ، وهو أسلوب كان يوازن موازنة دقيقة بين طرافة المعانى وإثارة الجمال فى نفس القارىء والسامع ولكن بدون كد ومجاهدة ، فهم لا يبالغون فى تكلفهم ولا يستدعون الألفاظ من بعيد [١] .

ونلاحظ أن أدب المرأة فى هذه الفترة كان يميل أحياناً إلى السجع وتارة إلى الازدواج والموازنة ، وللتوازن طلاوة ورونق ، وسببه الاعتدال لأنه مطلوب فى جميع الأشياء ، وإن كانت مقاطع الكلام معتدلة ، وقعت من النفس موقع الاستحسان[٢] .

ويظهر لنا من مطالعة ما جادت به أقلام الأديبات فى ذلك العهد أن التوازن كان الطابع لنثر ذلك العهد ، ولا يعنى ذلك أننا لا نجد فيه شيئاً من السجع أو البديع فيه . ولكنهما لم يكونا منهجاً عاماً يتقيد به الأدباء ، وذلك ما نلاحظه فى كلام ونثر المحدثين ، كما نشاهده فى مثل المحاورة التى جرت بين الرشيد وأم جعفر ، فأحياناً نجد فيها سجعاً ، وتارة أخرى نجد ازدواجاً وتوازناً ، وهذا ما يعنيه قول ابن أبى الأصبع .

« ولا تجعل كلامك كله مبنياً على السجع فتظهر عليه الكلفة ، وتبين فيه أثر المشقة ، ويتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط واللفظ النازل ، وربما استدعيت كلمة للقطع ، رغبة فى السجع . فجاءت نافرة من أخواتها ، قلقة فى مكانها ، بل اصرف كل النظر إلى تجويد الألفاظ ، وصحة المعانى ، واجهد فى تقويم المبانى ، فإن جاء الكلام عفواً من غير قصد وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان ، وإن عز ذلك فاتركه وإن اختلفت أسجاعه » [٣] .

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ١٣٣ .
(٢) المثل السائر : ١٦٩ .
(٣) صبح الأعشى ٢ : ٢٣٦ .

وهذا ما جرى عليه المحدثون ، وسارت على ضوئه الأديبات المحدثات ، وحديث الأدب النسوى فى هذه الفترة حديث شيق أليف ، وخصوصاً إذا تكلمنا عن أستاذات الأدب والشعر فى هذه الفترة كعلية ، والعباسة ، وأسماء ، ولبابة بنات المهدى ، وفاطمة أم جعفر والأديبة العروضية إحدى فتيات « بلنسيه » فقد فاقت علماء عصرها ، وكانت تحفظ كتاب الكامل للمبرد والأمالى للقالى وتشرحهما شرحاً مبيناً ، ولقد يمتد بنا الطريق إذا استوفينا رسائل تمثل حب الأدب بباقات من رياضه .

نماذج للنثر النسائى فى هذا العصر

{ وصية السيدة زبيدة لعلى بن عيسى بن ماهان } : نمى الشر بين الأخوين (الأمين والمأمون) واستطار شرره و بعث الأمين جيشاً كثيفاً بقيادة على بن عيسى ابن ماهان لحرب المأمون، وأعد المأمون للقائه جيشاً بقيادة طاهر بن الحسين؛ فلما أراد على الشخوص إلى خراسان ، ركب إلى باب السيدة زبيدة والدة الأمين فودعها فقالت : « يا على ، إن أمير المؤمنين وإن كان ولدى ، إليه تناهت شفقتى وعليه تكامل حذرى ، فإنى على عبد الله منعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابنى ملك نافس أخاه فى سلطانه وغاراه على ما فى يده ، والكريم يؤكل لحمه ، ويميته غيره ، فاعرف لعبد الله حق والده ، واخوته ، ولا تجبهه[1] بالكلام ، فإنك لست نظيره ، ولا تقتسره اقتسار[2] العبيد ، ولا ترهنه[3] بقيد ولا غل ، ولا تمنع منه جارية ولا خادماً ، ولا تعنف عليه فى السير ولا تساوره فى المسير ، ولا تركب قبله ، ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شتمك فاحتمل منه ، وإن سفه عليك فلا ترادّه .

ثم دفعت إليه قيداً من فضة ، وقالت : إن صار فى يدك فقيده بهذا القيد ؛ فقال لها : سأقبل أمرك واعمل فى ذلك طاعتك .

وهى وصية عظيمة من امرأة عظيمة ملئت عطفاً وحدباً على أبنائها لذا تراها فى وصيتها صادقة العاطفة ، ولكلامها حلاوة الطبع ، وجمال الوقع وحسن اللفظ وقرب المعنى والبعد عن الاستكراه والتوفيق فى الأداء ، إلى

---

(١) تجبهه بالكلام : أن تلقاه بما يكره (٢) قسره واقتسره : قهره

(٣) لا ترهنه أى لا تضعفه ، والغل : القيد

ما فيه من بلاغة الإيجاز فقد ذكرته بحق الأبوة والأخوة وأن يتلطف فى معاملته ولا يقسو عليه بقيد أو غل ولا يركب قبله ، ولا يستقل دابته حتى يأخذ بركابه ويحتفى به ، ثم أعطته درساً فى الصبر وقوة الاحتمال « إن شتمك فاحتمل منه وإن سفه عليك فلا ترده » .

وقد وفقت زبيدة فى أداء المعنى ، وكانت حساسة جداً فى استخدام الألفاظ ورسمت الطريق الأمثل فى معاملة الأخوة إذا حزبهم أمر أو جد بينهم مكروه ونسوق نماذج أخرى تمثل قبساً لأدبيات هذا العصر .

إن من البيان لسحراً

كانت أم جعفر بن يحيى — وهى فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة أرضعت الرشيد مع جعفر . لأنه كان رَبِى فى حَجرها ، وغذِى برسْلها ، لأن أمه ماتت عن مهده ، فكان الرشيد يشاورها مظهراً لإكرامها ، والتبرك برأيها . وكان آلى وهو فى كفالتها أن لا يحجبها ، ولا استشفعته لأحد إلا شفّعها ، وآلت أم جعفر أن لا دخلت عليه إلا مأذوناً لها ، ولا شفعت لأحد مقترف ذنبا ، قال سهل بن هارون : فكم أسـير فكت ، ومبهم عنده فرجت ، ومستغلق فتحت .

ولما فتك الرشيد بابنها جعفر ، وقذف بزوجها و بقية أسرتها فى غياهب السجن بعد إيقاعه بالبرامكة — طلبت الإذن عليه فى دار البانوقة . ومتت بوسائلها إليه فلم يأذن لها ، ولا أمر بشىء فيها ، فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها واضعة لثامها ، محتفية فى مشيها ، حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب فقال : ظئر أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شماتة الحاسد إلى شفقة أم الواحد . فقال الرشيد : ويحك يا عبد الملك أوَساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وحافية ! قال : أدخلها يا عبد الملك ،

فرب كبد غذتها ، وكربة فرجتها ، وعورة سترتها ، قال سهل : فما شككت يومئذ فى النجاة بطلابها ، وإسعافها بحاجتها ، فدخلت ، فلما نظر الرشيد إليها داخلة محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس ، وأكب على تقبيل رأسها ، ومواضع ثدييها ثم أجلسها معه فقالت : يا أمير المؤمنين ! أيعدو علينا الزمان ، ويجفونا خوفاً لك الأعوان ويحردك بنا البهتان ، وقد ربيتك فى حجرى ، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى ؟ فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قال سهل : فآيسنى من رأفته تركه لكنيتها آخر ما أطمعنى من بره بها أولا ، قالت : ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته وإشفاقه عليه ، وتعرضه للحتف فى شأن موسى أخيه ، قال لها : يا أم الرشيد أمر سبق وقضاء حُمّ ، وغضب من الله نفذ ، قالت : يا أمير المؤمنين يمحو الله ما يشاءُ ويثبتُ وعندهُ أمُّ الكتاب . قال صدقت ! فهذا مما لم يمحه الله . فقالت : الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ قال سهل : فأطرق الرشيد ملياً ثم قال :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فقالت بغير روية : ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قال الأول :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » فأطرق هارون ملياً ، ثم قال يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد
إليه بوجه آخر الدهر تقبلُ

فقالت يا أمير المؤمنين وأنا أقول :

ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى يمينك فانظرى أى كف تبدل

قال هرون : رضيت . قالت فهبه لى ، فقد قال رسول الله ﷺ : (من ترك شيئاً لله لم يوجده الله فقده) . فأكب هرون ملياً ، ثم رفع رأسه يقول : لِله الأمر مِنْ قبلُ ومِنْ بعد . قالت يا أمير المؤمنين : «ويومئذ يفرحُ المؤمنون بنصرِ اللهِ ينصرُ من يشاءُ وهوَ العزيزُ الرّحيم» ، واذكر يا أمير المؤمنين أليتك «ما استشفعت إلا شفعتنى» . قال : واذكرى يا أم الرشيد أليتك «أن لاشفعت لمقترف ذنباً» ، قال سهل : فلما رأته صرح بمنعها ، ولاذعن طلبها ، أخرجت حقاً من زمردة خضراء فوضعته بين يديها . قال الرشيد : ما هذا ؟ ففتحت عنه قفلا من ذهب فأخرجت منه ذوائبه وثناياه قد غمست جميع ذلك فى المسك ، فقالت يا أمير المؤمنين أستشفع إليك ، وأستعين بالله عليك ، وبما صار معى من كريم جسدك ، وطيب جوارحك ، ليحيى عبدك فأخذ هارون ذلك فلثمه ثم استعبر وبكى بكاءً شديداً ، وبكى أهل المجلس ، ومر البشير إلى يحيى وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ، ورجوع عنه . فلما أفاق رمى جميع ذلك فى الحق وقال لها : لحسن ّما حفظت الوديعة ، قالت : وأهل المكافأة أنت . فسكت وأقفل الحق ودفعه إليها وقال : «إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها» . قالت والله يقول : «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» . ويقول : «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم» . ثم قال : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : ما أقسمت لى به أن لاتحجبنى ولا تمتهننى . قال : يا أم الرشيد أتشريه محكمة فيه ؟ قالت : أنصفت ، وقد فعلت غير مستقيلة لك ، ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عن لا يسخطك قال : يا أم الرشيد أما لى عليك من الحق مثل الذى لهم ؟ قالت : بلى ! أنت أعز علىّ وهم أحب إلىّ . قال : فتحكمى فى ثمنه بغيرهم . قالت : بلى قد وهبتكه وجعلتك فى حل منه وقامت عنه ، وبقى مبهوتاً ما يحير لفظة . قال سهل : وخرجت فلم تعد ولا والله ما رأيت لها عبرة ، ولا سمعت لها أنّه .

هذى صورة من عاطفة الأمومة الجياشة الصادقة فى ودها وعطفها وقد جاءت هذه المحاورة دون تكلف أو تصنع فى عبارات مليئة بالحدب والحنان وهى تصور قلب الوالدة الثاكل حين تأخذها على أبنائها الشفقة بهم والخوف عليهم ، من جراء مسئولية شاقة ألقيت عليه ، أو حمل ثقيل ناء به كاهله فى حالة حزينة بائسة تقلب شماتة الحاسد إلى حنين الوالد ، وشفقة أم الواحد . والمحاورة لوحة فنية مؤثرة استخدمت فيها الأديبة أم جعفر كل أدوات البلاغة المؤثرة لعلها تنفذ بها إلى قلب الرشيد من استفهام يهز شغاف القلوب « أو يعدو علينا الزمان ، ويجفون خوفاً لك الأعوان ويحردك[1] بنا البهتان » إلى اقتباسات واستشهاد بالقرآن الكريم : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » كما تسرى فى جوانب المحاورة ، وبين ثناياها الاستعارات والكنايات والتشبيهات اللطيفة :

وإذا المنيـة أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفـع
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخراً يكون كصالح الأعمـال

وتظهر فى المحاورة سمات الأدب فى هذه الفترة من طابع دينى يسيطر على المحاورة والاستعانة بالقرآن الكريم اقتباساً وبالشعر العربى استشهاداً كما تبدو فيها السهولة البادية فى وضوح مفرداتها وسلاسة تراكيبها مع جزالة فى الأسلوب وقوة فى الأداء ، ومن لسرى القول ورائعه ، وجيد القول وبليغه « بعد أولئك الذين ارتضعوا أفاويق البلاغة ، وارتشفوا رحيق البيان وغذوا بلبان الأدب وتوارثوا عن آبائهم وأجدادهم ملكة أصيلة ، وذوقاً صحيحاً ، يجعلهم يتملكون ناصية اللغة ويحتلون منها المكان العلى والذروة الرفيعة »[2] .

---

(١) يحردك أى يغضبك .

(٢) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الأول : ١٧٥ وانظر بلاغات النساء .

ألوان أخرى من أدب النساء

حدّث الأصمعي قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهى تقول : والله إن شربك لاشتفاف ، وإن ضجعتك لانعجاف ، وإن شملتك لالتفاف وإنك لتشبع ليلة تضاف ، وتنام ليلة تخاف ، فقال لها : والله إنكِ لكرواء الساقين ، قعواء الفخذين مقاء الرفغين مفاضة الكشحين ، ضيفكِ جائع ، وشرك شائع .

ولما قتل الفضل بن سهل دخل المأمون على أمه فوجدها تبكى فقال لها : أنا ابنك مكانه ، فقالت إن ابنا ترك لىَ ابنا مثلك لجدير أن يبكى عليه .

وقال الأصمعي : دفعتُ فى بعض تطوافى إلى امرأة من ولد ابن هَرْمة[1] فسألتها القِرى ، فقالت : إنى والله مُرملة مُسنتة ما عندى شىء ، فقلت : أما عندك جَزور ؟ فقالت : والله ولا شاة ، ولا دجاجة ، ولا بيضة ، فقلت أما ابن هَرمة أبوك ؟ فقالت : بلى والله ، إنى لمن صميمهم ، قلت : قاتل الله أباك ! ما كان أكذبه حيث يقول :

لا أمتعُ العوذَ بالفصال ولا أبتاع إلا قريبة الأجل[2]
إنى إذا ما البخيل آمنها باتت ضموراً منى على وَجل

وولت فنادت : اربع أيها الراكب ، فعله والله ذلك أقله عندنا[3] ، فقلت : إلا تكونى أوسعتنا قِرى فقد أوسعتنا جواباً .

(١) أحد الشعراء الأجواد الفرسان .

(٢) العوذ من النياق الحديثات النتاج يقول إنه لا يبقيها حتى يعظم فصيلها وكلا شطرى البيت كناية عن تكرمه بذبح الإبل فلا يبقى منها شيئاً .

(٣) تقول هذا التكرم أقل ما عنده من الطعام .

وحدث ابن السراج قال : أخبرنى بعض الإخوان أن بعض البصريين أخبره قال : كنا لمّـة تجتمع ولا يفارق بعضنا بعضاً ، فضجرنا من المقام فى المنازل . فقال بعضنا : لو عزمتم فخرجنا إلى بعض البساتين ، فخرجنا إلى بستان قريب منا ، فبينا نحن فيه إذ سمعنا ضجة راعتنا ، فقلت للبستانى : ما هذا ؟ فقال هؤلاء نسوة لهن قصة ، فقلت له أنا دون أصحابى : وما هى ؟ قال العيان أكبر من الخبر ، فقم حتى أريك وحدك ، فقلت لأصحابى أقسمت ألا يبرح أحد منكم حتى أعود ، فنهضت وحدى فصعدت إلى موضع أشرف عليهن وأراهن ولا يريننى ، فرأيت نسوة أربعاً كأحسن ما يكون من النساء وأشكلهن ، ومعهن خدم لهن وأشياء قد أصلحت من طعام وشراب وآلة ، فلما اطمأن المجلس بهن جاء خادم لهن ومعه خمسة أجزاء من القرآن فدفع إلى كل واحدة منهن جزءاً ووضع الجزء الخامس بينهن فقرأن أحسن قراءة ، ثم أخذن الجزء الخامس فقرأت كل واحدة منهن ربع الجزء ، ثم أخرجن صورة معهن فى ثوب دَبيقى فبسطنها بينهن فبكين عليها ودعون لها ثم أخذن فى النوح فقالت الأولى :

خلس الزمان أعز مختلس ... ويد الزمان كثيرة الخلس

لله هالكة فجعت بها ... ما كان أبعدها من الدنس

أَتت البشارة والنعىُّ بها ... يا قربَ مأتمها من العُرس

ثم قالت الثانية :

ذهب الزمان بأنس نفسى عنوة ... وبقيت فرداً ليس لى من مؤنس

أودى بملكٍ لو تفادى نفسها ... لفديتها بمن أعزُّ بأنفس

ظلّت تكلمنى كلاماً مُطمعاً ... لم أستريب فيه بشىء مؤيس

حتى إذا فتر اللسان وأصبحت ... للموت قد ذبلت ذبول النرجس

وتسهلت منها محاسن وجهها وعلا الأنين تحثه بتنفس
جعل الرجاء مطامعى يأساً كما قطع الرجاءَ صحيفةُ المتلمس

ثم قالت الثالثة :

جرت على عهدها الليالى وأحدثت بعدها أمور
فاعتضت باليأس منك صبراً فاعتدل اليأس والسرور
فلست أرجو ولست أخشى ما أحدثت بعدك الدهور
فليبلغ الدهر فى مساتى فما عسى جهده يضير

ثم قالت الرابعة :

خدنٌ نفيس من الدنيا فجعت به أفضى إليه الردى فى حومة القدر
وَيْحَ المنايا أما تنفك أسهمها معلقات بصدر القوس والوتر
يبلى الجديدان والأيام بالية والدهر يُبلى وتَبلى جدّة الحجر

ثم قمن فقلن بصوت واحد :

كنا من المساعدة نحيا بنفس واحدة
فمات نصف نفسى حين ثوى فى الرمس
فما بقائى بعدَهُ وشطر نفسى عنده
فهل سمعتم قبلى فيمن مضى بمثلى
عاش بنصف رُوح فى بدن صحيح

ثم تنحين وقلن لبعض الخدم : كم عندك منهن ؟ قال : أربعة ، قلن : ائت بهن ، فلم ألبث إلا قليلا حتى طلع بقفص فيه أربعة غربان مكتفات فوضع القفص بين أيديهن فدعون بعيدان فأخذت كل واحدة منهن عوداً فغنت :

لعمري لقد صاح الغراب ببينهم ... فأوجع قلبي بالحديث الذي يبدي

فقلت له أفصحت لا طرت بعدها ... بريش فهل للقلب ويحك من رد

ثم أخذن واحداً من الغربان فنتفن ريشه حتى تركنه كأن لم يكن عليه ريش قط ، ثم ضربنه بقضبان معهن لا أدرى ما هى حتى قتلنه ، ثم غنت :

أشاقك والليل مُلْقِى الجران ... غراب ينوح على غصن بانِ

أحَصُّ الجناح شديد الصياح ... يبكى بعينين ما تهملانِ

وفى نعبات الغراب اغتراب ... وفى البان بينٌ بعيد التدانْ

ثم أخذن الثانى فشددن فى رجليه خيطين و باعدن بينهما وجعلن يقلن له : أتبكى بلا دمع وتفرق بين الألاف ! فن أحق بالقتل منك ؟ ثم فعلن به ما فعلن بصاحبه ، ثم غنت الثالثة :

ألا يا غراب البين لونك شاحب ... وأنت بلوعات الفراق جدير

فبيِّن لنا ما قلت إذ أنت واقع ... وبيِّن لنا ما قلت حين تطير

فإن يك حقاً ما تقول فأصبحت ... همومك شتى والجناح كسير

ولا زلت مكسوراً عديماً لناصر ... كما ليس لى من ظالمىَّ نصير

ثم قالت له : أما الدعوة فقد استجيبت ، ثم كسرت جناحيه ، وأمرت ففُعِل به ذلك ، ثم غنت الرابعة :

عشية مالى حيلةٌ غير أننى ... بلقط الحصى والخط فى الدار مولع

أخط وأمحو كل ما قد خططته ... بدمعىَ والغربانُ فى الدار وقع

ثم قالت لأخواتها : أى قتلة أقتله ؟ فقلن لها علقيه برجليه وشدى فى رأسه شيئاً ثقيلا حتى يموت ، ففعلت به ذلك ، ثم وضعن عيدانهن ودعون بالغذاء فأكلن ، ودعون بالشراب فشربن ، وجعلن كلما شربن قدحاً شربن للصورة مثله وأخذن عيدانهن فغنين ، فغنت الأولى :

أبكىَ فراقكم عينى فأرّقها ... إن الحب على الأحباب بكّاءُ
لا زال يعدو عليهم ريب دهرهم ... حتى تفانوا وريب الدهر عدّاء

ثم غنت الثانية :

أما والذى أبكى وأضحك والذى ... أمات وأحيا والذى أمرُه الأمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يروعهما الدهر

ثم غنت الثالثة :

سأبكى على ما فات منك صبابة ... وأندب أيام الأمانى الذواهب
أحين دنا مَن كنت أرجو دنوّه ... رمتنى عيون الناس من كل جانب ؟
فأصبحت مرحوماً وكنت محسَّداً ... فصبراً على مكروه مر العواقب

ثم غنت الرابعة :

سأفنى بك الأيام حتى يسرنى ... بك الدهر أو تفنى حياتى مع الدهر
عزاء وصبراً أسعدانى على الهوى ... وأحمد ما جربت عاقبة الصبر

ثم أخذت الصورة فعانقتها وبكت وبكين ثم شكون إليها جميع ما كن فيه ، ثم أمرن بالصورة فطويت ، فرقت أن يتفرقن قبل أن أكلمهن ، فرفعت رأسى إليهن ، فقلت لقد ظلمتن الغربان ، فقلن لو قضيت حق السلام وجعلته سبباً للكلام لأخبرناك بقصة الغربان ، قال فقلت إنما أخبرتكن بالحق ، قلن وما الحق فى هذا ؟ وكيف ظلمناهن ؟ قلت إن الشاعر يقول :

ذهب الغراب برؤية الأحباب ... فلذاك صرت أحب كل غراب

قالت إحداهن صحفت وأحلت المعنى إنما قال : بفرقة الأحباب فلذاك صرت عدو كل غراب ، فقلت لهن : فبالذى خصكن بهذا المجلس وبحق صاحبة الصورة لما خبّرتنى بخبركن ؟ قلن لولا أنك أقسمت علينا بحق من يجب علينا

حقه ما أخبرناك ! كنا صواحب مجتمعات على الألفة ، لا تشرب منا واحدة الماء البارد دون صاحبتها فاختُرمت صاحبة الصورة من بيننا ، فنحن نصنع فى كل موضع نجتمع فيه مثل الذى رأيت ، وأقسمنا أن نقتل فى كل يوم نجتمع فيه ما وجدنا من الغربان لعلة كانت ، قلت وما تلك العلة ؟ قلن فرق بينها وبين أنس كان لها ففارقت الحياة فكانت تذمهن عندنا وتأمر بقتلهن ، فأقل ما لها عندنا أن نمتثل ما أمرت به ، ولو كان فيك شىء من السواد لفعلنا بك فعلنا بالغربان ، ثم نهضن فمضين ورجعت إلى أصحابى فأخبرتهم بما رأيت ، ثم طلبتهن بعد ذلك فما وقعت لهن على خبر ، ولا رأيت لهن أثراً .

* * *

وحدث التوزى عن عتبة الغلام قال : خرجت من البصرة والأبلة فإذا أنا بخباء أعراب قد زرعوا ، وإذا أنا بخيمة ، وفى الخيمة جارية مجنونة عليها جبة صوف لا تباع ولا تشترى ، فدنوت فسلمت فلم ترد علىّ السلام ، ثم وليت فسمعتها تقول :

زهد الزاهدون والعابدونا إذ لمولاهم أجاعوا البطونا
أسهروا الأعين القريحة فيه فمضى ليلهم وهم ساهرونا
حيرتهم محبة الله حتى علم الناس أن فيهم جنوناً
هم ألبا ذوو عقول ولكن قد شجاهم جميع ما يعرفونا

قال فدنوت إليها فقلت لمن الزرع ؟ فقالت : لنا إن سلم ، فتركتها وأتيت بعض الأخبية فأرخت السماء كأفواه القرب ، فقلت لآتينها فأنظر قصتها فى هذا المطر ، فإذا أنا بالزرع قد غرق وإذا هى قائمة نحوه وهى تقول : والذى أسكن قلبى من طرف سحر بصفى محبة اشتياقك إن قلبى ليوقن منك بالرضا ، ثم التفتت إلىّ فقالت يا هذا إنه زرعه فأنبته ، وأقامه فسنبله وركبه ، وأرسل

عليه غيثاً فسقاه ، وطلع عليه لحفظه ، فلما دنا حصاده أهلكه ، ثم رفعت رأسها نحو السماء فقالت : العباد عبادك وأرزاقهم عليك ، فاصنع ما شئت ، فقلت لها كيف صبرك ؟ فقالت : اسكت يا عتبة :

إن إلهى لغــــنى حميــد   لى كل يوم منه رزق جديد
الحمـــد لله الذى لم يزل   يفعـــل بى أكثر ممـا أريد

وحدث التوزى أيضاً قال :

رأيت امرأة عند قبرين وهى تقول : بأبى لم تمتعك الدنيا من لذتها ، ولم تساعدك الأقدار على ما تهوى ، فأوفرتنى كداً ، فصرت مطية للأحزان ، فليت شعرى كيف وجدت مقيلك ، وماذا قلت وقيل لك ، ثم قالت : استودعتك من وهبك لى ثم سلبنى أسر ما كنت بك . فقلت لها يا أمه ! ارضى بقضاء الله عز وجل وسلمى لأمره . فقالت : هاه ! نعم جزاك الله خيراً ، لا حرمنى الله أجرك ولا فتننى بفراقك فقلت لها من هذا ! فقالت : ابنى وهذه ابنة عمه ، كان مسمى بها زفت إليه ثم أخذها وجع أتى على نفسها فقضت ، فانصدع قلب ابنى فلحقت روحه روحها ، فدفنتهما فى ساعة واحدة ، فقلت فمن كتب هذا على القبرين ؟ قالت أنا ، قلت وكيف ؟ قالت : كان كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين لحفظهما لكثرة تلاوته لهما ، فقلت ممن أنت ؟ فقالت فزارية ، قلت ومن قائلهما ؟ قلت : كريم ابن كريم ، سخى ابن سخى ، شجاع ابن بطل ، قلت من ؟ قالت : مالك بن أسماء بن خارجة يقولهما فى امرأته حبيبة بنت أبى جندب الأنصارى ، ثم قالت وهو الذى يقول[1] :

يا منزل الغيث بعد ما قنطوا   ويا ولى النعـــماء والمنن
يكون ما شئت أن يكون وما   قدرت ألا يكون لم يكن

---

(١) أنظر بلاغات النساء والمرأة العربية ج ٣ : ١٢٦ .

يا جارة الحى كنت لى سكناً إذ ليس بعض الجيران بالسكن
أذكر من جارتى ومجلسها طرائفاً من حديثها الحسن
ومن حديث يزيدنى مقة ما لحديث المرموق من ثمن

قال فكتبتها ، ثم قامت مولية فقالت : شغلتنى عما إليه قصدت لتسكين ما بى من الأحزان .

وحدث الأصمعى قال :

سمعت رجلا من تميم يقول : أضللت إبلا فخرجت فى طلبهن ، فررن بجارية أعشى نورها بصرى ، فقالت ما حاجتك ؟ قلت : إبل لى أضللتها ، فهل عندك شىء من علمها ؟ قالت : أفلا أدلك على من عنده علمهن ؟ قلت بلى . قالت الذى أعطاكهن هو الذى أخذهن ، فاطلبهن من طريق التيقن لا من طريق الاختبار ، ثم تبسمت وتنفست الصعداء ، ثم بكت وأطالت البكاء وأنشأت تقول :

إنى وإن عرضت أشياء تضحكنى لموجع القلب مطوىّ على الحزن
إذا دجا الليل أحيا لى تذكره والصبح يبعث أشجاناً على شجن
وكيف ترقد عين صار مؤنسها بين التراب وبين القبر والكفن
أبلى الثرى وتراب الأرض جدّته كأن صورته الحسناء لم تكن
أبكى عليه حنيناً حين أذكره حنين والهة حنت إلى وطن
أبكى على من حنت ظهرى مصابته وطير النوم عن عينى وأرقنى
والله لا أنس حبى الدهر ما سجعت حمامة أو بكى طير على فنن

فقلت عند ما رأيت جمالها ، وحسن وجهها ، وفصاحتها وشدة جزعها : هل لك من لا تذم خلائقه وتؤمن بوائقه ؟ فأطرقت ملياً ، ثم أنشأت تقول :

كنا كغصنين فى أصل غذاؤهما ماء الجداول فى روضات جنات

فاجتث خيرهما من جنب صاحبه دهر يكر بفرحات وترحات

قد كان عاهدنى إن خاننى زمن ألا يضاجع أنثى بعد مثواتى

وكنت عاهدته أيضاً فعاجله ريب المنون قريباً مذ سنيات

فاصرف عنانك عمن ليس يردعه عن الوفاء خلاب فى التحيات

وحدث التوزى أيضاً عن بعض الكتاب قال : دخلت البصرة أنا وصديق لى فرأيت فتاة قد خرجت من بعض الدور كأنها فلقة قمر . فقلت لصاحبى : لو ملت بنا إليها فاستسقيناها ماء ! ففعل ، فقلنا لها ، جعلنا الله فداءك ! اسقينا ماء ، فقالت : نعم وكرامة ، فدخلت وأخرجت كوز ماء وهى تقول :

ألا حى شخصين قاصدين أراهما أقاما فما إن يعرفا مبتغاهما

هما استسقيا ماء على غير ظمأة ليستمتعا باللحظ ممن سقاهما

وحدث محمد بن سلام الجمحى يقول : سمعت رجلا من بنى سليم يقول : هويت امرأة من الحى ، فكنت أتبعها إذا خرجت إلى المسجد ، فعرفت ذلك منى ، فقالت لى ذات ليلة : ألك حاجة ؟ قلت نعم ! قالت وما هى ؟ قلت مودتك ، قالت دع ذلك ليوم التغابن[1] . قال فأبكتنى والله فما عدت إليها بعد ذلك .

ومن حديث أخرى : أن رجلا رأى أعرابية بمكان خال ، والليل منسدل الستر فقال : أما من سبيل إليك ؟ فقالت : انظر هل يرانا من أحد ؟ قال ما يرانا إلا الكواكب ! قالت : وأين مكوكبها ؟ فبهت الرجل وانصرف ذاهلا ما يتكلم .

---

(١) يوم التغابن : يوم القيامة ، سمى بذلك لأن أهل الجنة يغبنون فيه أهل النار.

نثر الجـــوارى

أثر عنهن قطع نثرية ممتـازة تجارى أرقى وأحسن ما عرف للنثر فى هذه الفترة من ضوابط فنية وحسن تعبير وجزالة وسلامة أسلوب وتدفق فى المعانى ، وكانت ألفاظها نسمات أسحار فى أساليب لا تشبهها إلا قائلاتهن فى خفة أرواحهن ، وصفاء أذواقهن .

ودار نثر الجوارى بمجمله حول الترتل ، وأخذ صفة التوازن والازدواج وأحياناً نراه يميل إلى السجع الملتزم ، ولـكنه سجع مقبول ، أخذ صفاء البيئة وحسن رواتها ، وبعضه قصير الفقرات ، وبعضه طويل غير مسرف فى الطول ، وموضوعاته تدور حول التعليق على شعر نال إعجابهن أو العـكس أو التعقيب على قول أو رأى سمعنه أثناء انعقاد مجالس الأدب ، ومنتديات الشعر أو فى مجالات أدبية أخرى كالتهنئة والاعتذار وغيرها .

وفى شهادة سعيد بن حميد لبعض الجوارى بالإجادة ، خير دليل وبرهان على ما بلغته الجوارى من إتقان هذا الفن ، فقد قال لعبد الله بن المعتز — وقد ظن أن سعيد بن حميد يكتب الرقاع لفضل فتنسبها لنفسها — قال لابن المعتز : « ما أخيب ظنك ليتها تسلم منى لآخذ كلامها ورسائلها ، والله يا أخى لو أخذ أفاضل الـكتاب وأماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك[1] » .

وكان الجوارى يتأثرن بأساليب الـكتّـاب المشهورين فى هذه الفترة من ذلك ما لاحظه ابن المعتز من أن عريبا أخذت نحو سعيد بن حميد فى الـكلام وسلـكت مسلـكه[2] .

---

(١) الأغانى ١٥/١٧ دار مكتبة الحياة — دار الفـكر .

(٢) نفس المصدر

وما كانت الجوارى لتلتقى بالنثر كتابة وتحبيراً ، بل عرف لبعضهن آراء نقدية ، ونظرات صادقة فى نقد الكتابة والنثر ، وسجل علماء الأدب لهن مواقف مشهورة نقدن فيها أحسن الأدباء والكتاب ، وأرجحهن باعا وذراعاً فى هذا المضمار « فقد تكلم ابن السماك يوماً وجارية له تسمع كلامه فلما دخل إليها ، قال لها : كيف سمعت كلامى ؟ قالت : ما أحسنه !! إلا أنك تكثر ترداده ! قال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه قالت : إلى أن تفهمه من لم يفهمه يكون قد مله من فهمه[1] .

وأدب عريب الجارية يقف مثالا حياً ورائعاً على جودة نثر الجوارى وطول باعهن فيه ، فقد عتب المأمون على عريب ، فهجرها أياماً ثم اعتلت فعادها فقال لها : كيف وجدت طعم الهجر ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين لولا حلاوة الهجر ما عرفت حلاوة الوصل ، ومن ذمّ بدء الغضب ، حمد عاقبة الرضا ، قال : فخرج المأمون إلى جلسائه فحدثهم بالقضية ثم قال : أترى هذا لو كان من كلام النظام ألم يكن كبيراً ؟[2] .

وفى هذا يتبين قدر ما بلغه نثر الجوارى من التقدير والإكبار ، ولا سيما من رجل يقدر الأدباء ويجل العلماء وهو المأمون .

وملاحظة أخرى أحب أن أضيفها كعلامة مميزة بين نثر الجوارى فى البيئة البدوية ونثرهن فى البيئة الحضرية ، فنثرهن فى الأندلس مع ما بلغه من ظرف ورقة لم يبلغ نظيره الذى قيل فى البيئة البدوية لأن هذا كان يغذيه طبع المرأة العربية فى البادية ، ولكليهما منحى يستخف النفوس والأرواح ، فالمرأة العربية البدوية كانت كأفضل النساء صفاءً فى الطبع ، ونقاء فى النفس ، وسمواً

---

(١) العقد الفريد والأندية الأدبية : ٢٥٩ .

(٢) الأغانى ١٨ : ٤٣٤ مكتبة الحياة ببيروت .

فى الخاطر ، وجلالا فى الغرض وروعة فى الأسلوب[١] ، وكانت الجارية الأندلسية مثار الفتنة والسحر ، وأضفت فتنتها وسحرها على درر أدبها فجاء مبهراً للعين ، ومستولياً على الوجدان ومسيطراً على القلوب ، ولو أن المرأة العربية المتحضرة ، اهتمت برواية الشعر والأدب من منبعها الصافى البادية لانعكس أثر ذلك على أدبها ، كما أنها لو أخذت تراث البادية ، وصقلته على غرار الحضارة وغذته بماء ، النعيم لأتت بأطيب الثمرات[٢] فى نثرها وشعرها

نماذج لنثر الجوارى

كتبت عريب :

« بنفسى أنت وسمعى وبصرى ، وكل ذلك لك ، أصبح يومنا هذا طيباً ، طيب الله عيشك قد احتجبت سماؤه ، ورق هواؤه ، وتكامل صفاؤه ، فكأنه أنت فى رقة شمائلك ، وطيب محضرك ، لا فقدت ذلك منك ، سرك الله وحفظك »[٣] .

ونلاحظ أن رسالة عريب نحت منحى الإيجاز واتخذت طريق الازدواج والتوازن فى كتابتها شأن الكتابة فى هذه الفترة ، وفى موسيقاها أثر من آثار البيئة الأندلسية التى أكسبت الرسالة رقة وتهذيباً وجمالا .

وكتبت ظريفة :

« جفوتنا من غير استحقاق للجفاء ، وملت إلى غير مذاهب الظرفاء ، وإنى لم أزل واثقة بإخائك ، راجية لحسن وفائك ، وتحقيق ظن مؤملك أولى بك من الوقوف على تجنبك »[٤] .

---

(١) المرأة العربية ج ٣ (٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) الأندية الأدبية : ٢٥٩
(٤) الظرفاء والشحاذون فى بغداد وباريس ص ٨٤

فهل هناك ألطف من هذه المعاقبة ، وأساس من هذا الكلام ، وأروع من هذا الأسلوب ، ويلاحظ أنها سلكت نفس الطريقة التي سلكتها صاحبتها عريب ، إيجاز ، وقصر فقرات ، وظهر فيها التوازن والازدواج .

وقد بلغت الكاتبة غرضها دون تكلف ومعاناة في رسالة قصيرة بليغة عرضت فيها ، شكاتها وعاتبت وأملت ووبخت ، فكان لها ما أرادت بالقول اللطيف والعبارة المهذبة ، والكلمة المعبرة ، والعاطفة الدافقة الفياضة [١] .

وكتبت عريب للكاتب الكبير إبراهيم بن المدبر ، وقد بلغها أنه صام يوم عاشوراء :

« قبل الله صومك ، وتلقاه بتبليغك ما التمست ، كيف ترى نفسك نفسي فداؤك ، ولم كدرت جسمك في آب أخرجه الله عنك في عافية ، فإنه فظ غليظ وأنت محرور ، وإطعام عشرة مساكين أعظم لأجرك ، ولو علمت لصمت صومك مساعدة ، وكان الصواب في حسناتي دوني ، لأن نيتي في الصوم كاذبة [٢] .

وهي رسالة وجيزة بليغة ، وبلغ من بلاغتها أن ذكرت أمام الكتاب فقال وما يمنعها من ذلك وهي بنت جعفر بن يحي [٣] .

والتوازن والازدواج صورة بارزة في الرسالة ، وجاءت في عبارات سهلة ، وألفاظ واضحة لا تكلف فيها ، ولا غموض ، ومعان سلسة سائغة ، ولكنها أضعف لغة وأدنى أسلوباً من مثيلاتها الجاريات البدويات كما بينا ذلك آنفاً .

---

(١) انظر الأندية الأدبية : ٢٦٠

(٢) الأغاني ١٥ : ٢٥٥ دار الفكر ببيروت

(٣) الأغاني ٨ : ١٧٨ (مطبعة ساس)

المتكلمة بالقرآن

وتقدم لنا كتب التراث العربى هذه الصورة الطريفة للسيدة المؤمنة التى آلت على نفسها ألا تتكلم إلا بالقرآن الكريم يرويها عبد الله بن المبارك[1] على أنها واقعة حقيقية حدثت له بعد انتهائه من الحج والزيارة . فيقول :

« خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام فبينما أنا فى بعض الطريق إذ أنا بسواد ، فتميزت ذاك فإذا هى عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف .

فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فقالت : سلام قولا من رب رحيم .

فقلت لها : يرحمك الله ما تصنعين فى هذا المكان ؟

قالت : « من يضلل الله فلا هادى له » .

فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها : أين تريدين ؟

قالت : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » .

فعلمت أنها قد قضت حجها وهى تريد بيت المقدس .

---

(١) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلى بالولاء ، التميمى المروزى أبو عبد الرحمن الحافظ ، شيخ الإسلام ، المجاهد التاجر صاحب التصانيف والرحلات ، أفنى عمره فى الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً ، وجمع الحديث والفقة ، والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء ، وهو من سكان خراسان ومات (بهيت) ، (على الفرات) منصرفاً من غزو الروم . له كتاب فى الجهاد وهو أول من صنف فيه ، والرقائق مخطوط ، توفى١٨١هـ ٧٩٧م (انظر « الأعلام » للزركلى ، و « لغتنا الجميلة » لفاروق شوشة .

فقلت لها : أنت مذكم فى هذا الموضع ؟

قالت : « ثلاث ليال سويا » .

فقلت : ما أرى معك طعاماً تأكلين ؟

قالت : « هو يطعمنى ويسقين » .

فقلت : فبأى شىء تتوضئين ؟ .

قالت : « فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً » .

فقلت لها : إن معى طعاماً فهل لك فى الأكل ؟

قالت : « ثم أتموا الصيام إلى الليل » .

فأدركت أنها صائمة فقلت لها : ليس هذا شهر رمضان !

قالت : « ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم » .

فقلت : قد أبيح لنا الإفطار فى السفر .

قالت : « وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » .

ولما وجدتها لا تتكلم إلا بالقرآن الكريم قلت لها : لم لا تكلمينى مثلما أكلمك ؟

فقالت : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

قلت : « فمن أى الناس أنت ؟

قالت : ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

فقلت : قد أخطأت فاجعلينى فى حل .

قالت : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » .

قلت : فهل لك أن أحملك على ناقتى هذه فتدركى القافلة ؟

قالت : « وما تفعلوا من خير يعلمه الله » ،

يقول عبد الله بن المبارك فأنخت ناقتى .

قالت : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » .

فغضضت بصرى عنها وقلت لها اركبى فلما أرادت أن تركب قفزت الناقة فمزقت ثيابها .

فقالت : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » .

فقلت لها : اصبرى حتى أعقلها .

قالت : « ففهمناها سليمان » .

فعقلت الناقة وقلت لها : اركبى .

فلما ركبت قالت : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون » .

فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسعى وأصيح .

فقالت : « واقصد فى مشيك واغضض من صوتك » .

فجعلت أمشى رويداً رويداً وأترنم بالشعر .

فقالت : « فاقرءوا ما تيسر من القرآن » .

فقلت لها : لقد أوتيت خيراً كثيراً .

قالت : « وما يذّكر إلا أولو الألباب » .

فلما مشيت بها قليلا قلت : ألك زوج ؟

قالت : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » .

فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها : هذه هى القافلة فمن لك فيها ؟ .

فقالت : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .

فعلمت أن لها أولاداً ، فقلت : وما شأنهم فى الحج ؟ .

قالت : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون »

فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب والعمارات فقلت : هذه القباب فمن لك فيها ؟ .

قالت : « واتخذ الله إبراهيم خليلا ، وكلم الله موسى تكليما يا يحيى ، خذ الكتاب بقوة » فناديت : يا إبراهيم يا موسى يا يحيى ، فإذا أنا بشبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا ، فلما استقر بهم الجلوس قالت : .

« فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أذكى طعاماً فليأتكم برزق منه » .

فمضى أحدهم فاشترى طعاماً ، فقدموه بين يدى .

فقالت : « كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » .

فقلت : الآن طعامكم علىّ حرام حتى تخبرونى بأمرها .

فقالوا : هذه أمنا وإن لها أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن . فسبحان القادر على ما يشاء .

فقلت : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

دراســـة وتعقيب

وفى حديث المرأة الذى نقله لنا عبد الله بن المبارك يقدم لنا دليلا ملموساً على نبوغ المرأة العربية وقوة عارضتها ، وبلاغة منطقها ، ودقة تمثلها بالآيات الحكيمة ، والمثل القرآنى .

فقد أرتنا سمو القرآن ، وعظمته الأدبية ، وقوته البيانية بما يزخر من

قوة التصوير ودقته وإحكامه ، فليس هناك تصوير أجمع لأطراف المعنى ، وأشد مداخلة للإحساس وأبلغ إثارة للمشاعر من تصوير القرآن الكريم .

والمتكلمة بالقرآن ، ساقت لنا عن طريق عبد الله بن المبارك درراً غالية ، ولآلىء ثمينة ، وأمثلة رائعة ، ولا تخفى على السامعين قيمة التأثير المثلى ، وأثر الآية الحكيمة فى النفس وكيف يودعان فى التعبير من الجمال والأسرار ما يسمو بالمعنى ويصل إلى الغرض منه .

والأمثلة والحكم التى ساقتها المرأة المتكلمة بالقرآن كلها أمثلة غير صريحة ، فقد جاءت أمثلة كامنة مطوية وهى تمثل الآيات القرآنية التى لم يصرح فيها بلفظ المثل ، وإنما يفهم من معناها ما يدل على أنها تضاهى مثلا من الأمثلة المعروفة عند العرب[1] .

فقد حوت القطعة النثرية صوراً عظيمة من أمثلة القرآن : « ومن يضلل الله فما له من هاد » ، « ولا تقف ما ليس لك به علم » ، « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، « واقصد فى مشيك واغضض من صوتك » ، « وما يذكر إلا أولوا الألباب » ، « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » ، « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » ، « وعلامات وبالنجم هم يهتدون »

وهذه من أمثلة القرآن الرائعة التى تمثل فيضاً من أسلوب القرآن المعجز الذى تحدى العرب وهم قد تسنموا ذروة البلاغة ، وبلغوا فى الفصاحة أوج الكمال .

وقد حوى القرآن أمثلة كثيرة ، بحيث إنك لا تجد فى الغالب والكثير مثلا أو حكمة عند العرب أو العجم إلا ولهما نظيرهما فى القرآن الكريم ، وقد سئل أحد الحكماء :

---

(١) القرآن إعجازه وبلاغته ، المطبعة النموذجية : ٤٨ دكتور عبد القادر حسين

إنكم تزعمون أن القرآن قد حوى أمثال العرب والعجم ، فهل تجد فى كتاب الله (اتق شر من أحسنت إليه) فقال أجل « وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله »قال : فهل تجد : (كما تدين تدان) ؟ قال فى قوله تعالى : « من يعمل سوءاً يجز به » (النساء ١٢٣) .

قلت : فهل تجد فيه : (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) ؟

قال : « هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل » (يوسف ٦٤) .

قلت : فهل تجد (من أعان ظالماً سلط عليه) .

قال : « كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير » (الحج ٤) .

قلت : فهل تجد فيه قولهم : (لا تلد الحية إلا الحية) ؟

قال : « ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » (نوح ٢٧) .

قلت : فهل تجد فى القرآن قولهم : (للحيطان آذان) ؟

قال : « وفيكم سماعون لهم » (التوبة ٤٧) .

ومن ذلك أيضاً قول على رضى الله عنه (القتل أنفى للقتل) . وفى القرآن : « ولكم فى القصاص حياة » (البقرة ١٧٩) ومن ذلك قول العامة : (من حفر لأخيه بئراً وقع فيها) ، وفى القرآن : « ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله » (فاطر ٤٣) ، ومن ذلك (مصائب قوم عند قوم فوائد) وفى القرآن : « وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » (آل عمران ١٢٠) [1] .

وهكذا نجد أن المرأة المتكلمة أهدت لنا باقة بلاغية وأمثلة عظيمة من القرآن الكريم .

وحبذا لو تمثل بذلك فتياتنا واقتبسن تعبيراتهن ومثلهن من وحى القرآن ، واقتدين بأسلوبه الحكيم وآياته المعجزات .

---

(١) نفس المصدر السابق : ٤٩ .

حديث الجوارى الخمس اللائى وصفن خيل آبائهن

قال القالى فى أماليه[1] :

حدثنا أبو بكر بن دريد قال : حدثنى عمى عن أبيه عن ابن الكلبى عن أبيه قال : اجتمع خمس جوار من العرب ، فقلن : هلمُمْن ننعتْ خيل آبائنا .

فقالت الأولى : فرسُ أبى وردة ، وما وردة ؟ ذات كفل مُزحلقٍ ، ومتنٍ أخلق ، وجوف أخوق ، ونفس مَروح ، وعين طروح ، ورِجلٍ ضروح ، ويدٍ سَبوح ، بُداهتها إهذاب ، وعَقْبها غلاب .

وقالت الثانية : فرس أبى اللَّعّاب ، وما اللَّعّاب ؟ غبية سَحاب ، واضطرام غاب ، مُترصُ الأوصال ، أشمُّ القذال ، مُلاحك المحال ، فارسه مُجيد ، وصيده عتيد ، إن أقبل فظبى مَعّاج ، وإن أدبر فظليم هَدّاج ، وإن أحضر فعِلج هرّاج .

وقالت الثالثة : فرس أبى حُذمه ، وما حذمه ؟ إن أقبلت فقناة مُقوّمه ، وإن أدبرت فأثفِية ململمة ، وإن أعرضت فذئبة مُعجرمة ، أرساغها مُترَصه ، وفصوصها ممَحَّصه ، جريها انثِرار ، وتقريبها انكدار .

وقالت الرابعة : فرس أبى خيفق ، وما خيفق ؟ ذات ناهق مُعرق ، وشدق أشدق ، وأديم مملّق ، لها خلق أشدف ، ودسيع مُنفتَنَف ، وتليلٌ مُسيف ، وثّابه زلوج . خيفانة رهوج . تقريبها إهماج ، وحُضرها ارتِماج .

وقالت الخامسة : فرس أبى هُذلول ، وما هذلول ؟ طريدُه محبول ، وطالبُه مشكول ؛ رقيق الملاغِم ، أمين المعاقم ، عبل المحزِم ، مخد مِرجم ،

---

(١) ارجع إلى المزهر : ٥٣٨ جزء أول .

منيف الحارك ، أشم السنايك ، مجدول الخصائل ، سبط القلائل ؛ غوج التليل ، صلصال الصهيل ، أديمه صاف ، وسبيبه ضاف ، وعفوه كاف .

قال القالى : المُزْحلق : المملَّس والأخلق : الأملس . وأخوَق : واسع . ومروح : كثيرة المرح . وطروح : بعيدة موقع النظر ، وضروح : دفوع ؛ تريد أنها تضرح الحجارة برجليها إذا عَدت . وسبوح : كأنها تسبح فى عدوها من سرعتها ، وبداهتها : لجاءتها ؛ والبداهة والبديهة واحد . والإهذاب : السرعة . والعقب : جرى بعد جرى . وغلاب : مصدر غالبته ؛ كأنها تغالب الجرى .

والغبية : الدّفعة من المطر . والغابُ : جمع غابة ، وهى الأجمة . ومترَص : محكم . وأشم : مرتفع . والقذال : معقد العذار . ومُلاحك : مُداخل ؛ كأنه دُوخل بعضه فى بعض ، والمحال : جمع محالة وهى فقار الظهر . ومجيد : صاحب جواد . وعتيد : حاضر ، ومعاج : مسرع فى السير . وهَدّاج : فعّال من الهدْج وهو المشى الرُّويد ؛ ويكون السريع . والعِلج : الحمار الغليظ ، وهرّاج : كثير الجرى .

وحُذمة : فُعَلة من الحذم وهو السرعة ، وقيل القطع . وقولها قناه مقوّمة ، تريد أنها دقيقة المقدّم ، وهو مدح فى الإناث ، والإثفيّة : واحدة الأثافى . ومُلملمة : مجتمعة ؛ تريد أنها مدورة . وقولها معجرمة ؛ قال أبو بكر : العَجْرمة : وثبة كوثبة الظبى ولا أعرف عن غيره فى هذا الحرف تفسيراً . ومحصة : قليلة اللحم قليلة الشعر . وانثراد : انصباب .

وخيفق : فيعل من الخفق وهو السرعة والناهقان : العظمان الشاخصان فى خدّى الفرس . ومُعرق : قليل اللحم ، وأشدق : واسع الشّدق . وعملّق : عملس .. والأشدَف : العظيم الشخص . والدسيع : مركب العُنُق فى الحارك . ومنفنف : واسع . والتّليل: العنق . ومسيّف : كأنه سيف ، وزَلوج : سريعة . والخيفانة : الجرادة التى فيها نقط سود تخالف سائر لونها ، وإنما قيل للفرس :

خيفانة اسرعتها ، لأن الجرادة إذا ظهرت فيها تلك النقط كان أسرع لطيرانها .
ورَهوج : كثيرة الرَّهج ، وهو الغبـــار . والإهماج : المبالغة فى العدو .
والارتعاج : كثرة البرق وتتابعه .

ومحبول : فى حِبالة ، ومشكول : فى شِكال والملاغم : الجحافل . والمعاقم :
المفاصل . وعبل : غليظ والمحزم : موضع الحِـزام . ويخدّ : يخدُّ الأرض ؛
أى يجعل فيها أخاديد أى شقوقاً ومِرجم : يرجم الحجر بالحجر . ومنيف :
مرتفع والحارك : مِنسج الفرس . والسَّنابك : أطراف الحوافر ، واحدها
سُنْبُك ومجدول : مفتول . والفليل : الشعر المجتمع ، والفوج : اللَّين
المنعطف . والصَّلصلة : صوت الحديد ، وكل صوت حاد ، والسَّبيب : شعر
الناصية ، وضاف : سابغ .

ولعل هذا الطرف الذى قدمناه فى أدب الجوارى يدل على مدى ما كان لهن
من مواهب أدبية خلاقة ، وأسهمن بإنتاجهن مساهمة كبيرة ظهر أثرها واضحاً فى
الأدب العربى كله ، كما أثرن فى شخصيات الآخرين من رواد مجالسهن ، وأصحاب
الأندية ومجالس الأدب تأثيراً عظيما برز فيما كان من هؤلاء من إنتاج أدبى رائع ،
ما كان ليصدر عنهم لولا ما أثرنه فيهم من كوامن العاطفة ومشاعرهن المرهفة ،
وما كان منهن من جميل القول ودرر النثر مما أثار إعجاب الخلفاء والأمراء
واستولى على لب الأدباء ؛ فكان من هؤلاء وأولئك ، أدب ساحر ، وتغن
عذب ، تودداً للجوارى ومجاراة لهن فى الميادين الأدبية المختلفة .

وما أثر عنهن من إنتاج لا يقل جودة وإتقانا عما أثر عن غيرهن من كتاب
وأدباء ، وبصرف النظر عما أحاط بهن من ظروف قاسية ، كانت تقسو عليهن

إلى درجة تشويه سمعتهن ، وزعزعة مراكزهن ، وتقليص شخصياتهن ، وإلصاق كل ما هو شائن معيب بهن .

ومع ذلك فقد استطعن بما توفر لهن من ثقة بالنفس ومواهب أدبية وثقافية أن يثبتن فى حلبة الصراع ، فإذا كن قد خسرن معركة الحرية الشخصية والكرامة وفقدن كيانهن كنساء محترمات موقرات ، فقد فجرن طاقتهن فيما أتيح لهن من فرص ، فربحن معارك الفن والأدب (١) .

---

(١) الأندية الأدبية ص ٢٦٠ .

خـــاتمـــة

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن قبل أن نضع اللمسات الأخيرة لكتابنا (أدب النساء) فى الجاهلية والإسلام . هذا السؤال هو : لماذا قل نثر النساء ونتاجهن الأدبى فى فتراته المختلفة وبخاصة فى العصر الجاهلى — باستثناء العصر الحديث الذى نهضت فيه المرأة كاتبة وشاعرة ومفكرة وقصصية ، وخطيبة ومحاورة ومناظرة .

ورداً على تلك التساؤلات نقول :

١ — فى العصر الجاهلى لم تكن هناك الإمكانات المتاحة التى تهيء لظهور هذا الفن النسائى (النثر الفنى) فالرواة كان جل اهتمامهم منصباً على رواية الشعر وحفظه ، لحب العرب للشعر وتعظيما للشاعر « لأن العرب أمة شاعرة يعتزون بشعرهم ويتخذونه الوسيلة لتخليد مآثرهم والإشادة بفضائلهم فهو عندهم كالآثار المشيدة التى خلفتها بعض الأمم »[1] وقد سارعوا إلى حفظه — دون النثر — لأنه أسير على الزمن وأبقى على الدهر ، ولأنه أسرع فى الاستظهار والحفظ من النثر ، إذ النفس إليه أميل والفؤاد به أشد علوقاً ، وأكثر رغبة لارتباطه بالموسيقى والغناء لكونه منهما ، بخلاف النثر الذى تجرد من هذا الارتباط الموسيقى ، فهو معرض للنسيان والترك ، فتراكيبه غير منغمة ولا تعطى رواته فرصة الترنم والتغنى به ، مما جعله لم يعمر طويلا ، أما الشعر فعمره أطول لسهولة حفظه والتغنى به .

٢ — وربما ترجع قلة النثر الفنى النسائى إلى أن الرواة فى عصر الجمع والتحصيل

---

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى : ٦٠٣

كانوا حراصاً على الغريب فكانوا يأخذون عن الأعراب لأنهم يقدرون فى الشعر قيمته اللغوية [١] ولم يحفلوا برواية نثر النساء ربما لقلة غريبه ، أو لأن فيه ليناً وضعفاً فعدلوا عنه إلى الشعر ولم يعبأوا به .

٣ — لم تكن هناك الوسائل الكافية التى تشجع على تسجيل الكتابة النسائية ، أو النثر الفنى النسائى ، فبالرغم من أن الكتابة كانت معروفة فى العصر الجاهلى ولكن الأدوات الكتابية كانت بدائية وغير ممكنة التداول وليست هناك من الوسائل الحديثة التى تساعد على انتشارها وتداولها وتتناقلها الأجيال تلو الأجيال ، وحتى لو وجدت هذه الوسائل فليس هناك ـ كما قدمنا ـ من يشجع النثر ، فالاهتمام كله بالشعر والشعراء لأن الشاعر لسان قبيلته يذيع محامدها ، ويهجو خصومها ، ولم تكن المرأة لتقوم من القبيلة هذا المقام ، لذلك قل نثر النساء وكثر شعر الرجال .

٤ — النثر بصفة عامة كان قليلا جداً لأن العرب استخدموا الكتابة فى العصر الجاهلى لأغراض سياسية وتجارية ، ولكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة [٢] تتيح لنا أن نزعم أنه وجد عندهم نوع من العناية الفنية .

ويرى الجاحظ أنهم كانوا يكتبون بعض عهودهم السياسية ، وكانوا يسمون تلك العهود (المهارق) [٣] .

ويقول الدكتور شوقى ضيف «مما لا شك فيه أنه لا يوجد تحت أيدينا وثائق نستطيع أن ندعى بها أن الجاهليين عرفوا الكتابة الفنية ، إنما الذى نستطيع أن ندعيه أن لهم حقاً عن طريق الوثائق الصحيحة ، هو الأمثال ، فقد أكثروا من ضربها ، وقد سلمت لنا طائفة واسعة من الأمثال تداولتها الرواة

---

(١) نفس المصدر ٥٠٦ (٢) الفن ومذاهبه فى النثر الفنى .

(٣) الحيوان ١ : ٦٩ .

جيلا بعد جيل مما أتاح لها أن تحتفظ بصورتها الجاهلية ، ومعروف أن الأمثال لا تتغير بل تظل طويلا على هيئتها التي صيغت عليها .

وأما الخطابة وسجع الكهان فضاعت نصوصهما إلا قليلا جداً ، إذ بقيت بعض قطع ، وبعض صيغ منثورة فى ثنايا الكتب التاريخية والأدبية .(١)

وإذا كان النثر بصفة عامة قليلا جداً كما بينا ، كان النثر النسائى الفنى بصفة خاصة أقل من ذلك بكثير فضلا عن العوامل الأخرى التى كانت سبباً فى قلته وضآلته ، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً .

٥ — ارتبطت المرأة العربية بالشعر والغناء لأنهما يصدران عن العاطفة ويعبران عنها ، وبواعث الغناء هى بواعث الشعر « وللموسيقى أساس الشعر فهما عنصران أساسيان يكمل كل منهما الآخر ، والنساء أليق باحتراف الغناء من الرجال لأنهن فى الغالب أندى صوتاً وأحلى ترجيعاً ، وأرق نغماً ، ولأن لجمالهن وأنوثتهن أثراً فى الطرب لهن ، وقد ذهب الجاحظ إلى أن « الغناء المطرب فى شعر الغزل من حقوق النساء » ، وينبغى أن تغنى بأشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتى فيهن نطقت تلك الأشعار ، وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهى أن تقبله ، وبين فم تشتهى أن تصرف وجهك عنه ؟ على أن الرجال دخلاء على النساء فى الغناء ، كما رأينا رجالا ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح ، وبعد فأيما أحسن وأملح وأشهى أن يغنيك فحل ماتف اللحية كث العارضين ، أم شيخ منخلع الأسنان مغمض الوجه ؟ أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها ياسمينة ، أو كأنها خرطت من ياقوتة أو من فضة مجلوة (٢) .

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ٢٠

(٢) رسالة العشق والنساء ١٦٥ نقلا عن المرأة فى الشعر الجاهلى ٥٦ .

(٣) نفس المصدر السابق .

لذلك نجد أن ميل النساء إلى الشعر والغناء أكثر من ميلهن إلى النثر وتدبيج الإنشاء وبالتالى فإن الرواة أحيوا روايتهما وترديدهما ، والراوية عربى يهزه تغريد الطيور ويأسره هديل الحمائم ، وهذا هو السر الذى حفظ تراث الغناء والشعر وأهمل النثر النسائى ، حتى أن هناك كتباً كثيرة ألفت فى الغناء والشعر — وأهمها وأخلدها كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى .

٦ — نلاحظ أن أشعار النساء التى نقلتها إلينا الرواة قصائد قصيرة بجملتها أو مقطوعات ، والظاهر أن طبيعة النساء لا تساعدهن عادة على إطالة القصائد ، حتى فى قصائد الرثاء الذى هو الفن الأقرب لأذواقهن ، فلا نجد لواحدة منهن قصيدة تضارع قصيدة أبى ذؤيب الهذلى فى طولها ومتانتها أو مرثية كعب بن سعيد الغنوى ، ولهذا نجد فى الكتب التى عنيت باختيار القطع القصار لحماسة أبى تمام مقطوعات لهن [1] ، وهذا يدل على ضآلة القدرة الشعرية عند النساء ، وضيق نفسهن فى هذا المجال ، وإذا قصر باعهن فى المجال الشعرى كن فى مجال النثر أشد قصوراً وأقل إنتاجاً .

٧ — وفى ظل الإسلام الحنيف ، نشطت المرأة نشاطاً ملحوظاً ، فروت الأحاديث وكانت عضواً فعالا فى نشر رسالة الإسلام السمحاء وأحكام الدين ورفع منار السنة الغراء ، فروت الحديث عن النبى ﷺ كالسيدة عائشة رضى الله عنها ، فلقد كانت عاملا كبيراً ذا تأثير عميق فى نشر تعاليم الرسول ﷺ والتفانى فى إعلاء كلمة الله لتخفق رايته على الخافقين .

وأمر خطير كهذا يتطلب استعداداً خطابياً وأدبياً ، يؤهلهن لاقتحام هذا الميدان الجديد .

ولا شك أنه كان لهن دوائع نثرية واستعدادات أدبية وتراث أدبى كبير

---

(١) الدكتور على الهاشمى : ٢٨٤ .

ولكن الظروف التى مرت بها الدولة الإسلامية ، وحروب التتر والمغول ربما أضاعت هذا التراث .

فلا يعقل أن يكون للسيدة عائشة وهى وارثة البلاغة النبوية ، هذه الخطب المحدودة القليلة التى وردت إلينا كما لا يعقل بأى حال أن تجىء خطب الشيعيات أنصار على قليلة وقصيرة . ولا يخفى أن هذه الفترة التى عاصرت الشيعيات اتسمت بالنشاط والازدهار ، وقوى فيها هذا اللون من الخطابة التى تقوم على الحوار والمناظرة ، وتفرق الحكام إلى مذاهب شتى وأحزاب مختلفة ، كل يدافع عن مبدئه وعقيدته التى يؤمن بها .

٨ — من سمات الأدب الحرية والتنقل من مكان إلى مكان لحضور « الصالونات الأدبية » ومشاهدات المؤتمرات الشعرية والمنتديات الفكرية ، والإسلام حينما جاء وضع المرأة فى إطار شرعى ملتزم ، فهى محجبة ممنوعة من التحدث مع الرجال إلاّ من وراء حجاب ، كما أنها شغلت بأمور دينها ومناصرته ، وهذه العوامل تحد من نشاطها الأدبى وتقلل من إنتاجها النثرى .

وفى عهود المولدين والمحدثين وبخاصة فى الأندلس شاع الغناء والطرب والشعر ، ولا يخفى الارتباط الوثيق بين الشعر والغناء ، لأنهما معاً يصدران عن العاطفة .

وكما بينا أن المرأة أميل للغناء ، وما الغناء إلا مقطوعات من الغزل تنشد فى قصور الخلفاء ، وتغنى فى مقاصير الأمراء ، فى سبيل نيل الحظوة والظفر بالأعطيات والأموال ، فشاهدنا تنافساً بين النساء وبخاصة القينات على إجادة هذين الفنين : الغناء والشعر وبخاصة شعر الغزل ليبلغن بهما عند الخلفاء منزلة لا تسامى وحظوة لا ترام ، وزلفى لا تنال ، وقد بلغ من تفوقهن فى فن اللحن أنهن كن يعلمنه أبناء « الفرنجة » كل على حسب لغته ، وصارت الأندلس معهداً

للغناء والشعر ، يأتى إليه راغبو التعليم من كل فج عميق .
إذا عرفنا هذا وصلنا إلى السر فى قلة نتاجهن الأدبى ، وكثرة إنتاجهن الغنائى والشعرى وبخاصة فى هذه المرحلة .

٩ — يضيف الدكتور الحوفى رحمه الله عاملا آخر يسوقه تعليلا آخر لقلة نتاج المرأة الأدبى ، ويرجع ذلك إلى لون من التعصب ؛ فقد ضرب المثل ببعض الشعراء فى إجادة فنون خاصة ولم يضرب بالخنساء فى إجادتها الرثاء ، وإيثار ابن سلام لمتمم بن نويرة فى الرثاء مع وجود غيره من الشاعرات ، ومثل هذا كثير فى كتب الأدب » .

﴿ تم الكتاب بحمد الله — القسم الأول « النثر » ﴾

﴿ ويليه بعون الله — القسم الثانى « أشعار النساء » ﴾

﴿ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ﴾

أهم المصادر والمراجع

١ — القرآن الكريم

٢ — الحديث النبوى الشريف

٣ — الأغانى — أبو الفرج الأصبهانى — هيئة الكتاب — مصر

٤ — تحت المصباح الأخضر — توفيق الحكيم — مكتبة الآداب — مصر

٥ — المرأة فى الشعر الجاهلى — د/ على الهاشمى — دمشق

٦ — ديوان طرفة — هيئة الكتاب — مصر

٧ — شعراء النصرانية — لويس شيخو — مكتبة الآداب — مصر

٨ — حضارة العرب — جوستاف لوبون — عيسى الحلبى — مصر

٩ — الإصحاح — بيروت

١٠ — المرأة فى الشعر الجاهلى د/ الحوفى — مطبعة نهضة مصر

١١ — تحرير المرأة — قاسم أمين — بيروت

١٢ — صبح الأعشى — هيئة الكتاب — مصر

١٣ — قصة الحضارة — زكى نجيب محمود — لجنة التأليف والترجمة — مصر

١٤ — المرأة العربية — عبد الله عفيفى — دار الكتب المصرية — مصر

١٥ — الخطابة لأرسطو — إحسان عباس — بيروت

١٦ — الخطابة فى صدر الإسلام — دار المعارف — مصر

١٧ — الأدب الجاهلى — د/ محمد بدر وزميله — مطبعة المنار بالرياض

١٨ — الوسيط — أحمد الاسكندرى وآخرون — دار الكتب — مصر

١٩ — جمهرة خطب العرب — أحمد زكى صفوت — مصطفى الحلبى — مصر

٢٠ — العقد الفريد — لابن عبد ربه — لجنة التأليف والترجمة — مصر

٢١ — مجمع الأمثال — للميدانى — بيروت

٢٢ — جمهرة الأمثال — للعسكرى - بيروت
٢٣ — البيان والتبيين — للجاحظ — الخانجى مصر
٢٤ — بلاغات النساء لابن طيفور — بغداد
٢٥ — الأمالى — القالى — دار الكتب — مصر
٢٦ — ذيل الأمالى — القالى - دار الكتب — مصر
٢٧ — الكامل — للمبرد — بيروت
٢٨ — سرح العيون — لابن نباته — بيروت
٢٩ — إنسان العيون — للحلبى — المطبعة المصرية — مصر
٣٠ — خزانة الأدب للبغدادى — الخانجى — مصر
٣١ — الوصف فى شعر المتنبى — متولى القاسم — مجلة دار العلوم — مصر
٣٢ — صور البديع — د/ على الجندى — مكتبة الشباب — مصر
٣٣ — شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون — بيروت
٣٤ — الحكم والأمثال - دار المعارف — بمصر
٣٥ — الجديد فى الأدب العربى — لجنة تربوية — بيروت
٣٦ — تطوير الأساليب النثرية — المقدسى — بيروت
٣٧ — النصوص المقررة — عبد الفتاح لاشين وآخرون — الأهرام — مصر
٣٨ — الفن ومذاهبه فى النثر العربى — د/ شوقى ضيف — دار المعارف مصر
٣٩ — صحيح مسلم ، صحيح البخارى — مطبعة الشعب — مصر
٤٠ — سبل السلام — للزبيدى — مطبعة الرياض
٤١ — نهاية الأرب — النويرى — هيئة الكتاب — مصر
٤٢ — العمدة — لابن رشيق — بيروت
٤٣ — الخطب والمواعظ — محمد عبد الغنى حسن — دار المعارف مصر
٤٤ — الحياة الأدبية — د/ خفاجى — مؤسسة ومكتبة خدمة العلم بالرياض

٤٥ — أسلوب المحاورة — د/ عبد الحليم حفنى — مصر
٤٦ — الصناعتان — لأبى هلال العسكرى — بيروت
٤٧ — دائرة معارف مجلة المعرفة — مؤسسة الأهرام — مصر
٤٨ — الأدب العربى فى العصر العباسى — د/ محمد بدر — الأهرام — مصر
٤٩ — الحيوان — الجاحظ — عيسى الحلبى مصر
٥٠ — الأندية الأدبية فى العصر العباسى — الهاشمى — بيروت
٥١ — المزهر — جلال الدين السيوطى — عيسى الحلبى — مصر
٥٢ — الظرفاء والشحاذون فى بغداد وباريس — بيروت
٥٣ — الأعلام — للزركلى — بيروت
٥٤ — القرآن إعجازه وبلاغته د/ عبد القادر حسين — مصر
٥٥ — لغتنا الجميلة — فاروق شوشه — مكتبة مدبولى مصر
٥٦ — القاموس المحيط — بيروت
٥٧ — تاج العروس فى شرح القاموس — بيروت
٥٨ — مراثى شعراء النصرانية — لويس شيخو — بيروت
٥٩ — أعلام النساء — لعمر رضا كحالة — بيروت
٦٠ — الدر المنثور — زينب فواز — بيروت
٦١ — شاعرات العرب — عبد البديع صقر — المكتب الإسلامى — قطر

المحتوى

كتب للمؤلف

- الأدب فى العصر الجاهلى ــ الأهرام مصر
- الأدب فى صدر الإسلام وبنى أمية ــ الأهرام مصر
- الأدب فى العصر العباسى ــ الأهرام مصر
- محاضرات فى الأدب والنقد ــ الأهرام مصر
- البحث الأدبى
- دراسات حول النصوص الأدبية ــ الأهرام مصر
- نزهة الجلساء فى أشعار النساء ــ مطبعة الأمانة

تحت الطبع

- أشعار النساء فى الجاهلية والإسلام
- شعر المرأة فى العصر الحديث
- شعراء الأزهر فى العصر الحديث
- دراسة تحليلية لكتاب فن الشعر لأرسطو
- محمد بن عبد الوهاب وأثره فى الحياة الأدبية

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٩٩٨ / ١٩٨٣
الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧ —

طبع بمطبعة مكتبة الآداب المطبعة النموذجية